

حاجي جندي  
الصرخة



رواية  
ترجمة عن الروسية:  
د. إسماعيل محمد حصاف

# حاجي جندي الصرخة

(رواية تاريخية حقيقية عن إبادة  
الايزيديين في زمن الدولة العثمانية)

مراجعة وتقديم  
صائب خدر نايف





# الصرخة

حاجي جندي

**The Scream**

Haji Jondi

الطبعة الأولى: 2016

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: ba\_l\_alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف حاجي جندي، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجترأء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution  
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jaded Hasan Basha Entry

Revised copyright © Dar Sotour And Haji Jondi•The right of the Author of this work has  
been asserted in accordance with the Copyright• Designs and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، أو محررها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 978-1-77322-025-3

إلى الأيزيديين دائماً...

«مُصيبة شعبنا تكمنُ في تشتُّتنا وعدمِ ثقتنا  
ببعضنا البعض»

او كيزممو

أحد شخصيات الرواية



## الأهداء

إلى الجرح الأيزيدي...

«في الماضي والحاضر... على أمل ان يكون مستقبلنا أفضل».

الى...

«الدماء البريئة التي سالت جراء (74) فرمان»

الى...

روح الدكتور (حاجي جندي) الذي وثق تاريخ أهله وتمسك بهويته



## تمهيد

شاءت الصدفة وأنا في حديث حول إلدب الأيزيدي مع بعض المثقفين الأيزيديين في أوربا أن يتم الإشارة إلى هذه الرواية التي تعلق بذاكرتي وأثارت فضولي حتى أطلعت عليها وقرأتها مرتين وبحثت عن تاريخ مؤلفها والبحث عن مترجمها وعقدت العزم أن أعيد طباعتها للتعريف بها وبمضمونها لكونها تمثل فهماً لتاريخ الأيزيدية المأساوي وحملات الأباداة الجماعية التي حدثت بحقهم منذ الدولة العثمانية ولغاية الآن ويقدر باحثون بأن اتباع الديانة الأيزيدية تعرضوا إلى (74) فرمان أي حرب لآبادتهم في كوردستان العراق وسوريا وتركيا، الرواية ببحثي عنها ساقنتني لتاريخ مؤلفها البروفيسور (حاجي جندي) الذي توفي في عام (1991) في ارمينيا حيث تعرفت على بعض اصدقاءه الذين رووا لي كفاحه الثقافي والفكري في سبيل اعلاء شأن إلدب الثقافي الأيزيدي والكردي في ارمينيا التي كانت ضمن إلتحاد السوفيتي وبعدها استطعت التوصل إلى مترجم الرواية الدكتور إسماعيل محمد حصاف الذي تحدث لي عن لقاءه مؤلف الرواية واهداه أياها باعتبارها (أهم واعز أعماله) كما ذكر وقتها للدكتور حصاف بعدما وعده الأخير بترجمتها ويذكر الدكتور حصاف بأن عملية طباعتها وترجمتها كانت

في ظروف صعبة لم تجعلها تلقى إهتمام الكافي من الوسط الثقافي والإدبي وقتذاك بسبب الظروف التي صاحبت تاريخ طبعها سنة (1993).

بعد قراءتي للرواية والإطلاع على مضمونها رأيت من المهم إعادة طباعتها وإعطائها الإهتمام الكافي في الوسط الثقافي والإدبي وخاصة لدى المجتمع العراقي والعربي وحتى الكردي لزيادة المعرفة بأن الديانة الايزيدية تعرضت على مدى قرون لحملات ابادة لتغيير هويتهم الدينية وتهجيرهم من بلادهم لاسباب شتى كان الأختلاف الديني وعامل التطرف السبب الرئيسي في قتلهم وتهجيرهم في بقاع العالم المختلفة فالرواية تعرض وبأسلوب روائي سردي جميل لقصص متنوعة ولأحداث عايشها اتباع هذه الديانة وقتذاك (كالتهجير والتميز والتطرف والإغتصاب وصراع العادات والتقاليد..الخ) وهي أحداث حقيقية عايشها الكاتب او سمع فيها من أهله واقاربه هكذا توحى الرواية والمتتبع لسيرة حياة مؤلفها، أهمية الرواية تأتي في إنها تتضمن أحداث نادرة وتاريخية مهمة بالإضافة إلى الشبه الكبير في الأحداث والمعاناة ما بين الأمس واليوم اقصد ما بين ما ارتكبه الدولة العثمانية بحق رعاياها من الايزيديين في العراق وتركيا وسوريا والقفقاس وما يرتكبه تنظيم داعش الارهابي من مجازر بحق هذه الأقلية في جبل شنكال وسهل نينوى وفي سوريا أيضا، فعند قراءتك للرواية ستجد الشبه الكبير في الاحداث بين الامس واليوم فالمتابع لاحداث سنجار وسهل نينوى وما حدث لقرية كوجو واهالي سنجار من هجرة في الجبال لا يختلف عن ما حدث لقرية جاموش فان في تلك الحقبة وكيف سعت القبائل الايزيدية لشد الرحال والهجرة من الدولة العثمانية الى روسيا القيصرية

بحثاً عن الامان والمساواة واحترام كرامتهم وهي شبيهة باحداث اليوم التي يعيشها الايزيدية بعد احداث داعش واجتياحه لمناطقهم حيث بدؤا يشعرون بعدم الثقة في بلدهم وبين جيرانهم فشدوا الرحال مهاجرين في البحار وبين الغابات بحثاً عن الامان والكرامة والمساواة لهم فكانت اوربا ملاذاً آمناً لهم ول مستقبل اجيالهم.

تسلط الرواية ايضاً الضوء على العادات والتقاليد وكيف انتقلت معهم وبقيت حاضرة في سلوكهم اليومي واستطاعوا ان يستمروا في الحفاظ على هويتهم الدينية رغم اختلاف طبيعة الدولة التي رحلوا اليها ورغم كل هذه الصعاب بقوا محافظين على تراثهم وتاريخهم وهويتهم في الوقت الذي نشهد اليوم ضياع الهوية والتراث لهذه الديانة العريقة، كما تبحث الرواية الى جانب القصص الكثيرة قضايا اخرى كمسألة الاصلاح الديني التي يناقشها الحكيم والرجل الوقور اوكيز ممو مع رجال الدين (القوالين) عندما ينزلون في القرية لطقس ديني فيحدثهم عن ضرورة الاصلاح الديني في ظل المتغيرات التي يعيشونها وهذا ما اصبح مهماً الان ايضاً لمناقشته من قبل الايزيدية للحفاظ على ديمومة ديانتهم ومساعدتهم على التكيف مع واقعهم الجديد للمحافظة على البيئة الاجتماعية والاسرية لهم خاصة بعد الاحداث التي ولدها داعش في بنيتهم الاجتماعية وانتشارهم في بلدان الاتحاد الاوربي وامريكا وغيرها وضرورة تكييفهم مع واقع الحياة هناك، ولا ننسى ان الايزيدية في ارمينيا وجورجيا وروسيا مازالوا محافظين على هويتهم الدينية وطقوسهم وعبادتهم واستطاعوا بفعل تنظيمهم وثباتهم ووحدتهم ان يكونوا مؤثرين في الدول التي يتواجدون فيها.

الرواية إسمها الأصلي (Hawari) وتعني باللغة الكردية (الصرخة او النجدة او الصرخة للاستغاثة) وقد ترجمها الدكتور إسماعيل حصاف إلى (وجاء الربيع) لوجود طبعة روسية بنفس الإسم وكما يذكر المترجم بأن الربيع قد عاد إليهم بعد خلاصهم وعبورهم اراضي إلتحاد السوفيتي والأمان والاستقرار والحقوق التي تمتعوا بها بعد سنين من الاضطهاد والقتل على أيدي الدولة العثمانية، وقد ارتأينا بالعودة الى عنوان الصرخة لتكون اكثر تأثيراً مع الوضع الراهن وأكثر قبولاً مع رغبات القراء في هذا الوقت ولتحاكي معاناة الايزيدية الحالية في صرختهم التي هزت العالم لينظر العالم اليهم والعراقيين تحديداً لهول الكوارث والمصائب التي كانوا يعانونها وما زالوا بالاضافة الى ذلك اخترنا اضافة عبارة (رواية تاريخية حول إبادة الايزيديين في زمن الدولة العثمانية) لكون الرواية هي احداث حقيقية عاشها اهالي واقارب المؤلف وقد يكون هو عايش جزء منها وسطرها في روايته الحالية اثناء تواجدهم في الجانب العثماني وخلال رحلتهم الى الطرف الروسي.

وقد يتساءل البعض لماذا نتكلم عن اضطهاد الايزيديين في زمن العثمانيين في حين من الاولى ان نذكر معانات واضطهاد هذه الديانة في هذا المرحلة وفي ظل ما يسمى تنظيم الدولة الاسلامية في العراق والشام (داعش) تحديداً، وإلجابة تكمن في الرغبة بتعريف العالم بأن مأساة الأيزيدية ليست وليدة اليوم وانما هي مأساة متراكمة فالاييزيدية كسبب منذ قرون يصرخ ويضطهد ولا أحد يسمع لصراخه ويأبى لمعاناته ولهذا كان من الواجب علينا ان نبين للعالم اجمع بأن ما قام به تنظيم داعش بحق الأيزيدية ليس وليد اليوم وانما هو وليد قرون طويلة

وحصيلة تراكمية لافكار نمطية متأصله عنهم هذه الافكار التي حملت الكثير من المغالطات والدماء ورحلات التهجير والموت الجماعي بسبب انتماءهم إلى دين يختلف عن الآخرين.

طُبعت الرواية بموافقة من المترجم المالك لحقوق النشر وقمنا بتقديم لبعض الافكار والتوضيحات التي قد يجهلها القارئ الكريم وهي مهمة لتوضيح أفكار والمعلومات وربط الأحداث بما يعطى صورة واضحة لأحداث الرواية وتفصيلها، أملنا أن تلقى الرواية أعجاب المطلعين عليها وان تعزز قناعتهم بأن الأفكار الضالة والإضطهاد وإلغاء الآخر اوصهر الهويات الدينية او القومية او الاثنية الصغيرة في الهويات الكبيرة وعدم الاعتراز بالتنوع والأختلاف في البلدان التي نعيش فيها هو سبب من اسباب هجرة الأقليات الدينية خارج بلدها لغرض البحث عن بلدان وشعوب تحترم هويتها الدينية او الاثنية او القومية وتمنحهم حقوقهم بدون تمييز او اقصاء، فالشعوب والحكومات التي تحترم الأختلاف والتعايش المشترك وتحترم التنوع في بلدانها هي الشعوب الحية التي تصنع بلدان قوية ومتقدمة لان الأختلاف والتنوع ثروة للبلدان اذا عرفت الدول كيفية استثماره.

ختاماً يجب التذكير بأن الرواية كتبت باللغة الكردية وبالحروف الكليزية من قبل المؤلف حاجي جندي كما يشير في خاتمتها سنة 1965 وترجمت الى الروسية من قبل (أفان أفدالي) سنة 1978 في موسكو، كما كتبت بالحروف الكردية اللاتينية سنة 1999 من قبل (صالح او مري وناقدار) وقدم لها الدكتور عسكر بوبك، وترجمها الدكتور محمد اسماعيل حصاف من اللغة الروسية الى العربية سنة 1993 في سوريا،

وها نحن اليوم نضعها بين ايديكم عسى ان تكون رسالة وصرخة انسانية  
بأسلوب روائي تصل للضمائر الحية.

صائب خدر نايف

بغداد / 2016

## مقدمة المترجم

في بداية شهر آب من العام 1986 حطت بنا الطائرة في مطار يريفان المميز بطرازه المعماري وفي الطريق إستمتعنا بالنظر من خلال النافذة برؤية القمم العالية من جبال ((البروس)) أو ما يسمى بجبال القفقاس المغطاة بالثلوج طوال السنة.

وكانت هذه القمم التي تنظر عاليًا نحو عنان السماء تُدخل السرور إلى القلوب ويدخل المرء في جو شاعري، إلا أن الطائرة سرعان ما أخترت هذه الأجواء الرهيبة، لقد كدنا أن نلامس رؤوسها الحادة.

تسنى لي معرفة العديد من الشخصيات العلمية والثقافية خاصة خلال دراستي في معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ومن هؤلاء نذكر البروفسور أيفان فاريزوف رئيس قسم الإقتصاد في معهد آسيا وأفريقيا والأخوين جليل واوردوخان وإلكاديمي شاكرومحيوي وحمويان وغيرهم الكثيرون، ففي ذات مرة وفي موسكو عام 1983 سألتني المرحوم البروفسور قناتي كوردو (كوردوييف)<sup>(1)</sup>:

(1) قناتي كوردو (كوردوييف) (1909 - 1985)، ولد في قرية سوسة منطقة قاقازمان بولاية قارص - كردستان الشمالية. في عام 1918 هربت أسرته من مطاردة الترك إلى قرية كوركند. تولى في عام 1960 رئاسة الكابينة الكردية في معهد الإستشراق بمدينة لينينغراد وحتى وفاته. وهو أكاديمي مختص باللغة الكردية، له العشرات من الدراسات الأكاديمية. (المترجم).

هل سافرت إلى يريفان؟

فأجبتُه بالنفي.

حيثُذِرِدُّ عليَّ قائلاً:

إن لم تسافر إلى الأكراد هناك فإعتبر أنك لم تعش في إلتحاد السوفييتي وكان محقاً في رأيه، لقد دعاني في أكثر من مناسبة مكويان وجليلي جليل وغيرهم من الأشخاص الطيبين.

وفي عام 1986 كان في موسكو الدكتور شرف آشيريان يكتب عملاً علمياً لنيل درجة دكتوراه دولة، ودعاني بالسفر إليهم، فلبّيت هذه المرة الدعوة كآخر فرصة لي.

وفي يريفان هذه المدينة الرائعة البهية بجبالها الرائعة ومقاهيها الكثيرة والمريحة وبمياها العذبة، كان لي لقاء مع البروفسور حاجي جندي هذا الشخص الدؤوب والمتواضع، أن حاجي جندي هو أحد الكتاب الأكراد الإوائل فهو عالم فولكلوري وأديب.

إستقبلني في موقف الباص بجانب داره في الساعة الثامنة مساءً كان عجوزاً نحيفاً لكنه مليء بالحيوية والنشاط وقضيت معه وقتاً رائعاً وممتعاً فقد راح يحدثني عن حياته قائلاً:

((إسمي حاجي جندي جوارى، أنا وزوجتي من أطراف قارص، أن كلمة جندي<sup>(1)</sup> تعني (العسكري) في اللغة العربية أما في الكوردية

(1) جندي:- هو اسم ليس بالضرورة ان يرتبط بما ذكر وانما قد يكون له معاني اخرى وهو اسم شائع نوعاً ما بين الايزيدية ويرى البعض بأن يقصد منه في التراث الايزيدي المؤمنين او التلامذة والمريدين.

فتعني (Maqûl) أي الآغا ففي عام 1918 كنا والأرمن نسكن في قرينتا (يامان جاير) كنا نسميها (أمَّنْ جاير)، كانت قرينتا جبلية، وكانت غنية ببساتينها ومروجها، لذا كانت تسمّى أمن جاير وكانت مروجها مزدانة بأعشاب وأزهار مختلفة، وكانت تنبع منها ثلاثة ينابيع لذا كان أهل قرينتا، رجالاً ونساءً، أجمل من سكان القرى الأخرى وبالنسبة لي كنت أرمي الخراف، فوالداي كانا قرويان وكان أسم والدي جندي أسد وأسم والدتي زوزان أيثو وهي خالة فيريك أيثو.

ففي عام 1918 هربنا من قرينتا، بينما كان عساكر الترك يطاردوننا، وقد التقينا بهم في قرية إلاكيز كان عمري حينئذٍ 10-11 سنة، أما زوجتي زينب أيثو فكان عمرها آنذاك (4) سنوات، كنا يتيمين، لقد توفي في نفس السنة والدها ووالدها وشقيقتان لها بالتيفويد، كما إقتادوا في هذه السنة جدي أسد من قرية إلاكيز إلى قرية أرمنية تسمّى (عفدي بك) حالياً.

وفي تسارقشن (كوليلكاشين) توفي والدي هناك، أما أخي خاجو فقد إستشهد في عام 1941 خلال الحرب العالمية الثانية على أيدي الجنود الألمان وفي العام 1919 دخلت إلى دار الأيتام وبقيت فيها حتى عام 1929، لقد نسيت زوجتي اللغة الكردية، وهنا انهيت التكنيكوم، وكنت الأول بين الأيزيديين الذي يكمل دراسة المعهد التربوي.

بعد ذلك سافرت إلى قرية قونتاساس حالياً تسمّى (أمري تزه) القرية من إلاكيز وهنا تعلمت لغة الأم، فقد رحلت أعطي دروساً باللغة الكردية وتعلمت شيئاً فشيئاً إلى أن إنطلق لساني، تعلمت من تلاميذي، تعرّفت على الدنيا من خلال اللغة الأرمنية، وهنا في يريفان أفتتح المعهد التربوي الكردي فيما وراء القفقاس وعملت فيه مُدرساً ورحلت أولف الكتب.

كنا في البداية أنا ومشرفي العلمي البروفسور الأرمني أساتور خاجادوريان نطلق على القواعد الكردية (Zima name)، كنت طالباً للدراسات العليا عنده وكان يتقن الكردية جيداً حيث قَدِمَ إلى هنا من تركيا. في عام 1933 تزوجت من زينب أيقو، التي تعلمت لغة الأم في هذه السنة، وكنا أول من عمل في نفس السنة مذيعين في راديو يريفان القسم الكردي، حيث إشتغلنا هنا أكثر من سنة.

لدينا خمس بنات، اثنتان تحملان شهادة الدكتوراه ونوراجواري موسيقية، وجميعهن يعملن في سلك التدريس.

صدر لي أكثر من (40) كتاباً من الكتب المدرسة وإلادبية ولديّ ترجمات، وقد تُرجمَ كتابي (Hawari) إلى اللغتين الروسية والأرمنية.

كنت مُولعاً بالكتابة وكتنا نلاقي صعوبات جمّة في ذلك، كان محررنا يُصحح كتاباتنا سبع مرات، أما زوجتي فكما قال هذار ((جنديّة مجهولة)) وأنا والجنديّة المجهولة مندغمان في هذه الدبكة.

كنا ثلاثة أشخاص قَدِمْنَا إلى هنا من نواح قارص، ثلاثة أيتام وهم:

جرودي قانجو المحرر الأول لجريدة ((ريا تازه)) حتى عام 1937 وتوفي عام 1945 والثاني كان أميني عفدال الذي توفي عام 1964 والثالث كان حاجي جندي.

وما أن أنهى حديثه، حتى نهض من مكانه متوجهاً إلى غرفة ثانية وعاد يحمل بيده كتاباً وقال، إن هذا كتابي الأول ومن أفضل كتبي أنه قريب من قلبي أهديه إليك وأخذ يسجل عليه عبارات إلهاء، حينئذ وعدته بترجمته إلى العربية متى ما تسنى لي المجال.

ثم ودعني في موقف السيارات حيث إستقبلني، ودعته دون ان ألتقي به ثانية، لقد غادرنا وإلى الأبد، فقد توقف قلبه الكبير عن الخفقان عام 1991، لكنه معنا في كتاباته وأعماله القيمة، معنا في كتابه الرائع هذا (وجاء الربيع) او (الصرخة).

تعد رواية (وجاء الربيع) أو (Hawari) بحق روعة من روائع الإلادب الكردي فهي تحكي قصة أولئك المشردين من الأكراد الإيزيديين الذين هربوا من الظلم التركي إلى روسيا في أواخر القرن التاسع عشر. يتحدث فيها المؤلف عن واجب الفرد تجاه شعبه ووطنه، وعن فيودور ليتكين - فيريك بولات بيكوف<sup>(1)</sup> هذا الثوري المحترف الذي أصبح قوميساراً في أواسط سيبيريا خلال ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا وهو في ربيع العشرين.

لكنه لم ينتظر ربيع الثاني والعشرين، حيث جاء الربيع للآخرين لأولئك الذين ضحى فيودور بحياته من اجلهم.

ولد حاجي جندي في 18 (31) آذار 1908 في عائلة فلاحية، أنهى معهد اللغات وإلاداب بيريفان مُرّشح العلوم التاريخية في عام 1940 وحصل على مرتبة دكتوراه دولة في العلوم إلابية في عام 1964 بروفيسور من عام 1966.

أصبح رئيساً للقسم الكردي في معهد إستشراق الأرمينية من عام 1959 - 1961، حصل على أوسمة إلاتحاد السوفيتي، شارك في مؤتمر كتاب آسيا وافريقيا المُنعقد في طشقند عام 1958 وشارك في أعمال المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المُنعقد في موسكو 1960.

(1) يرد في الرواية اسمه (فيودور، فيديا، فيريك)

- له أكثر من (40) بحثاً علمياً، وقصص ادبية وكتب مدرسية نذكر منها:
1. كادر أو كولوكي سليمان سلفي، ملحمة شعبية كردية، يريفان 1941.
  2. الفولكلور الكردي، يريفان 1947.
  3. مار وإلاستكراد (مقالة).
  4. أدب أكراد ارمينيا السوفياتية، يريفان 1954 (باللغة الأرمنية).
  5. الملحمة البطولية الكردية مم وزين، يريفان 1956 (باللغة الأرمنية).
  6. دراسة في إلاب الكردى بارمينا السوفياتية، يريفان 1970.
  7. إلاباير الشعبية الكردية، يريفان 1969.
  8. الملحمة الكردية (رستم زال)، يريفان 1977.

د.إسماعيل حصاف 1993

## توضيحات

ورد في الرواية بعض العبارات والمصطلحات قد تكون غير معروفة للقارئ اما بسبب ترجمتها عن الروسية حرفياً بدون الدخول في معناها او لقضايا اجتماعية او دينية يجعلها القارئ فأرتينا توضيحها ادناه:-

- عشيرة سيبكا وعشيرة هسنا:- عشيرتي سيبكا وهسنا محور لبعض أحداث الرواية (سيبكا وحه سنيا ويذكرون احياناً سيبكان او حه سنيان) هما عشيرتان من عشائر الأيزيدية التي كانت متواجدة في تركيا، الاكثرية من عشيرة سيبكا دخلت لإسلام أثناء الحملات العثمانية وبقيت في تركيا أما عشيرة (حه سنيا او هسنا) فإن قسم قليل منهم دخل لإسلام وبقيت في تركيا وافراد من هاتين العشيرتين يسكنان الآن في ارمينيا وجورجيا من الذين بقوا محافظين على ديانتهم الأيزيدية ويسكن عدد من عشيرة سيبكا في مجمع خانك وسنجار في حين لا يوجد من عشيرة حه سنيان في العراق وتمثل هاتين العشيرتين محور أحداث الرواية حول الأيزيديين الذين إنتقلوا إلى الطرف الروسي هرباً من ملاحقة إالة العسكرية العثمانية لهم.

- الأيزيدية:- ديانة قديمة في ميزوبوتاميا، يتوزع اتباعها بين العراق (كوردستان العراق) وكوردستان سوريا وتركيا وفي ارمينيا وجورجيا

وروسيا بالإضافة إلى بلدان إلاتحاد إلأوربي وأمريكا، يبلغ عددهم أكثر من مليون شخص في كل انحاء العالم، وهي ديانة موحدة تؤمن بالله (خودا) لها جذور من الديانات القديمة التي وجدت في وأدي الرافدين، اشتق إسمها من كلمة (أيزدا) والتي تعني الموحدين او الآتقياء وهي كلمه سومرية قديمة وللديانة فلسفة خاصة تناقش فيها قضايا كثيرة كالخلق والوجود والخير والشر.. الخ، لهم اقوالهم ونصوصهم الدينية المقدسة ويؤمنون بجميع الانبياء والرسل،، معبدهم الرئيسي في العراق والعالم هو (معبد لالش المقدس) يقع في قضاء الشيخان مابين محافظة دهوك ومحافظة الموصل ويدير شؤون الايزيدية مجلس روحاني يتكون من اعضاء يشرفون على امور الديانة.

- الكفلة جمع كافال:- وردت في الرواية وهي ترجمة عن اللغة الروسية والقصد منها (القوال او القوالين) يمثلون مرتبة دينية في الديانة الايزيدية ولهم مهام دينية عديدة كترتيل الادعية والاقوال الدينية المقدسة في المناسبات الدينية وتشيع الجنازة ودفنها وينتشرون في منطقتي بعشيقة وبحزاني ويرأسهم كبير يسمى كبير القوالين وهو عضو في المجلس الروحاني الايزيدي ويقوم القوالين بجولات في مناطق الإيزيدية داخل وخارج العراق ويرافقون (الطاؤوس) (السنجق) بطقوس دينية مميزة ويذكر مؤلف الرواية مشهد زيارتهم الى قرى ومناطق في روسيا وقتذاك.

- يافا:- وردت هذه الكلمة في الرواية وهي ترجمة عن الروسية ويقصد فيها صورة او ايقونه الطاؤوس هو عبارة عن رمز لطير الطاؤوس مصنوع من النحاس والمسند على عمود نحاسي يعمد بماء العين

البيضاء (كاني سبي) في معبد لالش المقدس ويمثل علامة مهمة ومميزة ومقدسة في الديانة الإيزيدية وله طقوس ومناسبات خاصة تمارس في المناطق التي يحل فيها لكونه يرمز إلى طاؤوس ملك أحد رموز العبادة في الديانة الإيزيدية والشخصية الميثولوجية الرمزية والرئيسية في الديانة الإيزيدية، يوجد (7) طاؤوسات تجوب على طول السنة إلى أماكن تواجد الإيزيدية في بقاع العالم وهي:-

1. طاووس عنزل (الشيخان).
2. طاووس سنجار.
3. طاووس حلب وسوريا والشام.
4. طاووس تبريز (توريز - إيران).
5. طاووس مسقوفيا او بلاد المسقوف (روسيا، ارمينيا، جورجيا).
6. طاووس ولاتي خالتاي مملكة الخالتيين او الخالديين في (تركيا).
7. طاووس الزوزان خاص بالاييزيدية الكوجراي الرحالة المتنقلين اصحاب المواشي والاغنام في العراق وتركيا.

ويذكر بأنه كان لكل من ارمينيا وجورجيا وروسيا وتركيا وسوريا طاؤوس يرافقه رجال الدين ومنها القوالين وعندما ينزل في مكان ما يمارس الإيزيدية طقوساً دينية كبيرة وبيتهلون بحضوره لقدسيته وتلاشت هذه الطقوس بعد 2003 بسبب الأوضاع الامنية وخوفاً من استهدافهم من قبل الجماعات المتطرفة، رغم وجود دعوات الان لعودتها لأهميتها الدينية.

- خدر نافي:- تسميه تطلق من قبل الايزيدية في ارمينيا وجورجيا على عيد خدر الياس وهو نبي الله (الخضر)، حيث يحتل مكانه مميزة ومقدسة لدى الايزيديين ولهم فيه مناسبات وتقاليد وعادات يمارسونها ومنها الصيام لمدة ثلاث ايام في شهر شباط من بين الطقوس التي يمارسها الايزيدية في عيد خدر الياس انهم يقومون بقلي بذور (7) انواع من النباتات (الحنطة، الشعير، الحمص، الباقلاء، العدس، بذور عباد الشمس، الذرة، الماش، السمسم) بالاضافة الى وضع الدقيق (الطحين) بصورة معتدلة على احد المناطق المرتفعة في البيت ايماناً بأن الخضر (عليه السلام) خدر الياس فيما اذا زار البيت سيضع بصماته على الدقيق ليبارك البيت بالرزق وفي ارمينا يعتبرون العيد هو يوم الجمعة اما في العراق فيكون العيد يومي الخميس والجمعة.

- عيد خاج:- (خاج) بالكردية تعني الصليب ويقصد به عيد معمودية المسيح او عيد الغطاس ويحتفل به كل من الكنيسة الارمنية والكنيسة الاثدوكسية الغربية ((الروس والجورجيين والصرب واليونانيين)) من مراسيم العيد تعמיד الاطفال وتغطيس الصليب في الماء والايزيدية يحتفلون بعد هذا العيد بثلاثة او خمسة اسابيع حسب اكتمال القمر بدرأ بعيد خدر الياس، وهنا قصد المؤلف الفترة هذه بين العيدين.

- شيخ عدي بن مسافر او شيخ آدي:- يذكر في الرواية بالشيخ الكبير او الشيخ عدي وهو مجدد الديانة الايزيدية شخصية دينية محورية ومقدسة لدى الديانة الايزيدية عمل الشيخ عدي على ترتيب الديانة الايزيدية وازاف اليها الكثير من الاحكام والشرائع واحتل مكانة مقدسة ومميزة في ميثولوجيا الديانة كما انه يذكر في الكثير من اقوالهم

ونصوصهم الدينية بصفات مقدسة ويوجد قبره في معبد لالش المقدس، اما المنقذين السبعة الوارد ذكرهم في الرواية فهم الملائكة السبعة المعروفين ولهم مكانه مقدسة عن الايزيدية، ويجب الذكر بأن الايزيدية كديانة سابقة لوجود الشيخ عدي عليه السلام بتاريخ طويل والشاهد على ذلك الكثير من الطقوس والعادات الدينية التي يمارسونها.

- الاكراد او القبائل الكردية:- يتناول كاتب الرواية في الكثير من فقراتها عبارات (المرأة الكردية والقبائل الكردية والرجل الكردي) وهنا يقصد بها الايزيدي وحسب كل وصف يذكر فيها، لان الكاتب وحسب الدكتور حصاف المترجم للرواية لم يكن يرى فصلاً بين الكردي او الايزيدي ولهذا عندما يأتي في بعض النصوص في تمييزهم عن غيرهم فيذكر الاكراد الايزيديين والاكرد المسلمين للتمييز في سياق الحديث والرواية، في حين يرى البعض فصلاً بين الكردي والايزيدي وكانت بداية الفصل في روسيا كرد فعل على ظلم بعض الاكراد لهم في تركيا وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي زاد ذلك التوجه تجنباً من الارمن ايضاً، يذكر ان غالبية الايزيدية يتحدثون اللغة الكردية الكرمانجية باستثناء منطقتي بعشيقة وبحزاني الذي يتكلمون لغة عربية هجينة بالشامية.

- يرد في الرواية:- عبارة او فقرات بحرمة التعليم وان التعليم حرام للايزيدية والتوضيح بشأن ذلك بأن الايزيديين كانوا يمنعون اولادهم من الدخول للمدارس بغية عدم ضياع عقيدتهم الدينية وتقاليدهم، خاصة وان المدارس كانت قديماً في الكتائب الاسلامية او الكنائس المسيحية والاديرة ولهذا كانوا يمتنعوا عن ارسال اولادهم اليها بغية تعليمهم تعاليم دينية مغايرة لعقيدتهم وماقد يؤدي الى اندثارها ولكن

بعد افتتاح المدارس الحكومية ارسل الايزيديين اولادهم الى المدارس واصبح منهم جيلاً كاملاً من المتعلمين ولديهم الان جيل كبير من النخب المثقفة والمتعلمة في مجالات مختلفة.

# القسم الأول



## بشرى

أقبل شهر أيار الطلق الضاحك، الذي أخذ سحره المألوف من الطبيعة، فقد إكتست الأشجار بحلة العرائس وأشجار الخوخ والمشمش بالجد مور الأبيض، وأزهرت الجنائن والحدائق، ولبست مدينة يريفان حلة الربيع القشبية إلتقيت بصديقي القديم البروفسور يريميان في شارع أبوفيان.

إبتسم البروفسور قائلاً معذرة كمال، سأوقفك لبضع دقائق وصلتنا رسالة من موسكو إلى المعهد منذ فترة قصيرة بعثها أحد الشيوعيين القدامى، لا أذكر إسمه، يكتب فيها أن ليتكين الكردي وهو من سكان قرية ديغور كان في عام 1918 مفوضاً للشعب في وسط سيبيريا ومن المعيب أنني لم إسمع عنه شيئاً، كما لم يتسن لي البحث عنه في المصادر والمراجع لإنشغالي بأمر آخر، ولكن حسب معلوماتي لم يكن هناك أكراد في قرية ديغور التي كانت ضمن أرمينيا حتى عام 1918، وإلاهم من ذلك أن لقب ليتكين ليس لقباً كردياً مطلقاً، فما رأيك بهذا الشأن؟. إنتظر البروفسور الرد...

وفي هذه الأثناء جال خاطري في ديغور، ولكن ليس في ديغور التي تحدث عنها يريميان بل في قرية ديغور - الأيزيدية التي سميت من قبل أهلها بديغور - خراب<sup>(1)</sup> أي ديغور المهدامة.

(1) خراب ديغور احدى القرى الايزيدية في تركيا.

ديغور، ديغور...

أنت سيرة التاريخ الكردي ومأساة شعبي ومحتته، ولا يعيش فيك الآن سوى صدى هذا التاريخ ولكن لأولئك الذين عاشوا على أرضها فقط، ولكل من تناهى إلى سمعه صراع الجوع والمذلة ولكل ممن بقي حياً إلى هذا اليوم.

- معذرة يابروفوسور، سأرد على سؤالكم في وقت متأخر، إذ يترتب علي قبل ذلك التحدث مع أناس ولا سيما مع شقيقة ليتكين، ثم تفارقنا.

...ليتكين - عزيزي فيديا ليتكين...مرت سنوات كثيرة منذ أن إستشهد في معركة مع الحرس الأبيض إلا أن ذكره تبقى حية في نفوس رفاقه ومعارفه وفي نفوس من كان شاهداً على حياته القاسية.

وها هي الرسالة... ولكن من هو هذا الشيوعي القديم؟ ولماذا إستحوذ ليتكين على إهتمامه؟ وربما يكون أحد الذين كانوا مع فيودور في سنوات الثورة الملتهبة؟ ولا بد من إتصال مع هذا الشخص، وسافرت دون تردد أو تأخر إلى نورة بولاتوف! وفتحت صاحبة الدار باب الدار بنفسها.

- مرحبا يا نورة، أمل في أنني لم أسبب أي إزعاج لك؟ فقد سمعت بأنك ستدافعين قريباً عن إطروحتك، إنه شيء جميل أن تتوالى الأفراح.  
- عما تتحدث؟.

- أتحدث عن أنه ليس بعيداً أبداً ذلك اليوم الذي تصبح فيه عندنا أول

أمرأة كردية تدافع عن رسالة الدكتوراه وإني لا أستطيع أن أتمالك نفسي.

- كمال، ما الذي حدث؟ نظرت إليّ نورة بأستغراب.

- فيديا...

- ماذا فيديا؟ تكلم بسرعة... ماذا تعرف عنه؟ أجل لا تعذبني.

نقلت إلى نورة ماجرى بيني وبين البروفسور يريميان من حديث.

- وصرخت نورة بصوت متهدج، أحقاً يكون فيديا حياً؟... آه يا أخي يا عزيزي، أيها المغامر الشجاع! قالت ذلك ككردية حقيقية، أرجوك يا كمال دعنا نذهب الآن فوراً إلى يريميان، لا بد من قراءة هذه الرسالة، فمن هو هذا الرجل الذي كتبها؟.

المعذرة، لكن عليك أن تفهمني، كم من السنين وأنا أبكي عليه، لكنني أريد أن أصدق من أعماقي بأن أخي فيودور حي وإنه لم يقتل! وسيكون قتله مريراً حقاً إن كان ذلك قد حدث؟...

إلتقينا آخر مرة في صيف عام 1917 عندما صاحبني فيديا وشقيقتي ماروسا من تولون إلى الوالد في ديغور إلا أن فيودور لم يبق في ضيافة الوالد طويلاً، وقد كان والدنا عكيد آغا يحب فيديا حباً جماً، وهو يشعر بدنو الشيخوخة، وعمل جاهداً ليجعل من فيديا مساعداً ووريثاً له بيد أن فيديا كان إنساناً من طينة أخرى، حيث كانت ميول والده لإرستقراطية غربية عليه، ولذا مراراً جرى بينهما مناقشات حادة فلم يتمكننا من إيجاد لغة مشتركة فقد كان فيديا ينظر إلى الحياة نظرة أخرى، وكانت له آراء

وطموحات تختلف عن آراء والده وطموحاته وبقيت الأحداث الجارية في روسيا تثير القلق في نفسه، وشغل مصير الثورة الروسية باله كان فيديا يحب قريتنا جداً، حيث قضى فيها سنوات طفولته وكان أثناء إقامته في سيبيريا يحن إليها وإلى الشعاب والأنهار الجبلية، والقمم المغطاة بالثلج، والأقارب الذين لم ينسوه أبداً، إلا أنه لم يتمكن من البقاء في ديغور، فقد كان يعيش النضال وكتب هذه القصيدة في عشية سفره سيبيريا:

هل أعود شمس الجنوب،

إلى جبالي الحبيبة،

حيث أعد لي القفقاس،

بساطاً مزركشاً،

كما يعد الصديق للصديق؟

هل أعود إلى فيافي أشجار الدلب<sup>(1)</sup>

تحت أشجار الحور الباسقة،

هل أرى ثانية بيتي القديم

حيث خرير الجداول وظلال الإغصان

هل يتيح لي القدر ثانية أن أكون

مشرداً حالماً في الحقول

وأنا أغني للحياة أغنية شجية طويلة

(1) الدلب: نوع من الأشجار تسمى (چنار) - المترجم.

في ليلة مقمرة،

شاخصاً ببصري إلى السماء الزرقاء،

أو في ثلوج سيبيريا النائية

في أدغالها المقفرة،

أقضي طريق حياتي الشجية

وأصبح فيطي النسيان

ومن ثم إستلمنا بعض الرسائل ولفترة ما وقد كتب بصورة أساسية إلى فاسيا، شقيقنا الصغير باسو، هكذا كانوا يسمونه في ديغوركان الوالد يأمل في أن يجعل من فاسيا مساعداً له في شؤونه، إلا أن فاسيا إتعد تدريجياً عنه ومال إلى فيديا بشكل أكثر كان لابد من رؤية فاسيا وفيديا معاً، عندما كانا يتبادلان الاراء فيما بينهما حول الأحداث الجارية في روسيا.

كما كان مظهرهما الخارجي متشابهاً، وكما تعلمون أصبح باسو ثورياً فيما بعد وقتلوه أثناء الأنسحاب من منطقة قارص، حيث كان يقود وحدة مفرزة الأكراد - الأيزيديين<sup>(1)</sup>، كما قتلت شقيقتنا ماروسا... ولكن فيديا؟ ماذا حل به، لدي رغبة شديدة في معرفة الكثير عنه.

أجهشت نورة بالبكاء لقد خنقتها الدموع المكبوتة طويلاً لقد شعرت بألمها ومحتتها، فقد فقدت جميع أقاربها... وفجأة هذه الرسالة من

(1) أن هذا الإصطلاح ديني فقط ويستخدم كثيرا في أوساط الأكراد الإيزيديين الذين حافظوا على دينهم الأصلي ولم يدخلوا الاسلام ويقارب عددهم حاليا اكثر من 500 ألف نسمة سواء في كردستان العراق أو في الإتحاد السوفياتي (الترجم).

موسكو وشعرت بالذنب أمام هذه المرأة، لأن خبري كان سبباً لقلقها وأمالها الخائبة... إذ أنه من الصعب على الأقارب أن يألفوا حقيقة مقتل شخص عزيز عليهم وهكذا، فقد تأثرت نورة تأثراً شديداً بذلك النبأ المهم الذي أخبرتها به.

كان الأطفال يلعبون ويمرحون في الشارع الذي يقيم فيه يريميان وكانت أبواب شقق كثيرة ونوافذها مفتوحة على مصاريعها وكان الجميع يتحدثون عن الدفء وعن النزعات الربيعية.

صعدنا إلى الطابق الثالث، وضغطت على زر الجرس.

- تفضلوا، تناهى إلى سمعنا أصوات من داخل الشقة، تخطينا عتبة الدار، وأوصدنا الباب وراءنا.

- مرحباً، إن جئتم لزيارة الجد فهو في مكتبة، إدخالوا مباشرة إليه نظرت إلينا حفيذة يريميان لحظة وإبتسمت ومن ثم إختفت في الحال.

- مساء الخير يا بروفيسور ألم نزعجك؟ سألته بإضطراب، عندما فتحت باب المكتبة.

- أبدأ.. إدخالوا، إدخالوا كمال أه لست وحدك!.

- أسمحوا لي أن أعرفك بنورة عكيد بولاتوف، شقيقة فيودور ليتكين.

- هكذا إذن! إنني سعيد جداً بالتعرف عليك.. وبدت على وجه البروفيسور علائم الإعجاب والمشاركة وحب الفضول.

- نعتذر عن الزيارة المفاجئة، ولكن ما سمعته من كمال، أثار القلق في نفسي لدرجة أن.....

- عزيزتي نورة عكيد! قاطعها البروفسور - انا سعيد بمجيتك ويسعدني أكثر إذا تمكنت من تقديم عون لك، هذه هي الرسالة التي إستلمناها من موسكو.

أخذت نورة الرسالة من يده بأضطراب ثم وضعت الورقة على الطاولة وبدأت تقرأها بأمعان.

- لكن ما الأمر؟ سألتها بعد أن أنتهت من قراءة الرسالة عسى أن يكون خيراً؟

- ليست ثمة أبناء جديدة ولكن مانعرفه بوضوح هو أن هذا الرفيق الذي يحمل لقب ريبايكوف، كان على معرفة جيدة بفيودورو من ثم إنقطعت الاتصالات بينهما ونظرت نورة إلينا وقد أغرورقت عينها بالدموع.

- ولكن بغض النظر عما قد حدث، فأنا ستتصل مع ريبايكوف، ونستوضح عن ماهو معروف لديه ويبدو أن ما قلناه قد أدخل في نفسها الطمأنينة بعض الشيء، حيث سارعت إلى كتابة عنوان ريبايكوف، ومن ثم توجهت إلى يريميان:

- ربما تجهلون الكثير من هذه القصة والآن عندما قررتم مساعدتي بلطف أود أن أتحدث لكم عن فيودور وعن عائلتنا سأعترف لكم بما أسديتم لي من جميل فقاطعها البروفسور قائلاً:

ولكن قبل كل شيء أرغب في تقديم فنجان من القهوة لكما خرج البروفسور وعاد بعد عدة دقائق وهو يحمل صينية وعليها ثلاثة فناجين من القهوة مع الجزوة المليئة بالقهوة الساخنة ذا النكهة الطيبة.

وما كان على نورة التحدث عنه وبخطوطه العريضة كان معروفاً لدي، ولكنني مثل يريميان، أنتظرت بفارغ الصبر قصة هذه العائلة الصغيرة عائلة آغا وحفيد الفلاح بولات.

بدا قبل كل شيء إنها قصة حزينة جداً فقد جرى إختطاف الفتاة التي كان يحبها والدنا عكيد حيث قتل ابن عمه عمر عن طريق الصدفة شقيقتها وعلى أثر ذلك نفي والدنا إلى سيبريا، وفي مدينة تولون السيبرية الصغيرة تزوج والدنا من والدتنا أنا كارتاشوف.

وفي عام 1907 إنتهت فترة النفي، لذلك جلبنا الوالد جميعاً مع الوالدة الى قريته الحبيبة خراب - ديغور وبالرغم من أن أقرباء الوالد عاملوا والدتنا بالحب والتقدير، ولكننا لم نمكث في ديغور إلا قليلاً ويقال، أن أحداً من «الصالحين» قد أخبرها أن زوجها يرغب نتيجة إلحاح من أخيه وأقاربه بالزواج من امرأة كردية وقد شعرت الوالدة بالأهانة أثر هذا النبأ فقررت العودة إلى سيبريا مهما كلف الأمر.

أخذتنا الوالدة معها أنا وماروسا التي كانت تسمى بريشان بالكردية وفيريك وفيديا، وسافرنا تولون، لم يبق عند الوالد سوى باسو.

- معذرة يا نورة عن مقاطعتك، لكن من أين له لقب أو نسب ليتكين؟، سألها يريميان.

- أجل لقد نسيت أن أقول لكم، أن والدتنا في مقتبل عمرها قد تزوجت من شخص بورياتي<sup>(1)</sup> إسمه ماتفي ليتكين ولم يكن هذا

(1) البوريات: شعب من شعوب الإتحاد السوفياتي قدر عددهم حسب إحصاء عام 1979 بـ 353 ألف نسمة يعيشون في بورياتيا كما تقطن مجموعات منهم في الشمال منغوليا وشمال شرق الصين لغتهم هي البورياتية (المترجم).

الزواج سعيداً، حيث سرعان ما إفتقرا لكنهما لم يتمكننا من تثبيت هذا الطلاق رسمياً بسبب إلاحوال المادية، ذلك سبب حملنا نحن الأطفال لقب زوج والدتنا الأول وفيما بعد في القفقاس بدأنا نحمل إسم والدنا. لكن فيودور ظل يحمل نسبة ليتكين لأسباب عديدة ولكنه لم يرفض نسب والده، وغالباً ماكان يوقع أشعاره تحت إسماء كردية فيريك فيدكو بولات بك، تلك هو تاريخ عائلي بأيجاز، نظرت إلينا نورة بعيون كثيبة، والآن دعنا نحيد عن هذا الحديث، فقد أسأنا التصرف يا بروفسور.

- ماذا تقولين يا نورة يا عزيزتي! أنا مسرور جداً بلقائنا ولدي رغبة شديدة في تقديم المساعدة لكم أتعرفين أنني بعد أن سمعت حديثك وجدت من الضروري وضع كتاب عن الأكراد المهاجرين من تركيا إلى أرمينيا، فقد يصبح مصير عائلتك نموذجاً حياً يعكس تاريخ الشعب الكردي، هذا التاريخ المتميز والشيق جداً وسيكون هذا الكتاب عن فيودور ليتكين بطل سيبيريا الوسطى، حيث علمت عن ذلك اليوم ولماذا لا تقوم بهذه المهمة يا كمال؟ سنكتب إلى ريبايكوف وستتعرف على تفاصيل النضال الثوري الذي قام به فيديا، أما أنتما فستقومان بالسفر إلى القرى الكردية لجمع المعلومات أن واجبنا هو أن يتعرف أكبر عدد من الناس على هذا الإنسان الرائع، وسنحاول أداء واجبنا هذا أليس صحيحاً يا نورة؟.

لاذت نورة بالصمت، ولم تبد علامات القلق عليها، لكن سألت على خديها دمعتان كبيرتان ببطء.

- أشكركم، إلى اللقاء يا بروفيسور.. رافقتُ نورة إلى بيتها وكانت أكثر هدوءً أثناء الطريق وتوجهت إلي بسؤال: ما رأيكم بأقتراح البروفيسور يا كمال؟.

- أرغب كثيراً في وضع كتاب كهذا..

- فليكن النجاح حليفك! وعليك أن تدرك بأنني دائماً في خدمتك، إلى اللقاء يا كمال وإفترقنا.

وفي حقيقة الأمر إستحوذت علي فكرة وضع كتاب عن مصير الأكراد ومنهم الاكراد الايزيديين المهاجرين في نهاية القرن التاسع عشر الى روسيا، وبالطبع عن الأبن البار للشعب الكردي فيودور ليتكين - فيريك بولات بيكوف.

وهاكم هذه القصة.....

\* \* \*

## كوراكاند

في مكان غير بعيد عن يريفان في منطقة أجميادزينسك تقع قرية كوراكاند على طريق زراعي يعج بالناس.

كانت الشمس قد بزغت من وراء قمم الجبال وهي كجمرة من نار عندما وصلت إلى كوراكاند لقد أضاءت أشعة الشمس الصباحية الزاهية بيوت الفلاحين وأشجار الفواكه والحقول، وكان كل شيء يسر الناظرين.

منذ الإلزمة الغابرة كان أغلبية سكان القرية من الإذربيجانيين، لكن أكثرية سكانها الآن من الأكراد الذين إستقروا هنا منذ عام 1918 جاؤوا إلى هنا مع المشردين من الأرمن من ديارهم الاصلية من قارص وشاتر أوغلي ومن سوسينر وسيناك ومن وان.

كانت قرية كوراكاند قبل ثلاثين عاماً عبارة عن مشهد كئيب، أما اليوم فهي قرية غنية ومعروفة في المنطقة، ذات بيوت جميلة مجهزة بخدمات كولخوزية.<sup>(1)</sup> تحول رُحّل الأمس إلى فلاحين حضر اصحاب أراض وغابات، ومن الصعب أن يصدق المرء أن حياة هؤلاء الناس كانت ذات

---

(1) الكلوخوزات عبارة عن تعاونيات فلاحية تُخضع للتسيير الجماعي كانت معروفة في الاتحاد السوفياتي.

يوم مليئة بالخوف الدائم من الغد والمشاحنات القبلية والحزن والفقر والقتل والنهب.

لكن في هذه القرية، لم يعد الناس يتطلعون إلى الماضي فنظرتهم متوجهة الآن إلى المستقبل فهم يتغيرون مع اليوم الجديد.

وصلت إلى كوراكاند للقاء مع سالم موسكوف، كنا نعرف بعضنا البعض لكن ها قد مضت عدة سنوات على فراقنا، فقد سمعنا من الأصدقاء بأن الخال موسكوف أصبح كولخوزياً طليعياً، وقد كتبت عنه الجريدة المحلية مراراً، أخبرني أول قادم من القرية بأن العجوز موسكوف أمس راعياً لقطيع في الكولخوز.

تذكرت الطريق إلى المرعى، فقد كان يمر عبر حقول القطن ثم عبر ممر ضيق يصعد إلى الجبال، وكانت الشمس في كبد السماء ونسمات هواء عليل تهب من الجبال هنا.

صعد قطيع الغنم من الوادي، حيث كانت تنغرس أظلافها الحادة في الأرض الهشة، كان العم موسكوف واقفاً على رابية صغيرة ويراقب بآنتباه قطيعه وكان بجواره كلبه الضخم الأشعث وقد مدد لسانه الطويل لإحمر وعندما لاحظ شخصاً غريباً أخذ الكلب بالنباح لكن العم موسكوف صاح عليه وخرج لملاقاتي.

- طاب وقتك يا عم موسكوف الله في عونك!

- مرحباً أيها الانسان الطيب رد وهو يتفرس فيّ، من أين أنت قادم وإلى

أين طريقك؟

- جئت للقائك جئت من يريفان أنا كمال.. ألم تعرفني؟.

- ولكن هل من الممكن معرفتك مباشرة

- إبتسم العجوز ليعطك الله ولأهلك عمراً مديداً يا بني، منذ فترة بعيدة لم تأت إلي نواحيننا، ضمنني العجوز ثم قبلني، كان لا يزال قوياً يرتدي ثوباً رثاً لكنه كان نظيفاً ومرتباً وكان العم موسكوف كما كان دائماً مسروراً ونشيطاً.

بسط العم موسكوف عباءته القديمة على الأرض وأخذ من الخرج خبز الصاج لافاش<sup>(1)</sup> والجبن وبصلتين وجرة مليئة بماء النبع، أكلت بكل سرور هذا الطعام وبدأت اسمع ذكريات العجوز موسكوف:

- أنا والمرحوم والدك من جيل واحد، ولدت في تلك الليلة عندما إنتقلت عشائرتنا من قارص بتركيا إلى إلاراضي الروسية وهكذا، فقد سماني عمريك بولات جد نورة بأسم موسكوف بمناسبة هذا الحدث لقد قال عمريك لوالدي سالم وقتذاك «لقد مدت موسكو إلينا يد العون في هذه الليلة وأنقذتنا من العذاب والويلات وأقترح تسمية الغلام بموسكوف» وافق والدي على الإقتراح وأجاب:

«كما تشاء وبدءاً من هذا اليوم يكون إسم إبني موسكوف منذ ذلك الحين يا عزيزي مضى وقت بعيد، وأولئك الناس الذين منحوني هذا اللقب لم يعودوا على قيد الحياة منذ زمن بعيد أما أنا فأرعى الغنم بهدوء وأعيش سنواتي الأخيرة، ويعود فضل ذلك كله إلى سلطتنا في موسكو ولهذا فأنتي أحب موسكو وأعتز بها وإن لم أراها.

(1) نوع من انواع الخبز يجذب بطريقة جميلة مازالت متبعه في القرى والارياف.

في الوقت الذي كان فيه العجوز يتفوه بعبارات الثناء لفت نظري كيف ترك التيس (المرياع)<sup>(1)</sup> القطيع واتجه صوبنا وسار من خلفه القطيع وبعد برهة قصيرة أحاط القطيع بنا من كل إاطراف أخذ العجوز المرياع من قرنيه وجره نحوه وقبل غرته وتوجه إليه، كما يتوجه إلى صبي قائلاً:

ماذا يا عزيزي، هل أصابك الملل؟ عليك بالراحة والاستلقاء على العشب ثم توجه إليّ: أتعرف يا بني، أحب عملي، أحب أغنامي ولكن سأقول لك بصراحة: هؤلاء الإربعة، أشار بيده إلى المرياع الاربعة، أحبهم كثيراً أينما إذهب يلاحقونني كالأطفال، ويصغون إلى مزماري ياله من لهو.

- يا عم موسكوف، قلت له، لقد بلغت من العمر عتياً، ومع ذلك لم تترك القطيع، فمن الأفضل تسليمه لأحفادك، أما أنت فعليك بالراحة.

- يا عزيزي، أتحدث في أمر جاد؟ أمن الممكن أن أبقى من دون عمل؟ أستلقي في الظل وأتسلى في المسبحة، أن ذلك لا يليق بي فهذا بالنسبة لي موت وليست حياة.

إنزعج العجوز بوضوح وأعتراني الحرج وحاولت أيجاد مبرر لما قلته له:

- جدي موسكوف، لا تغضب، فأني أرى كيف تقوم بعملك أفضل من أي شاب، وصحيح عندما يقال أن العمل الذي يمارسه الإنسان حسب رغبته يجعله شاباً.

(1) المرياع: خروف مميز يكون قائداً للقطيع الغنم الذي يعتمد عليه الراعي في توجيه غنمه.

عندما أخذنا بالهبوط من الجبال كانت الشمس قد مالت نحو الغروب، وقد غطت بأشعتها الأرجوانية قمم الجبال الصخرية، وهب نسيم عليل.

أنطلق قطع الخراف والعجول إلى القرية وساد الصمت في الحقول لقد ترك العم موسكوف التيس - المرياع في المقدمة وتوجهنا إلى القرية وسار خلفنا القطيع ببطء بعد نهار طويل إرتفع الغبار في الطريق أثر مرور سيارة مسرعة وإلتمت الأغنام المذعورة كومة على حافة الطريق شتم العم موسكوف السائق المذنب، لكنه في الحال نظر إلي متسائلاً وكأنه يعاتب نفسه لعدم ضبط النفس أما أنا فقد صمت وفكرت بتلك المسألة الهامة التي جئت لأجلها إلى هنا.

- عمي موسكوف أود أن أطرح عليك عدة اسئلة وسرت بخطوات بطيئة إسمعك يا بني نظر إلي العجوز بأهتمام.

- أود أن تحدثني عن ملجأ الأيتام الذي عملت فيه يوماً ما إنتظرت الجواب، لكن العجوز مال نحو القطيع، صرخ فيه بصوته المعتاد «يأي! يأي!» ثم جاوبني بعدئذ:

- إسأل عن أمر آخر يا كمال لا تفتح جروحي القديمة.

عرفت أن ذكريات الأيام القاسية ستترك أثراً سيئاً في نفس الشيخ.

- يا عم موسكوف أن هذا مهم جداً لي، وصدقني أن سؤالك ليس عبثاً.

يبدو إن ما قلته قد أثر على الشيخ بحيث أخذ دون أي إعتراض بالتحدث إليّ:

- بدأ كل ذلك في العام 1918 حيث قُتل آنذاك كثير من الناس ومن مات في الماء الأسود فلا يمكن عددهم وتشتت عشائرتنا وعوائلنا ومات الأطفال والشيوخ جوعاً كما تفشت الكوليرا بينهم وحصدت أرواحاً كثيرة إشتد الرعب والهلع بالناس، ولولا البلاشفة لهلكنا جميعاً ولم يبق أحداً منا على وجه الأرض.

- ولكن عن دار الأيتام ماذا تحدثنا عمي موسكوف؟ قاطعته.

- وبدء العم موسكوف يسترسل في كلامه قائلاً وصلنا في العشرينات نبأ فتح دار للأيتام في آشتاراك لم أفكر طويلاً أخذت نازي وكوزي بنات المرحوم عمي وسلكت الدرب، كانت هذه الدار صغيرة مطلية بالكلس هل تعرف بمن إلتقيت هناك؟ بنورة، إبنة عكيد آغا، التي تم تعيينها رئيسة في الدار كان سرورنا كبيراً، تحدثنا طويلاً، ومحاولين ذكر من بقي حياً في قريننا، ومن قتل لم تستقبل نورة الأطفال في دار للأيتام فحسب، بل ودبرت لي عملاً لقد فقدنا معظم الأقارب نتيجة الهجمات التي كان يقوم بها الاتراك علينا ولهذا بقينا في الدار مسرورين شاهدت مصائب الأطفال في تلك السنوات.

قمت أنا ونورة بالتجوال في القرى، حيث قمنا بجمع الأطفال اليتامى الذين فقدوا اباؤهم وامهاتهم في تلك الهجمات لقد مات آنذاك الكثيرون من الجوع، ومات على يدي ابن يوسف من يامان جاير بكى هذا الطفل طوال الوقت ثم نادى أمه، ثم صمت فجأة، ضمني بيديه الضعيفتين وهكذا فقد الحياة.

صمت العجوز موسكوف أشغل غليونه وسحب نفسين عميقين.

- أجل يا بني، واصل العجوز حديثه قائلاً: لولا نورة فليسعدنا الله،  
لمات الكثيرون من هؤلاء الأطفال الذين جاءت بهم إلى الدار إنك  
تعرف جاركو كينجو، وهو أيضاً ترعرع في دارنا.  
- أحقاً، كنت في غاية الدهشة.

- بالطبع، فقد كان هو وأخوه وشقيقته، أضاف العجوز.

- كان جاركو إنساناً رائعاً، ذكياً وحساساً، أول محرر لجريدتنا «ريا  
تازة»<sup>(1)</sup> الإنسان الذي عمل الكثير للأدب السوفيتي الكردي لقد  
مات في عنفوان شبابه.

- وآأسفاه!، قال محدثي بحزن وسأل:- ما الذي حدث مع زوجته  
وأطفاله؟

- إن عائلته بخير فالأطفال يدرسون والزوجة تشتغل.

- الحمد لله، لم يطفىء نار موقده، قال العم موسكوف ذلك بسرور.

لقد وصلنا إلى القرية كان ضوء المصابيح يشع من النوافذ المفتوحة  
وكان الراديو يبث الأغنية الكوردية «خجي وسيامند»<sup>(2)</sup>.

\*\*\*

---

(1) جريدة ريا تازة: هي لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرمني باللغة  
الكردية، تصدر مرتين في الأسبوع منذ عام 1930 (المترجم).

(2) خجي وسيامند: ملحمة عشق وحب من التراث الكردي القديم (المترجم).

## ألف باء

كانت تقع زرائب الحيوانات على أطراف أراضي الكولخوزات، حيث تتخ الله ا وديان صخرية وأدغال من النباتات، ولما ساق الشيخ قطع الأغنام إلى هناك، وقف على رابية صغيرة برهة من الزمن وهو يستمتع بمنظر القرية الخلاب.

- هذه هي كوراكاند! من الصعب معرفة قريننا، أصبحت مهمة، تحدث الشيخ بأعجاب.

- من هنا تبدو منبسطة والآن دعنا نذهب إلى البيت يا بني، إن ما أخشاه هو إنك قد إنتظرتني طويلاً، أما ضيف مثلك فهو على الرحب والسعة.

أدى الشارع الواسع الذي كانت تحيط به البيوت الجميلة والحدائق من جانبه إلى المدرسة الجديدة المؤلفة من طابقين وقد إحتفى منزل العم موسكوف بين أشجار المشمش والخوخ الكثيفة الخضراء كانت الكلاب أول من أحست بوجودنا، حيث ملأت الفناء بالنباح ولكن عندما عرف الكلبان الكبيران صاحب الدار بصبصا بذيلهما وسكتا في الحال خرجت من الدار عائلة موسكوف لدى سماع نباح الكلاب لما رؤونا وقفوا على طرفي المدخل، حيث تركونا نسير في المقدمة سبقنا أحد أبناء موسكوف وقال بصوت عال:

- اهلاً وسهلاً أيها الضيف العزيز! نرحب بك في دارنا!

- فلتعم السلام والسعادة في هذه الدار! أوجب حسب العادات وكان الضيف أول من دخل الدار.

كل شيء في هذه الدار كان يشير إلى الكدح والعمل الدائمين، فقد كان نظيفاً وتتوفر فيه أسباب الراحة والرخاء وما كدنا ندخل غرفة الضيوف، حتى قامت إحدى حفيدات العجوز تبسط لبادة خرسانية على الأرض وعليها مخدات ومن ثم جاءت بطست وإبريق ماء وكانت تحمل على كتفها منشفة، وبعد أن غسلنا أيدينا ووجوهنا بالماء البارد جلسنا أنا والعم موسكوف على اللبادة دخل الغرفة الإبن الأكبر لموسكوف «علي» مع زوجته مايان وبعد أن رأني علي قال بصوت متهدج:

- أليس هذا كمال!.

نهضت للقاءه وضمني علي إلى أحضانه كان علي طويل القامة، ذا صدر واسع ويبدو كمارد حقيقي لم تترك السنوات الخمس التي لم أرى فيها علي أي تغيير في هيئته، ما عدا شاربين طويلين وكان قد تزوج من فتاه حسناء كانت لها عينان واسعتان صارمتان فقد كانت شفتاها مطبقتين وتنم هيئتها عن الأباء والكبرياء لقد رحبت بي وتفوهت ببضع كلمات لطيفة.

- كمال ها هي مايان ستحدثك عن دار الإيتام وعن أبو<sup>(1)</sup> لأنها تربت هناك.

---

(1) ائو: كلمة كردية تعني العم

نظرت المرأة بدهشة إلى حميها.

- أجل يا إبتتي، إن كمال يهتم بدار الأيتام تحدثني أنت كيف عشت هناك، ولا تنسي القصيدة التي قرأتها آنذاك لأبو.

- من هو أبو؟ أثير فضولي.

- ألم تسمع عنه؟ هتف العم موسكوف، فهو الذي إبتكر لنا الحروف.

- أنت تتكلم عن آكوب تر كازاريان؟

- بالضبط عنه يا عزيزي، لكننا كنا الجميع نسميه أبو فقد كان الشعب يكن له الإحترام والحب كان العجوز يفتخر بأنه كان يعرف ذات يوم آكوب تر كازاريان.

- نعم، كان حضوره في دار الأيتام بالنسبة لنا عيداً كبيراً، بدأت مايان حديثها لقد كان يجد لكل واحد كلمة لطيفة يصفها به ولا يأتي إلينا البتة بدون أن يجلب معه هدايا في إحدى المرات وعشية مجيئه أعطتنا نورة الشعر لحفظه لقد رغبنا جداً أن نفرح أبو، لذلك درسنا بمثابرة وإستبد بنا القلق كان من نصيبي «أغنية باخاريا» لمؤلفها أوفانيس تومانيان.

في صباح ذلك اليوم الذي كان يجب أن يأتي أبو، دخلنا الدار بانتظام، مشطنا شعرنا بتأنق، أرتدينا ملابسنا العادية وتهيأنا للقاءه، لو رأيتموه لوجدتم كيف كان سروره كبيراً، وثناؤه لنا.

توجه علي إلى زوجته قائلاً:

أقرئي لنا هذه القصيدة.

دون أي إرتباك وبرغبة كبيرة قرأت مايان «أغنية باخاريا»، فكم كانت قراءتها لهذه القصيدة معبرة، بحيث كان صوتها يخفق، الأمر الذي أثار إعجابنا حقاً.

- هل تعرف يا كمال، بأن مايان تحتفظ حتى الآن بقلم أحمر مُهدى إليها من أبو، قال ذلك علي وهو يلقي نظرة إعجاب على زوجته.

- بعد ذلك قال لنا أبو، نظرت اليّ مايان:

«سيأتي اليوم عندما تدوي هذه القصيدة لمؤلفها أوفانيس تومانيان التي قرأتها الآن علينا هذه البنت باللغة الكوردية واليوم أريد أن أوزع عليكم جميعاً الهدايا»، وأخذ من حقيبته كتباً باللغة الكوردية وأعطى لكل واحد كتاباً، نظرنا إلى هذه الكتب بدهشة.

وهل تتذكرين يا مايان؟ قال بحسرة العجوز موسكوف، ماذا قال لنا بعد ذلك هذا الإنسان العظيم؟ إنه قال: «إعتباراً من هذا اليوم سوف تقرأون وتكتبون بلغتكم الأم لقد كُلفت بكتابة ألف باء الكردية بناءً على أساس اللغة الأرمنية شرعت في هذا العمل بكل سرور، وهكذا فقد أنجزت عملي».

إن هذا الإنسان كان متنوراً رحمه الله! هز العجوز رأسه بأسى.

في هذه اللحظة لاحت حفيدة العجوز عبر باب الغرفة.

- يا جدي، قالت الحفيدة بعتاب، كم مرة نقول لكم بأن الطعام جاهز؟ أهكذا يستقبلون الضيوف؟

- إنكِ على حق يا حفيدتي، إبتسم العجوز اهلاً وسهلاً كمال تفضل إلى طاولتنا، ولكن لا تؤاخذنا على بساطتنا، تناول طعامنا القروي.

إنتقلنا إلى غرفة أخرى، حيث كانت المائدة عامرة بما لذ وطاب من الطعام: العجن الطازج، خبز الصاج الرقيق، خضرة، لحم الغنم المسلوق والبرغل ورز بلحم الضان.

دار الحديث حول مائدة الطعام عن أشياء مختلفة تحدثنا عن الأخبار المحلية، حول أن الكولخوز إستلم جرارات جديدة، وعن ذهاب ابن الجيران إلى المدينة للدراسة، وأن الرعيان سيسوقون قطع أغنامهم قريباً إلى المراعي الصيفية.

بعد أن تناولنا طعام العشاء، أخذني العجوز إلى الغرفة السابقة وبعد أن دخن غليونه، تحدث العجوز من جديد عن دار الأيتام وعن تلك السنوات وضع العجوز غليونه جانباً عدة مرات أثناء حديثه، إقترب من النافذة، سكت ثم تحدث من جديد.

- والآن أيها الضيف العزيز، قاطع نفسه، مذكراً، بأن الوقت قد تجاوز منتصف الليل وحن وقت الراحة، طابت ليلتك! وبعدها خرج الشيخ من الغرفة.

كان فراشي جاهزاً وضعت الفرشة على متكأ واسع مغطاة بالشرشف، ومخدة ناعمة، صنعت بأيدي ماهرة.

كان يهب نسيم عليل من النافذة المفتوحة وفي مكان ما كان يسمع نباح كلاب القرية. تذكرت أحداث الأيام الفائتة، وقد أثار الليل إعجابي: رسالة من موسكو، الحديث عند يريميان، عيون نورة الحزينة فكرت بفيودور ليتكين - فيريك بولات بك.

إن الكتاب الذي وعدت بكتابته، أثار شعوري وأقلقني.

\*\*\*

## عرسٌ لم يتم

أشرف الليل على نهايته وأخذ الظلام الذي كان يخيم على القرية يزول وكان الفجر قد إنبلج وتوارت النجوم عن الأنظار وأمست السماء رمادية وبعد ساعة تدفقت أشعة الشمس إلى غرفتي من خلال النافذة.

لما إقتربت من النافذة، إستمتعت مطولاً بمنظر القرية المنبسطة أمام أنظاري، المحاطة بالأعشاب الخضراء الطرية وأشجار الفواكه الكثيفة.

بعد أن تناولت طعام الفطور على عجل، توجهت إلى المرعى إلى العم موسكوف كان بودي متابعه حديثاً، على أمل أن يتحدث العجوز عن عائلة فيريك بولات بك.

كان النهار رائعاً ففي حزيران يكون الطقس جميلاً وخاصة في الجبال، حيث لاحت الأزهار بين الأعشاب، وكان الجو عبثاً برائحتها، ومن السماء لاحت الشمس اللطيفة مغطية وهي تضيء بأشعتها الزاهية كل ما هو حولنا لقد وقفت أكثر من مرة لكي أتنفس الصعداء وأنظر حولي فعثرت على العم موسكوف وقطيعه ليس بعيداً عن مكان الأمس كانت الأغنام الجائعة خلال الليل ترعى الأعشاب بنهم لاحظني العم موسكوف ورحب بي بسرور.

- مرحبا يا بني! كيف نمت في المكان الجديد؟  
- كان رائعاً! هذه ليست قرية بل مكان إستجمام.  
- أجل العيش رائع هنا، لا جدال في ذلك.

حجب العجوز نور الشمس الصيفي عنه بيديه ونظر حواليه، كان في الجبال يشعر كأنه في البيت هنا كان هو سيداً، فقد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة، كل ممر وكل حجر وكيف لا يعرف هذه الجبال، وقد قضى كل حياته بينها مع أغنامه وكلبه، كان العجوز يعرف كل الممرات والعلامات المميزة على أمتداد أكثر من مائة كيلو متر ومن جميع الإتجاهات.  
- تحدثت البارحة عن دار الأيتام وتكلمت هكذا قليلاً عن نورة نظرت إلى العجوز بترقب.

- ماذا عن نورة؟ كانت هي فخرنا! جميلة وذكية كانت تحاول إرضاء الجميع، الكبار والصغار فقد قلبت عقول شباب المنطقة كلها، طلب يدها الكثيرون، لكنها رفضت وخابت أمالهم جميعاً ورجعوا بخفي حنين إلى منازلهم لكن ذات مرة، وفي ربيع مبكر، شاع نبأ في أشتاراك بأن نورة ستتزوج إنتشر هذا النبأ في القرية بسرعة النار في الهشيم.

صمت موسكوف، صب لنفسه الماء من الزمزية وشربه ببطيء، ثم بنفس البطيء وبحركة الشيخوخة وضع الزمزية في الخرج إنتظر بفارغ الصبر ما تبقى من قصته.

- لكن في أحد الأماسي وفي عشية العرس، رأيت فارساً يمتطي

صهوة جواد، كان العرق يتصبب منه نتيجة الجري السريع توقف وترجل عن الجواد بسرعة، أعطى اللجام لُغلام ثم قال له شيئاً ما، وأسرع نحو الشرفة حيث كانت نورة لقد إقتربت من فرسه وجدته أشهب اللون لكنه أصبح أسوداً من الغبار والعرق «يا إلهي فكرت، هل يكون وصول هذا الغريب شراً أم خير أحيث أنه أجهد دون رحمة الجواد المسكين؟» وفجأة تناهى إلى سمعي صوت نورة وهي تنادي هرعت إليها، أنظر إليها ولا أصدق عيوني: إنها تبكي وتضحك وهي تجيء وتذهب على الشرفة.

«قل يافتي ناديته بغضب، ماذا أخبرتها؟»

وهنا تدخلت نورة «عمي موسكوف قالت نورة، إنه يحمل أخباراً سارة، وصل شقيقي، أن فيديا حي» فديته بنفسه ثم أجهشت بالبكاء من جديد.

بعد أن هدأت أعصابها قليلاً، بدأت تحدثنا، بأنه جاء «محي» من تبليس وهو ابن قريتنا، وجلب معه خبر وصول فيريك وعليه أن يصل إلى أشتاراك اليوم أو غداً قدمت نورة ساعة هدية للشباب على النبأ السار.

هذه الساعة كان قد جلبها في حينه عكيد آغا من سيبيريا البعيدة وها هي تهدي هذه الساعة الثمينة آنذاك لقاء هذا النبأ السار ثم أخذت تعد نفسها للقاء شقيقها كانت دار الأيتام تقع في مكان غير بعيد من المحطة.

أخذت نورة لإجراءات الضرورية وأعطت أو أمرها للطاهي لتحضير طعام لذيذ للأطفال دخلت إلينا في الغرفة التي كنا فيها امرأة طويلة متوسطة العمر، إقتربت من نورة قبلتها ثم سألتها ما الذي حدث؟.

أخبرتها نورة كل ما حدث كلمة بكلمة وباركتها المرأة وقبلتها من جديد وبعد ذلك وكأنه من غير قصد بدأت تسألها عن العرس.

لما علمت بأن نورة تجهز نفسها للقاء شقيقها والسفر، حاولت هذه المرأة جاهدة إقناعها بالعدول عن الفكرة، حيث أن ذلك لا يليق بفتاة شابة، تتصرف هكذا ولا سيما في عشية عرسها أما نورة فأنها لا تريد حتى تسمع شيئاً عن العرس: فقد كان يهمها أمر شقيقها فقط.

أصغيتُ بآنتباه إلى العجوز موسكوف، لكنني لم أفهم، ما كان يقوله، فأن ما قاله لم يكن يرتبط بما كنت أعرفه لقد تذكرت جيداً حديث نورة حول آخر لقاء لها مع أخيها، حدث ذلك في عام 1917 أما الأحداث التي تكلم عنها العجوز فقد جرت في عام 1925 أو في عام 1926 لكن نورة لم تنطق كلمة واحدة عن هذا اللقاء على ما يبدو لاحظ العجوز قلقي حيث قطع حديثه وسألني:

- لماذا تنظر إلي بهذه الدهشة؟ وكأنك لا تصدقني؟ أرى ذلك في عينيك...

أصابتنني الحيرة والإرباك.

- لا لا يا عمي موسكوف، بالطبع أصدقك، لكن فيريك فقط لم...، لكن العجوز قاطعني في الحال.

- لقد ارتفعت الشمس كثيراً، دعنا يابني، قال ذلك وهو ينهض، نتقل إلى الجهة الأخرى من الجبل.

«يأي! يأي!» دوت صرخته، حيث الأغنام الخاضعة له والمعتادة عليه كانت تصعد سفح الجبل وترعى الأعشاب.

أما أنا والعم موسكوف فهبطنا إلى الوادي حيث كان يجري نهر

صغير، وملأنا الزمزية بالماء النقي، إغتسلنا ثم جلسنا على صخرة  
لقد إرتفعت على جانبي الساقية نباتات كثيفة، لأن الرطوبة كانت كافية  
والترية خصبة هنا.

- تنمو نباتات هنا نمواً وثيراً، لما لا تأتون بالأغنام إلى هنا، سألت العجوز:  
- ياعزيزي كل شيء في وقته خلال عدة أيام عندما ترعى الغنم العشب  
في الجبل، سأسوقها إلى الوادي، حينئذٍ سأضع لهم الملح أيضاً  
على الصخور، ستلحس الغنم الملح ثم تشرب الماء، عندئذٍ  
سترعى العشب بنهم بحيث لا يكفيها لأيام معدودة.

أخرج العجوز الطعام من الخرج ووضعها مباشرة على الأعشاب  
الخضراء الطرية كما يبدو كان لدى موسكوف في هذا اليوم قطعة جيدة  
مسلوقة من لحم العجل، وخبز طازج وتارخون<sup>(1)</sup> إكراماً للضيف،  
أحببت هذه الخضرة كثيراً، فقد كانت تعطي نكهة لذيذة مع اللحم أكلنا  
بصمت حيث فكر كل منا بشؤونه كان العجوز ينظر من حين إلى آخر  
على الغنم، التي ترعى بهدوء في سفح الجبل وكان برفقه كلبه الوفي  
الذي كان ضخماً مشعثاً.

مرت الغيوم سريعة في السماء وشكل النهر المتدفق الذي كان يجري  
في سفح الجبل نسيماً عليلاً، فاحت رائحة العشب والزهور وعموماً كان  
الجو لطيفاً كما هو مألوف في مثل هذه البقعة الهادئة وليس عبثاً أن العم  
موسكوف الذي قضى كل حياته هنا، كان سليماً معافى وقوي البنية ما  
أجمل العيش في الجبال!.

(1) نبات عشبي يستخدم في الطعام.

- هكذا، سافرت نورة إلى تارليك، إلى المحطة، فجأة ومن غير توقع بدأ العجوز حديثه، وكأنه لم يقطع هذا الحديث أما نحن فقد بدأنا نستعد لأستقبالهم في دار الأيتام، إشترينا مواد غذائية مختلفة حسب الأماكن، غسلنا ونظفنا حوالينا سار الأطفال بصمت، وهم يعلمون بأن شقيق نورة لا بد أن يصل لقد راجت آنذاك أساطير مختلفة عن فيريك فقد قالوا أنه أضحى شخصاً معروفاً، كما راجت شائعات أخرى لقد أكد الكثيرون أنه قتل في أثناء الثورة فمن كان يعرفه منذ طفولته، كان يستغرب عدم مجيئه إلى ديار أهله وعدم بحثه عن أقاربه ولذا فقد راجت شائعات حول أنه لم يكن على قيد الحياة وفجأة كان هذا النبأ السار: فقد عاد فيدكا، ولم ينس أرض أجداده لكننا إستعجلنا في الفرح... عادت إلينا نورة بعد يوم واحد، وقد أغرورقت عيناها بالدموع، فقد أصبحت هزيلة، لم تحك شيئاً، بل كانت تذرف الدموع لم نفهم شيئاً، وخفنا إزعاجها بأستلتنا ولهذا فإننا أيضاً لذنا بالصمت كنا نجلب لها الطعام إلى غرفتها لكنها لم تكن تأكل، مضى على هذا المنوال يومان وفي الصباح نادتنى نورة وبدأت تتحدث: لقد أخطأ ذلك الشاب.

- وفي حقيقة الأمر كان يجب ان يصل من تبليس أحد الثوريين القدامى، بيد أنه لم يكن فيدكا قالت ذلك وبدت هادئة أكثر من ذي قبل ثم أضافت، بأنها قررت السفر إلى يريفان، للعمل هناك، ومن ثم سوف تدرس، ماذا كان بإمكانني القول؟ فكم من مرة حلت بها المصائب والويلات ودعنا حبيبتنا بالبكاء والعيويل ومنذ ذلك الحين ولم ألتق بها هكذا أنهى العجوز موسكوف حديثه

## دفاعاً عن الشرف

في صباح اليوم التالي كنت مستلقياً على سريري كانت الساعة قد دقت الثامنة حيث سمعت أصواتاً في دار العم موسكوف، لم أرغب في النهوض ولا النوم أيضاً، وهنا فتح الباب وظهر العم موسكوف.

- هل أنت نائم يا بني؟

- هل حدث أمر ما؟ لماذا لم تذهب إلى المرعى؟ أثار ذلك دهشتي.

- ماذا يمكن أن يحصل غير الخير! ابتسم العجوز ها قد أرسلت علي ليرعى الغنم حسب نصيحتك، أما أنا فلا أعمل شيئاً لنذهب معاً إلى ضيافة چاويش، لقد جاء إبنائهم لإستدعائنا وهم ينتظرون في الخارج.

- لم أفهم شيئاً يا عم موسكوف لماذا يجب علينا الذهاب إلى چاويش؟. صراحة، كنت أرغب اليوم أيضاً أن أسمع رواية العجوز حول عائلة فيديا.

- لكن لا يوجد لغز هنا، نظر إليّ العجوز بدهاء لقد دعانا چاويش إلى ضيافته، حيث يجتمع عنده جمع غفير من الناس، كما أن شرو سيكون هناك، وبالتأكيد سيقنعه چاويش ليغني لنا.

سمعت الكثير عن صوت شرو الرائع وأغانيه لإسطورية التي كان يعرف الكثير منها لكنني لم أسمع أبداً، لذا كنت سعيداً بهذه الفرصة التي اتاحت لي.

كان الوقت ظهراً عندما وصلنا إلى بيت چاويش وكان العجوز يقف منذ الصباح الباكر عند السقيفة يستقبل الضيوف بشكل متواصل تبادلنا معه التحية ودخلنا الدار أما المدعوون الباقون فقد كانوا في المجلس منذ فترة عندما لاحظوا دخولنا وقف الشباب بسرعة على أقدامهم، أما من كان أكبر سنّاً فقد رحبوا بنا قائلاً: «مرحبا بكم» وطلبوا منا الجلوس ودارت الأحاديث عن الصحة والأقارب... إلخ كنت لا أعرف الكثيرين من الجالسين لكنني وكالعادة سألتهم عن الصحة وتمنيت لهم عمراً مديداً.

دخلت الغرفة فتاة وهي تحمل منشف، حاملة في يدها إبريق ماء وطست وإقترحت على الضيوف غسل الأيدي، وفي هذا الوقت جهز عدد من النسوة مائدة الطعام لنا.

ياإلهي كل شيء موجود هنا على المائدة! كان من الممكن التوقع بأن ربة البيت وضعت كل مؤنّها على هذه المائدة دون أن يعترّيها الندم: اللحم، أنواع من إلرز بلحم الضأن، العسل، زبدة وماست (1) ونبيد، فودكا، الجبن بأنواعه، خضرة، بإيجاز كل ماكان يوجد في القرية.

نهض العجوز چاويش، كرب البيت، وكأن أول من نهض من مكانه، ماسكاً في يده كأساً من النبيذ، مرحباً بجميع ضيوفه ثم توجه إلي وتمنى

(1) ماست: اللبن باللغة الكردية.

لي ولأقاربي السعادة والصحة. شرب الجميع كؤوسهم ثم جلسوا على  
الغذاء بعد فترة توجه چاويش إلى أحد الضيوف:

- هيا يا أخي! لأجل أي يوم ولدت، إذا لم يكن لأجل اليوم غن لنا أغنية  
رائعة، تذكر فيها الأمانة...

- نعم، نعم، طلب منه الآخرون أيضا غن لنا يا شرو، إنك ماهر يا شرو.  
كان شرو قصير القامة، عريض المنكبين، بهي الطلعة، لم يرفض شرو  
طلب الحضور.

إتخذ وضعيه جيدة له، ووضع يده على إذنه وأخذ يغني كانت أغنية  
رائعة وصوته القوي الرنان إنساب بحرية وبطلاقة أصغى الضيوف  
بإعجاب إلى أغنيته معبرين عن إعجابهم بنداات: «جانه جانه ياله من  
صوت!».

غنى شرو عن ظلم حافظ ورشيد<sup>(1)</sup> المتعطشين إلى سفك الدماء  
واللذين حاولوا قهر شعب كردستان فقد قتلا بدون رحمة كل من رفض  
إلاستسلام أزا إلا القرى من على وجه الأرض تحولت البيوت إلى خرائب  
وأنقاض ففي إحدى القرى القريبة من رادافان سيق السكان بخدعة إلى  
زريبة وأحرقوهم وهم احياء وكان عويل المساكين من الناس المشرفين  
على الموت يمتزج مع الصراخ الوحشي للعساكر الأتراك المتعطشين

(1) حافظ باشا احدى ولاة الدولة العثمانية عُين والياً على منطقة ديار بكر اشتهر  
بقسوته وقاد عدة حملات ضد الايزيديين في جبل شنكال وسوريا وتركيا وقتل  
منهم الكثير وسبى الاف من النساء والاطفال وقتل قائد الايزيدية وقتذاك ميرزا  
اغا (المقدم).

للدماء لكن عبثاً توهم العدو النصر، وحن وقت الانتقام فقد ثار الشجاع (ميرزا آغا)<sup>(1)</sup> ثاراً بالغاً إنتقاماً لدماء أفراد قبيلته الأبرياء.

أما شرو فتابع أغانيه، يغني من كل قلبه أغانيه الملحمية المتحمسة التي تحرق القلوب. يغني عن أن الأتراك الغاضبين من إنتصارات ميرزا عندما جمعوا قواتهم المؤلفة من ثلاثين ألفاً بغية إبادة السكان العزل من النساء والشيوخ والأطفال بالحديد والنار لكن في هذه المرة، جاءت لمساعدة قوات ميرزا آغا، القوات الأرمنية المجاورة بقيادة (كشيش بولو) كان العدو الرهيب في هذه المرة قد تقهقر وهزم ومنذ ذلك الحين تأخى الشعبان - الكردي والأرمني فقد قاوم الشعبان معاً العدو المشترك وهاجما صفوفه، مدافعين عن شرف وطنهما وعقيدتهما... أما الأغنية فلم تنته، كان شرو يغني عن أرض ديلان<sup>(2)</sup> الصخرية والمغطاة بالاشواك، حيث في هذه الأرض، خرج (مچوعيسى) لملاقاة العدو على جواده الهمام والسريع، أن ديلان كلها نزت دماً، لكن المقاتلين الشجعان لم يتراجعوا دوى من بعيد النداء المتحمس للفتاة التي كانت تحمل إسم شيرين: «يا أبناء الشعب أنتم يا ميرزا آغا وكشيش بولو ومچوعيسى لاتوانوا، لا تتراجعوا، إضربوا معاً العدو المتعطش للدماء!...».

ولكن، ها هم الأتراك بدأوا يحاصرون الفتيات الجميلات ومعهن مرشدتهن شيرين، ينتظرهم الأسر وتدنيس الشرف، الأمر الأكثر أيلاماً من الموت وكاللبوات الثائرات والجريحات صدت الفتيات الجنود

(1) أحد القادة الإيزيديين الذين قاوموا الدولة العثمانية بشراسة تم قتله من قبل حافظ باشا.

(2) مكان في كردستان.

المدججين بالسلاح وهن يقذفن عليهم الاحجار وأكوام الاوساخ لكن العدو ضيق الخناق عليهن، عانى الناس من التعب والجوع، ولم يكن ثمة مجال للإنسحاب فقد كانت مياه الفرات من أمامهن ومن خلفهن كان الأتراك يهاجمون.

النجدة! النجدة!

نطق ذلك لا أَرادياً الراوي شرو، الذي سيطر عليه مثلنا الحماس، ثم واصل أغنيته بصوت متهدج - كيف أن زعيمة البنات - شيرين أَلقت بنفسها في مياه نهر الفرات المزبد، لكي لا تصبح فريسة بيد الجنود الحاقدين، ثم أَلقت الفتيات الباقيات أنفسهن وراءها إن آخر ما سمعته أمواج النهر، كانت أغنية الفتيات الراضات للذل والخنوع:

نقسم بالسما وبالأرض،

تذكر أنت، أيها العدو اللدود،

لن تدنس شرف فتاة كردية بقدميك!

واصل شرو أغنيته، كمثّل رياح الجبال إنتقلت عبر الأرض شهرة الشيخ مچو عيسى، حتى أن إسمه فقط كان يبعث الرعب في قلب الأعداء، إلا أن الرصاص الطائشة لن ترحم هذا الشجاع تراجع المقاتلون راغبين بالهروب من أرض المعركة وهنا خرج من أمامهم شاب طويل عريض الكتفين معترضاً الطريق وصرخ فيهم: «على كل جبان أن يلبس شال النساء على رأسه وليترك ساحة المعركة!» ثم لبس درع وخوذة (مچو عيسى) وهاجم الارتال الحديدية للجنود ومن خلفه

دخل الباقون في المعركة وأسرع العدو مهزوماً من الخوف والذعر غير محتمل الهجوم أما المقاتلون فقد أخذوا النساء والأطفال والشيخ وجاؤوا بهم إلى الأرض حيث كان يعيش الروس.

أنهى شرو أغنيته وشكره الضيوف بكلمات حماسية، في حين تابعنا جلستنا على المائدة أما أنا فكنت تحت تأثير ما سمعته، اثار أغنية شرو إعجابي، فقد كانت لها علاقة مباشرة مع القصة التي جئت لأجلها إلى هنا<sup>(1)</sup>.  
عمي بچاويش، توجهت إلى صاحب الدار، هل من الممكن أن نطلب من شرو ليغني أيضاً، أرغب جداً أن أسمع تنمة هذه القصة وتابع شرو أغنيته وقال:

هرب الناس من العدو الغادر ودخلوا الاراضي الروسية، بقي هناك فقط أولئك الذين دخلوا الاسلام في يوم ما، أن قائدهم كان سليمان آغا الشهير لقد وضعت إلساطير وغنيت الأغاني عن شجاعته وقوته ويقال أنه في إحدى المرات، وقع في خصام مع الخان التركي سآمان ومصيبته أنه أهان الكردي الأببي، حيث دفع حياته ثمناً لذلك وبما أنه كان يعرف جيداً خيانة الأتراك ومكرهم، قرر سليمان آغا نقل أبناء عشيرته من بايزيد والآنضمام إلى الأكراد - الايزيدين الذين كانوا يعيشون على الأرض الروسية.

عرف الأتراك بنخطته هذه، فقرروا تصفية الأكراد مهما كلف الأمر

(1) ان ذكر البطولات والمآسي الايزيدية والملاحم في الغناء عرف متواتر من قبل الايزيدية حيث ان اغلب اغانيهم القديمة والحديثة تحكي قصص بطولاتهم الحقيقية في الدفاع عن الدين والمعتقد بالاضافة الى قصص الحب المؤثرة وهو ما يمكن ان يسمى بالادب الشفاهي ويبارس في جلسات البعض في مناطق الايزيدية وتحديدًا شنكال.

تمركزت القوات التركية المكونة من خمسة عشرة ألفاً تحت قيادة جفار خان في شعاب جنوب شرق جبال آكري داغ أنتشر هذا النبأ بسرعة بين صفوف العشائر وقرر سليمان آغا عقد إجتماع لمجلسه، وإتخذ الناس حذرهم، وكان الوضع في غاية الصعوبة وهبت على حين غرة رياح عاتية وهطل مطر غزير، حيث أصبحت الطريق غير سالكة وجرفت سيول الأمطار والأنهار في طريقها كل شيء، الصخور الكبيرة

والأشجار والحيوانات وحتى البشر أما النساء المذعورات فقد أرسلن اللعنات وندبن الحظ الأسود حتى أن أم عجوز لم تتمكن من الأمساك بطفلها الصغير عندما وقع في المياه الجارية، بل أن التيار الجارف أخذهما كليهما، دبّ الخوف والذعر بين الناس ولم يصمد سوى سليمان آغا، وأنصب واقفاً كعادته وقال لأبناء عشيرته المذعورين:

أبنائي، أيها الأخوة، يا ناس، إهدؤوا إن هطول المطر لصالحنا، فكروا، ما هو وضع أعدائنا الآن أنهم في الشعاب العميقة، حيث يقذف المطر عليهم لإحجار من الجبال، هالكة هؤلاء الكفار، وعلينا أن نستفيد من الجو ونقوم بمهاجمة الارذال وتصفيتهم بأي ثمن.

تركت كلمات سليمان آغا تأثيرها تذكر الناس تلك القساوة التي لا قوها على أيدي الأتراك وتهيأوا للثأر أخذت الاحصنة تخبط بقوائمها وتتراقص في مكانها بقلق تحت الفرسان، وراحت تقضم اللجام، تنخر وتحمم منتظرة ساعة لإقتحام وثارث نائرة المقاتلين، الذين كانوا عطشى للإنقضاض على العدو، والانتقام والثأر لدماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وكان عليهم أن يثأروا لشرفهم المندس.

ومع حلول الظلام، بدأ الافق وكأنه أصبح متشعراً، إلا أن الجو كان يميل إلى البرودة. فلفحات من الرياح الغربية القارصة كانت تهب مصحوبة بالمطر أحياناً وزحف الليل من السهب فأسبغ على العتمة في هذا المكان الحزين ألواناً قاتمة غير مرئية خلال غسق رطب وكالح، ليحل محل يوم هائج، وهبت رياح باردة من قمم الجبال الشاهقة المغطاة بالضباب الكثيف نحو الوديان والهضاب والسهول عبر المزروعات إلى الأسفل نحو الشعاب.

كان لا بد من الاستعجال وعندما هدأت العاصفة وتوقفت الأمطار عن الهطول، أعطى سليمان آغا وأمره للمقاتلين بتنشيف ملابسهم أما الدوريات الأربعة فأرسلها لإستطلاع معسكر العدو وبسرعة وردت معلومات تفيد أن كل شيء في معسكر العدو هادئ.

- لننطلق أيها الأخوة، الله معنا! وأمتطى سليمان صهوة حصانه وإنطلق مئتا فارس بخيولهم المتلهفة في ظلام صامت.

لم يكن الأتراك يتوقعون الهجوم حيث أنهم لم يعودوا بعد إلى رشدهم أثراً لمطار الرعدية وإنهيار الثلوج المرعبة في الجبال حيث اغفوا وعلى حين غرة وكالصاعقة إنقض جنود سليمان آغا عليهم.

دبّ الذعر في صفوف القوات التركية، دون أن تعي ما حدث، فاقدين رشدهم من الخوف، لدرجة قاتلت القوات التركية بعضها البعض..

قام سليمان آغا ومعه مقاتلوه الشجعان ولعدة ساعات بمطاردة الأتراك المتقهقرين في الحقول والشعاب وقتلهم وهكذا، أنقذ سليمان آغا عشيرته من الهلاك على يد الأتراك في تلك الليلة الماطرة...

أمعن شرو الفكر قليلاً لقد إنتهى من سرد جزء آخر من ملحتمته.  
- أما ما يخص (رشي) الفتاة الجرئية، فسأقصها عليكم في المرة القادمة،  
قال ذلك شرو ونهض من مكانه، وعلى أثره نهض الضيوف الباقون  
بعد أن شكروا صاحب البيت على حسن ضيافته، وخرج الواحد  
تلو الآخر من منزل العجوز چاويش.

كان العم موسكوف أيضاً قد هبّ واقفاً على قدميه، ليفهمني بذلك أن  
علينا أيضاً الخروج أما أنا فقد راودتني فكرة البقاء عند العجوز چاويش  
بطريقة لا تثير إزعاج العم موسكوف، لأتمكن من سماع قصة (رشي)  
التي كان يهمني أمرها فقد جئت إلى كوراكاند لعدة أيام لهذا أردت أن  
إسمع أكثر ما أستطيع إستماعه أدركت، أنه من الصعب أن تتاح لي مثل  
هذه الفرصة ثانية لقد سمع چاويش مراراً أغنية شرو، لذا كان متمكناً من  
سرد قصة رشي لي وببساطة.

- أيها الوالد توجهت بالسؤال إلى صاحب الدارهل ستحدثني عن  
رشي فيما لو بقيت عندك؟

ولما لم يكن ينتظر مني مثل هذا السؤال، لم يجد فوراً، ما يرد به عليّ،  
بيد أنه تذكر فجأة وحاول إخفاء إرتباكه المفاجئ حيث قال:

- سيسرني جداً البقاء مع هكذا ضيف ثم ألح عليّ بالبقاء سأحدثك عن  
رشي ولا أعتقد أن موسكوف سوف ينزعج فيما لو أخذت ضيفه.

- وبأبتسامه الرضا قال العم موسكوف، الضيف مصحوب ببركة الرب  
وبرقة تدل على انه سأمرحه ثم ودعنا وخرج.

قدمت لنا زوجة چاويش الشاي، وضعته أمامنا بهدوء ثم خرجت طقطق العجوز بمسبحة الكهرماني، مُستغرقةً في التفكير وأنتابني شعور بالحرَج وتأسفت لبقائي ولكن هنا بدأ چاويش حديثه:

- سبق أن تحدثت لكم عن سليمان وشجاعته الفائقة، لكنه حدث أن خانته الشجاعة والشهامة وإليكم كيف حدث ذلك: كان هنالك في القبيلة شخص، اسمه (عثمان جازو) كان محارباً جريئاً وحاذقاً ومنذ زمن بعيد كان الأتراك يرغبون في القبض عليه، وفي كل مرة يتمكن عثمان من الإحتيال عليهم، لكن الحظ لا يحالف المرء دوماً فقد القى الأتراك المحتالون القبض عليه وسيق مقيداً إلى عنتاب اللعينة ومن الغرابة جداً انه لم يأت سليمان آغا ولا إبنائه لمساعدة عثمان أما عثمان المسكين فقد إقتادوه إلى الوالي التركي، حيث تعرض إلى تعذيب وحشي: فقد بدأوا يضربونه بالسياط (الكرباج) ويدوسونه بإلاقدام ويمزقون جلد رأسه لكنه أجابهم بالصمت، فزاد صمته غضب الأتراك حيثئذ نفذ الأتراك بحق عثمان عقوبة غريبة، فقد ألبسوه جلد الذئب وتركوه فريسة للكلاب، وأحضر الشعب إلى مكان العقوبة بغية إرهابه وتحذيره من أن ذلك سيكون مصير كل شخص يثور على السلطات أما النساء فقد أغمي عليهن لدى رؤية المنظر، أما الرجال فقد تملكهم إختناق من الغضب والسخط، لكن ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا ضد عساكر الأتراك المدججين بالسلاح؟.

في هذا الوقت كان سليمان آغا وإبنائه الذين كانوا موضع أمل من قبل الشعب مختلفين عن الانظار وكانهم لم يسمعوا بشيء وبهذا الصدد فقد قيل

بأنهم باعوا أنفسهم للترك وبأنهم خانوا الوطن أما النساء فقد أنشدن آغاني  
عن خيانة سليمان آغا الذي ألحق العار بقبيلة سرخون البارة.

لقد إغتازت القبيلة كاملة وكانت الدماء تغلي غلياناً في عروق  
إبنائها بأستثناء سليمان آغا وابنائهُ الذين كانوا هادئين، بينما شن الأتراك  
هجماتهم المسعورة في كل مكان وراح الأتراك يقتلون وينهبون  
ويدنسون شرف الفتيات.

وعندما لم تعد تتحمل الفتاة رشي حبيبة عثمان هذا العار حملت  
السلاح، وأقسمت بأنها ستأثر لدم عثمان، وما مر يوم واحد إلا وخرّ  
أحد الأتراك صريعاً على يدها وعرف الأتراك بأن رشي هي التي تقوم  
بذلك، لكنهم ولسبب ما واصلوا الصمت.

في ليلة من ليالي الخريف عندما تغطى وجه السماء بالغيوم الثقيلة  
مردزة مطراً خريفياً ناعماً وخيم الظلام على الطبيعة، هاجم الأتراك  
القرية وتعالّت صيحاتهم «إفتحوا الأبواب»، أخذ الأتراك يحطمون  
الأبواب وشكلوا محاكم صورية مباشرة، سالت دماء غزيرة في تلك  
الليلة القاتلة والمرعبة على شعبنا، أما رشي فقد إستغلت إنشغال الأتراك  
بتدمير دار الجيران فأخذت والدتها المريضة وجرت بها هاربة إلى  
الوادي، لكن رشي لاحظت على حين غرة كيف طغى الشحوب على  
وجه والدتها كشحوب الموتى «ما بك يا دأيه»<sup>(1)</sup> لا تقلقي نحن في أمان  
قالت ذلك بإضطراب «لقد تركنا هناك إبنِي الحبيب» قالت ذلك الأم  
بتنهّد ثم أغمى عليها.

(1) داية: كلمة كردية تعني الأم (المؤلف).

قفزت رشبي من الوادي كالنمرة الحاقدة، مستهترة بكل الأخطار  
ودخلت الدار، أخذت أختها الغارق في البكاء من الأرجوحة، ضمته  
بقوة إلى صدرها، لتمنع خروج صراخ الطفل حابسة أنفاسها وكالطيف  
تسللت خفية إلى الوادي، لكن العساكر الملاعين لاحظوها وهرعوا  
راكضين وراءها.

كان هناك خطر حتمي لوقوعها في يد العدو، لكن لحسن الحظ فقد  
وجدت نفسها عند حفرة للشعلب، وبصعوبة وقلق أزال التراب الهش  
المبلل بالمطر وزحفت إلى داخل الحفرة ووضعت كفها على فم أخيها  
لمنع إثارة إنتباه العدو.

شد وذهل الأتراك وأخذوا يبحثون عن رشبي عبثاً في الظلام.

- أين ذهبت؟ - شتم الجنود، اللعنة أصبحت أثراً بعد عين وكان  
الأرض إنفلقت إلى نصفين وإبتلعها لابد من القبض عليها وإلا  
فأن الباشا<sup>(1)</sup> سيدفننا أحياء.

تقدم الجنود نحو الأمام على رؤوس أقدامهم فاحصين كل شبر من  
الأرض بحراب بنادقهم وقد دنا أحدهم من الراية حيث إختفت تحتها  
رشبي مع شقيقها الصغير وأدخل الجندي بكل قوته في الأرض حربته  
الحادة إصطدمت بشيء وفكر العسكري بأنه حجرة وتابع سيره.

شعرت رشبي بألم حاد في جبينها، وأطبقت بقوة شفيتها ثم مزقت  
فستانها وربطت به جرحها، ومن مكان ما سال تيار من الدم الحار،  
وحالما خيمت العتمة فوق الطبيعة وخفت طقطقة أقدام الجنود الأتراك

(1) الباشا: يعني هنا في الرواية القائد العسكري.

في الظلام، ضمت رشي أخاها الصغير إلى صدرها بيد وضغطت على جرحها باليد الأخرى وخرجت من الجحر ثم زحفت إلى الوادي، فكانت الوالدة المسكينة منقبضة القلب تنتظر قدوم ولديها، وهنا ظهرت رشي مع أخيها، سلمت الصغير إلى الأم ثم أغمي عليها.

وليس كل هذا بالأمر المخيف، لكن من المخيف أنه هنا ورغم كل ذلك لم تحرك قبيلة سرخون ساكناً لإنقاذ الشعب المسكين الشقي من حراب المتوحشين الأتراك، لقد ملأ الآنين والعويل والبكاء والصراخ الأرض والسماء وكان من الممكن التفكير بأن الطاعون قد حصد قبيلة سيبكا الكردية لقد إنقطعت أخبارهم.

في صبيحة اليوم التالي إجتمع حشد من الفرسان البواسل على أحصنة سود بالقرب من دار سليمان آغا، وكان على رأسهم بولات بنفسه - والد عمريك آغا وجد فيديا.

ترجل بولات قافراً من الحصان وإتجه مسرعاً نحو الباب وفتح الباب بدفعه من قدمه، كاد أن يخلع الباب بعد أن إقتحم الدار، جر بولات من الفرشة ولدي سليمان آغا ابراهيم وشمدين اللذين كانا ما يزالان نائمين ونظر شزراً بعينيه المحتقتتين غضباً صارخاً فيهم في إنفعال وحماس شديدين:

- أيها المأجورون الخونة تستحقون الموت يا أبناء الكلبة! كيف ذلك وأنتم زعمائنا وتغلقون على أنفسكم باب الدار وتتفرون كيف الأتراك ينعلون بأمهاتنا وأطفالنا وزوجاتنا شر تنكيل، وكيف أنهم يدوسون شرفنا بأقدامهم إخرجوا! وإلا سنبيد عائلتكم!...

حتى أن الأكراد المسلمين، الذين تجمعوا على الصوت، أبدوا  
إستياءهم من الموقف القدر لزعيمهم وتعالى الصراخ في الفناء «الموت  
لعائلتكم اللعينة!» عليكم اللعنة.

ويقال بأنه كان سيقطع بالتأكيد رؤوس أبناء سليمان آغا، لولا تدخل  
العجوزة ساسون خانم والدة سليمان آغا، التي إندفعت راکضة حالاً من  
غرفة النساء وهي ترتدي قميص النوم شعثناء الشعر، ثم ركعت عند أقدام  
بولات وشرعت تصرخ:

«يا ناس، أتضرع إليكم بإسم الرب، لا تلعنوا عائلتنا! أطلب من الرب  
أن يعميني عن القبيلة وعن الألام التي حلت بهم! لقد لوى الرب عن  
أحفادي لقد خدعوهم أن الأتراك الكفار أوقعوهم في شبكتهم المحتالة،  
أنهم يألبون قبائلنا بعضها ضد البعض، أن أحفادي ألحقوا العار بأنفسهم  
وداسو على شرفنا وشجاعتنا، لكنني وبأسم الرب أتوسل إليكم بأن لا  
تقتلوهم ولا تمسوهم بأذى، أنهم ومن الآن فصاعداً سوف يدافعون عن  
الشعب أوعدكم بأسم قبيلة سرخون، أتوسل إليكم يا أبنائي، إحترموا  
شعري الأشيب ودموعي، عودوا إلى رشدكم سأذهب حالاً معكم إلى  
الباشا الغادر، وبأذن الله لن يستطيع أن يقول لدجاجاتكم كش، إنتظروني  
خارج الدار للحظة واحدة سأخرج إليكم بسرعة..».

إن دموع هذه المرأة المبجلة هدأت بعض الشيء من غضب الموجودين  
وأمر بولات بأيماءة من رأسه فرسانه الشجعان الخروج إلى الشارع.

وما هي إلا بضع دقائق حتى خرجت ساسون خانم إلى الشعب  
ووراءها إبنها سليمان آغا واحفادها مطأطين رؤوسهم خجلاً في حين

إندفعوا إليهم بخطوات أسرع ووضعوا السروج على الخيول، أمتطى  
إبنها وأحفادها صهوات جيادهم بهدوء» الله معنا «قالت ذلك ساسون  
خانم وهمزت إلى الحصان.

سارت خلفهم كل قبيلة السيبكيين وقد إهتزت الأرض تحت وقع  
حوافر الخيول كيف لا ووراءهم كل القبيلة، حيث أنهم توجهوا إلى  
الباشا التركي في بايزيد بهدف إطلاق سراح إخوانهم الأكراد الأيزيديين  
الواقعين في الأسر وإعادتهم إلى حياتهم الفلاحية الحرة.

لقد كان العجوز چاويش يتحدث عن ذلك بحرارة وكأنه شارك بنفسه  
في هذه الأحداث فقد أغرورقت عيناه بالدموع وبصورة عفوية بدأ يعد  
مسيحته بفارغ الصبر ويبد مرتجفة.

في ذلك اليوم - تابع چاويش حكايته - طوق السيبكيون كل بايزيد  
ثم صرخوا في وجه الأتراك وتعالى الهتافات: «عليكم إطلاق سراح  
المعتقلين حالاً، وإلا فالويل لكم سنموت هنا ولكن سنحرر إخواننا  
سنزيل مدينتكم من على وجه الأرض».

ماذا فعل الأتراك، فبأمر من الباشا تم إستدعاء ساسون خانم وإبنها  
وأحفادها إلى القصر، حيث أستقبلهم بحفاوه وقدم لهم هدايا ثمينة وأمر  
الباشا إطلاق سراح السجناء وودع ضيوفه «الأعضاء» مع السلامة حدث  
كل ذلك بصورة غريبة جداً، حتى شعر الناس بالحيرة والإستغراب  
لدرجة أنهم اضاعوا أنفسهم وما عرفوا بمن يجب أن يتهلوا بالدعاء  
وتقديم الصلوات لساسون خانم التي غامرت بنفسها وقامت بمثل هذه  
الخطوة الجريئة أم للباشا الذي أبدى مثل هذا اللطف.

عاد السبيكيون إلى ديارهم وقلوبهم عامرة بالسعادة والسرور حيث مضى كل ذلك دونما ضحايا ونزف الدماء، وأستقبلوهم بإبتهاج في القرية، خلال أيام وليال عديدة دوى في كل المناطق المجاورة صوت الزرنة وقعقة الدف احتفاءً باطلاق سراح أبناء القبيلة.

ثم عادت الحياة شيئاً فشيئاً إلى مجراها الطبيعي، زاول الفلاحون عملهم اليومي، لكن لم يمض إلا أيام قلائل حتى لاحظ الناس الظهور المتزايد للملالي والفقهاء، كما أنهم لاحظوا بأن إخوانهم الأكراد المسلمين الذين تقاسموا فيما بينهم بالأمس السراء والضراء أخذوا يتعدون عنهم شيئاً فشيئاً غير راغبين حتى في تذوق خبز وملح «الكُفار» ويؤكد على ذلك القصة التي حدثت مع راعي المنطقة سيثيك بادو فليرحمه الله.

- رحم الله أمواتكم قلت ذلك ثانية كما هو مألوف عند ذكر الموتى.

ثم تابع العجوز چاويش حديثه ممسداً شواربه قائلاً: فقد دعا هذا الراعي أهل القرية للحضور إلى وليمة أعدها تأييماً للمرحومة والدته، وعندما أجال الراعي بصره في الحاضرين كاد أن يخرج عن طوره من الدهشة حيث لم يرى بين الحاضرين كدياً مسلماً واحداً، فهذا الراعي المسكين الذي يرمى أغنامه على مدار السنة، كان بمنأى عن الأحداث الجارية، لذا فقد أنتابه الإرتباك، ولم يستطع للوهلة الأولى أن يدرك كنه الأمر، ولم يدرك حقيقة ما جرى من أحداث وعندما سأل الراعي جاره عن ذلك أجابه الجار:

«ليحفظ الرب دارك من المصائب ولكن هل أعميت كلياً؟ فالأكراد

المسلمون يخافون حالياً من لمس خبزنا وأنت تدعوهم لحضور الوليمة  
إستمر الجار بالحديث قائلاً للراعي: فقد أخبرهم الأمام عبد الرحمن  
إمام القرية أن خبز الأيزيديين غير نظيف ومن يلمس طعامهم ويتقرب  
إليهم يرتكب إثماً كبيراً ولا صلاح فيه أمام الله وسيصبح كافراً وعديم  
التقوى والإيمان».

«هكذا إذن! هتف الراعي يعني أن الأئمة يرغبون في دس العداوة  
بيننا؟ يا للمصيبة، شعب واحد ودينين...؟!».

ومع كل نهار يتوارى وراء الأفق، تحدث تحولات جديدة، حتى أنه  
مع مرور الزمن تم عزل قبور المسلمين عن الأيزيديين، ولا سمح الله  
فإذا رأى الأمام كردياً مسلماً مع شخص أيزيدي فإنه يصب على رأس  
المسكين أبشع اللعنات وتمتم الأمام بلسانه المسموم: «إبتعدوا كثيراً  
عن الأيزيديين فمنهم تفوح رائحة الكلاب»، كما راح أطفال المسلمين  
يشتمون ويلعنون الأيزيديين وأصبحت الأحوال تسوء يوماً بعد يوم  
بفعل ذلك.

ويقال أنه في أحد الأيام صادف أن التقى ابن أخ الأمام عبد الرحمن  
وبرفته ابن عمه في ساحة مفتوحة مع بيزار ابنة ذلك الراعي سيقيك  
بادو وراحا يرسمان حولها دائرة كروية وأخبرها أنها ستموت فوراً اذا  
ما حاولت الخروج من ضمن الدائرة المرسومة<sup>(1)</sup> وأن ابنة الراعي كانت

(1) فلسفة الدائرة وشكلها من مركز ونقطة وانغلاق فلسفة قديمة كان لها وجود في  
الاديان القديمة كما ان هناك الكثير من الطقوس الدينية والعادات للكثير من الشعوب  
والفلسفات الدينية لها علاقة بالدائرة كشكل دوران الارض النخ والحالة المذكورة  
اعلاه كانت من الصور النمطية الى وقت قريب والتي كانت تقال عن الايزيدية بأن  
رسم الدائرة يجعل الايزيدي لا يخرج منها لكونه يخرج من الدين. (المقدم).

مؤمنة لدرجة كبيرة وصدقت قول هؤلاء الأوغاد وبقيت جالسة ضمن الدائرة وهي بين الموت والحياة في حين أن والديها كانا يبحثان ويتألمان في القرية وقلقين لعدم عودة إبنتهما حتى اللحظة وأخذوا يبحثان عنها في كل مكان ولكن عبثاً.

وفي هذا الوقت، وفي طريق عودته من الصيد وعلى حين غرة لاحظ الصياد آسو كيف أن كلابه السلوقية تشمم الهواء رافعة أبوازها الطويلة، وتوصوص بصوت خافت مترددة في متابعة السير لابد أنه حدث مكروه، قال الصياد في دخيلة نفسه، ثم ألقى ما كان على كتفه وأندفع جانباً وراء صديقه المخلص، وهنا تناهى إلى سمع آسو صرخة فتاة تطلب النجدة: «ساعدوني! أنقذوني! النجدة النجدة!».

«أندفع آسو راكضاً إلى الأمام بإتجاه الصوت وسرعان ما رأى بيزار المسكينة نائمة على الأرض الرطبة وتصرخ بكل قوتها..

كفى عويلاً يا أختي! أوضحي لي ماذا حدث؟ سألها آسو وهو مُقبل إليها مهرولاً أما بيزار المسكينة فقد بدأت تفقد قوتها حيث أضناها الجوع والتعب والبرد لدرجة أنها لم تتمكن من النطق بكلمة واحدة لكنها إكتفت بالتأشير على الدائرة بيدها.

هكذا يا اخوتي! أي نوع من المزحات عملوها إلترم العجوز چاويش الصمت قليلاً- ثم تابع حديثه قائلاً: أما ما يخص بگوات الأكراد المسلمين فقد نهبوا حتى اللقمة الأخيرة من الفلاحين بأمر من السلطات التركية، حتى راح الناس يخافون من إرتداء الملابس الزاهية وأيواء الجياد الأصيلة وإليكم هذا المثال:

يقال أنه عاش في قرية كوخان، شاب متهور، مستهتر، يسمى (بافو)، لم يسمح هذا الشاب لأحد أن يزعجه، ففي عشية عرسه خاط لنفسه باباخاً (قبعة من الفرو) ملفوفة بحريير رفعه قبعته إلى ففاه، وعندما لاحظ آدو بگ حفيد البيگ المحلي هذا الغطاء بدأ ينوه لبافو لكي يهدي إليه هذا الأخير قبعته.

- وقد أجابه بافو: لا أستطيع يا بگ سأخيط لك قبعة أخرى، أفضل من هذه وعندما طلب منه البگ في لقاء آخر معه إهداء القبعة أجابه بافو لا تحاول فلن تأخذها.

- لا إذن لا، قال ذلك آدو بگ لاهتأ ثم سحب خنجره وقذف به إلى بافو لكن الأخير لحق أن يقفز بخفه، وأنطلق الخنجر بصفير ماراً بجنبه ثم سقط على حجر بالقرب منه وأنكسر إلى قسمين.

إحتقن وجه بافو بالدم وقد التوت سحنته غيظاً وهجم على البگ الشاب كالنمر المجروح وأسقطه على الأرض وصار يرفسه بقدميه.  
- من أنت يا ابن الكلب حتى تأخذ قبعتي بالقوة - قال ذلك بافو -  
وأنهال عليه بالضرب - أبصق عليك وعلى والدك وعلى دينكم الجديد! إذهب من هنا وإلا قتلتك، عليكم فقط لحس كعوب الأتراك، أيها المأجورون الخونة!.

يقال أنه لولا تدخل أحد المسنين لُقُتل البگ الشاب، فبعد أن هدأ الرجل المسن بافو، إلتفت إلى آدو بگ مخاطباً آياه: «أن بافو على حق يا آدو بگ، هل جننت؟ فالأتراك قد اشتروكم وتقومون بإثارة الفتن وزرع العداوة بيننا وتحريضنا وتأليبنا ضد بعضنا البعض لكي نقضي على

أنفسنا بأيدينا، إذهب يا أخي بالطيب واللفظ وأشكر الرب على أنك بقيت حياً)).

في نفس المساء إقتاد الجنود الأتراك بافو إلى مركز البوليس (أنت الكافر القذر الذي تجرأت بالهجوم على ديننا؟ صرخ به الباشا أثناء التحقيق)).

- أنا لم أشتكمك أيها الموقر، لقد دافعت عن شرفي أجاب بافو عن ذلك بهدوء.

- شرفك! صرخ الباشا، وصفعه بقوة نزل الدم من أنف بافو وسال على شفته ولكن بافو لم ينبس ببنت شفة.

- قل يا ابن الكلب- سأله الباشا بلهجة أكثر صرامة - كيف تجرأت على رفع يديك على مسلم، لا بل ضربته بشكل غريب، قل، من كلفك بالقيام بمثل هذه الوقاحة؟.

لكن بافو الشجاع لم يتفوه بكلمة وبين فينة وأخرى كان يحدق في وجه الباشا المسعور بنظرات ثقيلة وغريبة مليئة بالحققد والكراهية.

عندما لاحظ الباشا نظرات بافو التي كان يتطاير منها الشرر أحس الباشا بقشعريرة في بدنه وأمر بأيقاد نار في الشارع وغلي الماء في المراجل ثم جاؤوا ببافو الملطخ بالدم ورموه في الماء المغلي، أما بافو فقد تمكن فقط من أن يهتف بأعلى صوته: أيها الأوغاد! أن يوم الثأرات!.

كم هو لعين مصير الفقراء! عاود العجوز يچاويش كلامه بصوت خافت وبعد أن مسح عينيه بمنديل صمت هنيهة مارقاً بين أصابعه عدة حبات من المسبحة الموجوده بين يديه ثم تابع:

نعم يا بني أن مصير شعبنا كان حزيناً، فالمصيبة الأساسية لا تكمن في إنتزاع المواشي والأرض بقوة من الشعب بل أن الأتراك يريدون- ولا يتورعون أبداً- تدنيس شرفنا وإذلالنا والحط من الكرامة الإنسانية لشعبنا وعندما فقد الشعب صبره وتنامى القلق قرر زعماء القبائل والعشائر الأيزيدية عقد إجتماع عام لمجلس الشيوخ لمناقشة الوضع حول المهام المستقبلية ووضع الترتيبات اللازمة، وعندما إجتمع الجميع قال أحد أعضاء المجلس الذي كان سميناً كالثور المطعم وبطنه متدلّية أمامه لا داعي للتفكير، علينا الإستسلام والإطاعة وإن أستسلمنا فلن يصيبنا مكروه، فهناك من سلم مصيرهم للأتراك!.

تحدث الكثيرون وكانت الآراء مختلفة وقلوبهم تضرر حقداً لمرارة الألم الذي يعيشونه والمستقبل المجهول الذي ينتظرهم، أما الكلمة النهائية فكانت لعمرىك آغا، رفع نظرتة الحادة على ذلك السمين قائلاً:

- لتسلم دارك من المأساة يا ادريس، ألم تدرك حتى الآن بأن مسؤولية كل ما يحدث تقع على الأتراك؟ كنا سابقاً قبيلة واحدة وأخوة دم، تقاسمنا السراء والضراء، وجمعنا مصير مشترك، أما الآن فقد تدخلوا في شؤوننا ويشيرون الفرقة بين العشائر، أننا الآن جميعاً بالنسبة لهم مثل العظمة في البلعوم، ويؤكد على ذلك معارك «آكري داغ والفرات»، فبعد أن فشلت محاولات الأتراك للقضاء علينا عسكرياً لجأؤوا إلى الحيل واشتروا بگاواتنا لزرع الفرقة وإلاقتال بيننا.

- أن كلامك منطقي ورأيك صائب- أكد أعضاء المجلس- ولكن

قل لنا ماذا علينا نعمل؟ قال عمريك وهو غارق في التفكير، علينا البحث عن المنفذ لخلاصنا، وبقدر ما نستعجل في الأمر يكون ذلك أفضل.

وفي المساء وعندما خيم الظلام على الأرض، شدّ زعماء القبائل الكردية الأيزيدية الرحال وخرجوا من القرية، كان طريقهم يمر عبر جبال سمي رش، متوجهة إلى حظيرة حجه ابن قريتهم نصبت هذه الزريبة في منخفض كان مُحاطاً بجبال شاهقة ذات نتوءات حادة، فعلى اليسار امتدت شعب صغيرة تفرق المياه وعلى اليمين كان وادي مكسو بالأعشاب والأزهار ذات الرائحة المعطرة النفاذة التي تسكر كالنبيذ، جمد كل ذلك في صمت رهيب، فقط ما كان يتناهى إلى السمع خريبر الماء الأدق من الصوت الإنساني، أما الأغنام التي ملأت بطونها بالعشب أثر المرعى الليلي فقد كانت في غفوة وديعة.

أول من أستهل الحديث كان الشيخ بارو حيث قال:

- إختوتي يا أبنائي، توجه بكلماته هذه إلى الحاضرين، لقد أجمعنا في هذه الجبال لتتشارور ونقرر مصيرنا وعلينا أن نتخذ اليوم قرارنا النهائي، فكروا بالأمر جيداً، فلندع بادئ ذي بدء عمريك ابن بولات يقول رأيه.

- إختوتي، يا قادة وزعماء العشائر المحترمين، راح عمريك يوجه كلامه إلى الحضور، ماذا عليّ أن أقول؟ فأنتم أفضل دراية مني بجميع الأعمال السوداء للعدو لقد نفذ صبرنا وإذا إستمر الوضع على هذا الشكل فأن الأتراك سييدوننا نهائياً، ولسنا قادرين أيضاً على

ردعهم عسكرياً، فعددهم كبير جداً وهم مدججون بالسلاح، هذا ناهيك عن وجود السلطة بأيديهم، لذا فلا فائدة من سفك الدماء لا بل أن ذلك سيثير من إستفزاز الأتراك وسيجعلهم أكثر شراسة، لقد مُزجت هذه الأرض بدماء إخواننا وأطفالنا وأمهاتنا، كفى من التضحيات البريئة التي فقدناها من شعبنا، ولكن لا يخطر على بال أحدكم قطعاً أن الخوف هو سبب تخليتنا عن النضال، يجب علينا النظر إلى الأمور نظرة سليمة « فالشجاعة الحمقاء لا تؤدي دائماً إلى النصر » أما أطفالنا وأحفادنا سيقيموننا فيما بعد، ولكنهم سيفهموننا بشكل صحيح، فمن أولى مهماتنا اليوم الحفاظ على لغتنا وعاداتنا وديننا، وباعتقادي سيكون قرارنا صائباً، فيما إذا أتقلنا إلى الطرف الروسي، فقسم من عشيرتنا وإخواننا أنتقلوا منذ زمن بعيد إلى طرفهم، وتؤكد جميع الدلائل على أن وضعهم جيد، وليس هناك من سيحاول فرض دينه ولغته علينا، أنني متأكد من أن الروس سيمدون إلينا يد المساعدة.

أمعن عمريك النظر في وجوه الحاضرين فلاحظ على وجوه الجميع علامات الرضى، أدخلت كلماته دفء الفرح والأمل إلى قلوب الجميع ومنحتهم القوة والثقة بالمستقبل.

ثم أخذ شيخ بارو الكلام مجدداً:

- إخواني أرجو منكم مباركة هذا الإقتراح الذي قاله عمريك فإنه يرينا الطريق الصحيح، فلنبعث غداً رسلاً إلى الروس، ولنكتب إليهم ونناشدهم بأسم دينهم ولغتهم أن يقبلونا على أرضهم وأن

لا يرفضوا طلبنا وسنقول لهم مدوا يد المساعدة إلى شعبنا المعذب  
فهو في خطر كبير وأيامه معدودات.

تم التصويت بالإجماع على القرار وقفل كل واحد راجعاً إلى البيت  
بشكل سري لعدم إثارة الشكوك، بينما غمرت قلوبهم بالبهجة والأمل،  
فهذا القرار هو الطريق الوحيد للخلاص، يكفي فقط إرسال وفد إلى  
الروس سراً وخفية عن أنظار عساكر الترك الجالسين كالذئاب الجائعة  
على جميع الدروب بعد الاجتماع المذكور تقرر توجيه كل من علي ابن  
عمريك بولات ونيكو إين ميخو وبادو إين ممو وطلبوا منهم الأستعداد  
لرحلتهم العظيمة والمقدسة، تلك الرحلة التي علقت آمال شعبهم عليها  
لأنقاذهم من بطش الأتراك.

وبدت أكداس الضباب تزحف ملتوية نحو الأسفل بفعل رياح قوية  
وعندما أدلهم الظلام الدامس، خرج الفرسان الثلاثة من القرية، ولدى  
وصول الفرسان الثلاثة إلى الجبال القريبة، هطلت الأمطار بغزارة، إلا  
أن المطر والجو لم يؤثر على رحلتهم فقد وقع عليهم الشرف الكبير في  
إيصال طلب العشيرة إلى الروس، وكان عليهم أن يثبتوا بأنهم جديرون  
ولاثقون بهذه المهمة العظيمة وأن وقوع الأختيار عليهم لم يكن بمحض  
الصدفة، أمتطوا صهوات جيادهم وكانت تغمرهم سعادة حقيقية وسرت  
قشعيرية الفرح في أجسادهم الشابة المليئة بالحيوية، كان هذا الشعور  
كبيراً وعظيماً لديهم كعظمة الحياة نفسها، حيث لن يتوانوا عن إعطائها  
إذا لزم الأمر في سبيل سعادة شعبهم.

وفي صباح اليوم التالي، نزلوا في منخفض أمبرد، حيث أمتدت

حدود أمبراطورية الدولة الروسية، إنسبطت الأرض كالسجاد تحت حوافر جيادهم مكسوة بْحَلَّة خضراء مما كانت تبهج الناظرين، وفي هذه الأثناء لاحظوا في أسفل المنحدر قطعان ماشية ترتوي من مياه النهر البارد، ومزق الصمت الرهيب أغنية الراعي الرائعة والحماسية، حيث تنهى إلى سمعهم أغنية "زاري دومامي" الساحرة، هذه الأغنية التي غمرت قلوب الشباب حيث بدؤوا يرددونها عفويًا، وفجأة برز ذئبان ضخمان مكشران عن أنيابهما ويعويان غضبًا، كانا جاهزين للإنقضاض عليهم، من الصعب التكهن بماذا يمكن أن ينتهي ذلك، لولا الراعي الشاب الذي طرد الذئاب ملوحًا بعصاه، أما الذئاب فقد ألوت أذنانها غير راغبة في التراجع عن القطيع.

- اهلاً وسهلاً، رحبّ بهم الراعي مدققاً في وجوههم، عسى أن يكون خير في هذا الصباح الباكر.

- لينعم عليك الرب بالنجاح! نحن أهل الخير، راح الشباب يهدئون الراعي ثم ترجلوا من السروج.

- ماذا لو تناولتم الفطور معنا؟ قال ذلك الراعي ودعاهم فوراً إلى الرعاة الثلاثة الآخرين حيث كانوا يجهزون الفطور.

وبعد أن تبادلوا الأحاديث اللطيفة عن الأحوال طلب الفتيان من الرعاة السماح لهنّ بغسل وجوههم بالماء البارد من النهر، وبعدها جلس الجميع لتناول الافطار، لاح فطور الرعاة المتواضع للشباب الجائعين طعاماً من الجنة، وما كادوا ينتهون من تناول طعامهم حتى توجه إليهم كبير الرعاة بأسئلته:

- معذرة يا أبنائي، إذا سألت من أنتم وإلى أين تسلكون الدرب؟ يبدو لي أنكم من مناطق بعيدة، ما هي حاجاتكم؟ وما هي رغباتكم هل بإمكاننا تقديم المساعدة إليكم؟

- أنك لم تخطيء أيها الأب - أجابه علي - أننا من مناطق بعيدة، من تركيا، ثم تحدث إليهم علي عن هدف سفرتهم.

- اصغى الرعاة بصمت إلى الشاب، لقد كان الألم والغضب الممتزج بصوت علي مفهوماً وقريباً إليهم فوحشية وهمجية السلطات التركية كانت في أذهانهم لقد أقدمت هذه السلطات أيضا على سحق وتدمير عشيرتهم ذات يوم، لكن الحمد لله، فقد تمكنوا في الوقت المناسب من إنقاذ أنفسهم من الملاحقات القاسية، أما الآن فأنهم لأيهابون سيف العسكر التركي، لقد عاشت عشيرة هسنا تحت حماية السلطات الروسية الأمنة.

- عمي كارمان، - توجه أحدهم إلى كبير الرعاة - أن قبيلتنا أيضا ترغب بالانتقال إلى الأراضي الروسية، لكننا لا نعرف إلى من نتوجه بطلبنا هذا، قد تساعدنا في ذلك؟.

- إن حسن آغا<sup>(1)</sup> وحده قادر على مساعدتكم - قاطعه العجوز - يا للمصيبة أنه مسافر.

---

(1) حسن آغا: يوجد في الرواية ذكر لشخصية حسن آغا في اكثر من موضع وفي اكثر من موقف وحسب النص الكردي هناك شخصيتين بهذا الاسم الاول تركي يعاشر الايزيدية ويقدم لهم خدمات جيدة اثناء تواجدهم في الجانب التركي والثاني ايزيدي وهو المذكور اعلاه الذي سيساعدهم على التعرف على السلطات الروسية ويقدم لهم المساعدات، وحسب المصادر التاريخية بأن حسن آغا كان من كبار عشيرة حسنا. (المقدم)

- إلى أين؟ سأله الفتیان الثلاثة معاً وبصوت واحد مضطرب.

- يُقال، أنه مسافر إلى تبليس، يسعى جاهداً للحصول على أمر بفتح المدارس في مناطقنا ورغم أن التعليم حرام للأيزيديين، إلا أن حسن آغا لا يعترف بمثل هذه الخزعبلات، أعرف أنه ليس لنا شيء هنا على الأراضي الروسية، لكننا مطمئنون إلى غدنا، أما بالنسبة إليكم، أرى من المفيد السفر إلى تبليس، وبعد أن تلتقوا هناك بحسن آغا، سيوجهكم هو بدوره إلى الجهات الروسية المختصة بالنظر بطلبكم.

عبر الشباب للرعاة عن آيات الشكر والعرفان الخالصين على تكريمهم وتقديم النصائح إليهم ثم أنطلقوا في الطريق، وبناءً على طلب كبير الرعاة رافقهم باري ذاك الذي غنى «زارى دومامى» إلى أشتاراك.

\*\*\*

## غزال

في اليوم التالي، توجهت برفقة العجوز، چاويش إلى الجبال أن الشُعَب الذي توقفنا فيه لأخذ قسط من الراحة حمل إسم وادي البؤساء، يعود هذا اللقب إلى الأزمان الغابرة. غطت الاحجار الكبيرة قعر الوادي وسفح الجبل، فعلى ما يبدو، سقطت هذه الأحجار في زمن ما من القمم الصخرية في سطح الجبل ومن ثم قذفت بها العواصف الثلجية إلى الحضيض.

- أنها العاصفة- تطلع العجوز چاويش بأمعان إلى السماء، حيث تلبدت غيوم سوداء رعدية وثقيلة.

- ما العمل؟ سألت العجوز.

- يوجد هنا كهف صغير، من الممكن المكوث فيه ريثما يتحسن الجو.

تكدست الغيمة بسرعة غريبة، كما يحدث عادة في الجبال، ولم يبق أمامنا سوى الموافقة على إقتراح العجوز وأثناء إنحدارنا من الجبل، تنهى من بعيد إلى سمعنا وبشكل خافت دوي أول رعد، ساد صمت رهيب وأخلد كل شيء إلى النوم، فكانت المنطقة رطبة ومقفرة، وفي إحدى الجهات كانت الشمس لاتزال تضيء بنور ساطع، بينما حملت

الريح من الجهة الأخرى سحابة رعدية سوداء، مما أعطت جمالاً وعظمة، بينما زحفت من الجهة اليسرى للجبل غيمة سوداء كبيرة، لكننا بعد بضع دقائق كنا أمام مدخل كهف.

- نحن الآن في أمان، قال ذلك چاويش فاتحاً راحة يده تحت الرذاذات الأولى للمطر.

كان الكهف صغيراً، لكنه مريح جداً، وبما أن الرعاة كانوا يترددون عليه كثيراً، فقد أعطاه طابعاً سكنياً، وقد نُصب فيه موقد بالقرب من المدخل بينما أنبسط في وسط الكهف حجر ضخّم أملس استُخدم كمائدة للطعام، تُحيط به من كافة الجوانب أحجار أصغر حجماً للجلوس تنهى إلى السمع من جهة الوادي صوت خافت مما جعلنا نعتقد بوجود وابل حقيقي، كان الطقس رطباً داخل الكهف.

حاول چاويش إشعال الموقد بواسطة جذوة من النار القديمة ونباتات الزعرور اليابسة الموضوععة في زاوية الكهف بطريقة مُرتبة.

وبعد مرور ربع ساعة وعندما أُنّت الجبال من دوي الرعود، إلتهبت النار عندنا في الكهف بسرور وأعطت بسرعة دفئاً حياً.

- عمي چاويش! توجهت إلى العجوز بسؤال يُقال أنك وغزال ذقتم المرار في شبابكم قبل زواجكم؟ كما علمت أنها جاءت إليك بنفسها ضاربة عرض الحائط بجميع القوانين وعادات الأكراد وتقاليدهم، أصبح هذا؟.

- صحيح يا بني، هذا ما حدث فعلاً، إبتسم العجوز بمكر.

- كيف حدث هذا؟ طلبتُ منه بالبحاح.

- يا لك من داهية، ليس أمامي إلا أن أسردها لك وأنفرت شفتاه عن ابتسامة، حدث ذلك منذ أمد بعيد، كانت غزال فتاة حسناء ليست كما هي الآن، وكان يظهر ذلك للناظر من أول لمحة، وكان الشباب يتأوهون حسرة وإعجاباً بجمالها، لكن أحداً لم يتجرأ على التحرش بها لصداقتها أقدم الكثيرون على خطبتها، لكنها رفضت الجميع لأننا قطعنا على أنفسنا وعد شرف أن نكون زوجين إلى الأبد، أما أنا فقد أحببتها أكثر من الحياة نفسها.

وفي إحدى المرات تقدّم لخطبتها علي ابن عمريك بولات، وبعكس ما مضى فقد وافق والدها هذه المرة دون أن يأخذ رأي غزال في ذلك هرعت غزال على عجلة من أمرها إلى مكان لقاءاتنا السرية وهي تذرّف دموعاً، إستحوذ على كليتنا القلق وكان لابد من عمل شيء ما، وهنا أضيفت إلى مصيبتنا مسألة إثارة الشبهات في القرية عن لقاءاتنا، لدرجة أن الناس أصبحوا يشيرون بأصابعهم نحوها ويلعنونها وكان مستحيلاً إسكات الناس وتكميم أفواههم فراودتنا فكرة الهرب من البيت، لكن إلى أين؟.

فلم نكن نملك داراً ولا سكناً، وفي الحقيقة كنا نخاف من علي ومن غضب عائلة عمريك بولات، كان الخطف سيجلب لنا ولعائلتنا الموت والدمار، ودون أن تتردد غزال كثيراً في إتخاذ القرار أخذت صرّة ثيابها وهرعت باكية في الليل إلى دارنا وهي تقول: اقتلوني، لكنني لن إذهب من هنا.

هكذا جاءت العروس بنفسها إلى دار والدي ضاربة عرض الحائط بجميع العادات الموجودة، منذ ذلك الحين ونحن نتقاسم السراء والضراء معاً، وبقدوم غزال دخلت السعادة إلى بيتي فهي سند ودعامة لداري.

صمت العجوز وسكّتُ أنا، وفي الوقت الذي إستمرت الأمطار تتساقط بغزارة، كانت الزوبعة قد مرّت، مكتفية فقط بإعطاء دوي رعد خافت في الجبال، مما كان يُشبه بالضبط إطلاق نار غير مُنتظم كم كان رائعاً الجلوس في مثل هذا الطقس إلى جانب موقد، تصاعدت منه ألسنة اللهب الحمراء التي لحست عتمة الليل مشكّلةً بذلك في الكهف جواً شاعرياً، ورحت أعيد في ذهني كل ما قصّ عليّ العم موسكوف والعجوز چاويش وأنا احملق إلى النار مسحوراً.

- عمي چاويش، لقد أنهيت حديثك في المرة السابقة، على أنه أنصم إلى فرساننا الثلاثة في الطريق، شخص رابع، ألا وهو الراعي باري، ماذا حدث بعد ذلك؟.

- بعدها؟ صمت العجوز مُستغرقاً في التفكير هنيهة ململماً أفكاره ومسترجعاً شريط الذاكره بتفاصيله.

- بعدها كان الطريق طويلاً، وحينما حلّ الظلام، بلغوا أطراف هضبة، كان لا بد من الإنتظار حتى الفجر للمبيت هناك، ومن ثم يعدّون العدة بعدها للرحيل، وعلى بُعد مسافة نصف ساعة مسير، كانت تقع في الوادي قرية أرمنية، وكان يسكن فيها أناس يعرفهم باري، لذا قرروا قضاء ليلتهم فيها، قادهم باري إلى قارع الطبل مانوك، حيث بدت لهم داره الوحيدة بلونها الأسود في أطراف القرية وإستقبل صاحب

الدار ضيوفه بترحاب بالغ: ((فأي واي)، ضيوف في الأعراء أهلاً بكم وسهلاً، الدار داركم، تفضلوا إجلسوا))، ثم أوعز رب البيت إلى زوجته أن تجهز المائدة.

راحت بناته ييسطن مباشرة على الأرض لبادة خرسانية، ووضعن عليها وسادات، لكي يتمكن الضيوف من أخذ راحتهم، دارت الأحاديث عن الصحة والأقارب، دار الحديث عن الأمور المألوفة، ومن باب اللياقة لم يسأل قارع الطبل مانوك ضيوفه عن سبب قدومهم إليه في مثل هذه الساعة المتأخرة وإلى أين سيشدون الرحال؟.

انتظر رب البيت ريثما يُبادر الضيوف بالحديث عن ذلك بأنفسهم، وأثناء تناول طعام العشاء راح باري يعرفه بأصدقائه وإلى أين يسلكون الدرب، بدا أن مانوك رجل محترم وذو عقل كبير، لم يمر عرس دون مشاركته ودون صوت طبله.

- إذن قررتم أيضا الانتقال إلى أقاليمنا؟- سألهم مانوك مُستغرِقاً في التفكير- لقد أصبتم كبد الحقيقة وهل ألتقيتم بحسن آغا؟.

- كلا لم نُسعد بلقاءه، ردّ عليه أحد الفتيان.

- لم لا؟ أنه سيساعدكم، فله مركزه ولرأيه الإعتبار عند السلطات.

- أنه مُسافر إلى تبليس، قال ذلك باري.

- إلى تبليس؟ سألهم مانوك مندهشاً.

- نعم، لقد سافر بغية فتح المدارس للأكراد.

- آآ... تتمم مانوك ممدٍ بنبرة صوته وبعد أن صمت هنيهة أضاف:

هكذا إذن أنه عمل عظيم، فلينصره الله، بدا أن مانوك سرّ لهذا النبأ بكل جوارحه، ثم راح يسأل:

- ألم تسمعوا بشخص اسمه خاجادور ابوفيان (1)؟

- كلا أيها المحترم، ردّ عليه الجميع بصوت واحد.

- هل يُعقل؟ لقد حلّ هذا الشخص المحترم منذ أمد بعيد ضيفاً على رئيس عشيرتكم سليمان آغا.

- لحظة واحدة، هتف نيگو على حين غرة، بالطبع سمعنا عنه، لقد تحدّث عنه شيوخنا حتى أن سليمان آغا قدّم له حصانه هدية لكنه اعتذر وكتفى ببعض الهدايا البسيطة.

- هو بالذات، هو بالذات، ردّ مانوك مسروراً، أنه كان خاجادور ابوفيان.

حدث هذا قبل ثلاثين سنة، كنتا نعيش حينئذ في ذلك الطرف المشؤوم وذلك في عام 1845، وعلى الرغم من مرور فترة طويلة إلا أن هذا الحادث لم يُحمد عندي، حيث أتذكر ذلك وكأنه حدث الآن، لقد شاركت في عرس ابن شمدين آغا، الزعيم السابق لعشيرة هسنا وفجأة أنتشرت أنباء حول ظهور شخص في تلك المناطق ملّم بلغات كثيرة، حتى أن الملا حسين ذا الحكمة الكبيرة، كان لا يتجرأ أن ينبس ببنت شفه أمامه.

ففي إحدى المرات إجتمع جمع كبير من الناس في دار سليمان آغا للإصغاء إلى ما يقوله خاجادور ابوفيان، ولقد أمسك بيده قلم رصاص

(1) شخصية ارومنية كان له دور مهم في توثيق تاريخ الازيدية في تلك المرحلة تحدّث عنه جون كيست في كتابه الحياة بين الكرد تاريخ الازيديين (ت عماد مزوري).  
(المقدم)

وورقة وراح يكتب طوال الوقت شيئاً ما لم يكن أحد يُدرك ماذا كان يكتب ابو ثيان في ورقته.

لم تتمالك امرأة عجوز فضولية نفسها وأخذت تسأله:

معذرة، أخي خاجو إذا سألتك من قبيل الفضول، ما هذا الذي تكتبه طوال الوقت؟

ردّ عليها خاجو مُبتسماً:

- أنني أدون آغانيكم وأقوالكم وحكاياتكم المأثورة.

- ها، هل تكسب من وراء ذلك لقمة العيش؟ سألت العجوز مُجدداً

- نعم، فقط لهذا السبب وأنفجر خاجو ضاحكاً.

- يا إلهي، هل هذا يعقل؟ سألته مرة أخرى بسذاجة

وهنا أطلق ابو ثيان فهقهة عالية حتى تفرقت الدموع في عينيه أصابت العجوز الحيرة ثم سكتت، فقال ابو ثيان ماسحاً عينيه بطرف منديل:

- لاتغضبي أيتها الوالدة، أضحك لأنني مسرور معكم في العمل الذي

أقوم به الآن، وذلك لأنه يدخل ضمن إختصاصي أنه عملي وأسفاه

لو كان لديكم مدارس وكتاباتكم القومية.. لتسنى لأطفالكم المجال

لتلقي العلم ولأصبحوا متنورين.

وعندما دار الحديث عن المدرسة، فأن ابراهيم الذي كان أحد

الحاضرين، تأوه متحسراً، وقال: آه، من أين لنا مثل هذه السعادة، لكن

ابو ثيان قاطعه:

لاتخلد إلى اليأس، أخي ابراهيم سيأتي يوم يتعلم فيه أولادكم،  
وحينها سيقرأون ويكتبون بلغتهم الأم، فمن جهتي أعاهدكم بأن أنقل  
إلى شعبي كل ما رأيته وسمعته من جميل ما عندكم، دعهم يعرفون  
كم هو مُبدع ومُوهوب وشجاع وكريم الشعب الكردي، إلا أن التعليم  
ضروري لشعبكم، ضروري لكم كضرورة الماء للزراعة لكي تنبت  
تحت أشعة الشمس التي وللأسف تلفح بحرارتها البعض سخاءً في  
حين تسهو عن الآخرين.

- هذا ما حدث، نهض مانوك وراح يختتم حديثه قائلاً: أن حسن آغا  
يقوم بعمل عظيم الآن، أنكم بحاجة إلى المدارس لتعلم الكتابة،  
حاولوا فقط ملاقاته في تيليس، سيساعدكم بالتأكيد، فعلى الأقل  
سيخبركم عن القائمين بهذه المسؤولية.

وعندما قاد ربّ البيت ضيوفه إلى غرفة النوم وأصبحوا لوحدهم  
حيثُ قال علي بمزاج رفيع:

- الحمد لله يا اصدقائي! يبدو أنه كان هناك ولا يزال أناس في هذه  
الدنيا الفانية يفكرون بشعبنا، لينعم الله عليهم بالعافية والنجاح، أما  
من مات منهم فليغمره الله برحمته.

أخذ الضيوف إلى النوم مباشرة، لأنهم كانوا مُتعبين من عناء الطريق  
الطويل.

لقد توقفت الأمطار، قطع العجوز چاويش حديثه ثم نهض من فوق  
الحجرة.

بدأنا نخرج من الكهف، كان كل شيء حولنا يلعب ببريق بعد المطر، ولاحظت تباشير الأرض حيث بدى هنا وهناك كل حجر وصخرة، وخيم سكون رهيب على الجبال الموحشة.

وكان من غير المُمكِن الاعتقاد بأنه قبل لحظات قليلة فقط مرّت العاصفة فوق هذه القمم وبعدها وعلى أثر تناول طعام الغداء في القرية، أفنعت العجوز أن يُكمل لي هذه القصة، وإليكم تكملتها:

ما كاد ينبلع نور الفجر وعندما صاحت أولى الديكة مُبلّغةً بحلول يوم جديد، حتى كان الجميع واقفين على أقدامهم، وبعد أن شكروا ربّ البيت على الخبز والملح، أخذوا يعانقون باري مُودعين آياه، ثم أنطلق الفرسان الثلاثة من جديد في الطريق، ودون توقف، خلفوا وراءهم ميراك وكونداخ ساز ثم عبروا عدداً آخر من القرى، إلى أن وصلوا أخيراً إلى قرية جاموش فان<sup>(1)</sup>، التي كان يسكنها منذ أمد بعيد السيبكيون أبناء قبيلتهم، توقفوا عند دارعجوز وإسمه برو، إستقبل السيبكيون أبناء عشيرتهم القادمين من تركيا بسرور وترحاب وبهذه المناسبة إجتمع حشد غفير من الناس في منزل برو، وحتى وقت متأخر من الليل لم تنته أسئلتهم، فقد تحدثوا عن أمور شتى:

عن الحياة في الطرف الآخر من الحدود، عن الأهل والأقارب هناك، عن العجوز بولات الذي كان صديقاً حميماً لبرو وكذلك شحذ الضيوف أذانهم للإصغاء بأهتمام إلى أحاديث سكان قرية جاموش فان

(1) جاموش فان: هو اسم قرية يسكنها غالبية من الايزيديين في دولة ارمينيا يطلق عليها الايزيديين اسم (جامو شقان) وتسميتها الرسمية هي (جاموشلو).

المُتعلّقة بالمعيشة على الأراضي الروسية، مما فغروا أفواهم علامة الدهشة والسرور، لقد عاش الناس هنا في بحبوحة وفي أمان. فالحياة كانت تسير عندهم بأنّظام وغير قلقين من الغد، ولم يعد يعكّر صفو أيامهم ولياليهم الغارات المُباغته للأتراك ولم تُسفك الدماء ولم تُنهب الأموال ولم تتعرّض الفتيات إلى الخطف عنوة.

وفيما هم كانوا مُستغرقين في أحاديث شيقة، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، لكن هنا تذكر فجأة أحد الحاضرين بأن الضيوف قد تعبوا من الطريق، ولا بد من إفساح المجال أمامهم لنيل قسط من الراحة.

وما أن تمنى الحاضرون للضيوف احلاماً سعيدة، حتى خويّ المبنى من الحشد في لحظة خاطفة، وفي صباح اليوم التالي ومع أول خيوط الفجر، كان الضيوف قد جلسوا على مائدة الفطور الفخم أعطى برو نصائحه الأخيرة لضيوفه الشباب ثم خرجت لوداعهم القرية عن بكرة أبيها في حين رافقهم عدد من الشباب إلى أماملي.

كانت السماء صافية وخالية من الغيوم وحملت الرياح من السهوب بسخاء عقب الزهور التي كانت تغطي وجه الأرض بلا إنقطاع، وبدا كأنه لا شيء آخر هنا سوى الزهور والسماء وعندما مالت الشمس نحو الغروب كان الفرسان قد وصلوا أماملي، وهناك أخذوا يودعون مرافقيهم من جاموش فان وسلموهم جيادهم وتابعوا سيرهم مشياً على الأقدام، كان الطريق طويلاً وشاقاً، إلا أن هدفهم المنشود ذلك هذه المصاعب.

وهكذا وصلوا إلى قمة جبل كود جورى الذي أطلّ مفتخراً على مدينة تبليس، ومن على إرتفاع تحليق عصفور بدت المدينة

كاملة من الجبل، كما لو كانت في راحة اليد وأخذت قلوبهم التي  
إعتصرها الألم تخفق بشدة فرحاً، فالمدينة التي علقت القبيلة أمالاً  
عليها أنبسطت أمامهم لقد شغل بال الفرسان الثلاثة شيء وحيد: هل  
سيحالفهم الحظ في هذه المدينة؟ وهل سيتمكنون من تنفيذ المهمة  
الواقعة على عاتقهم بشرف؟

أم سيعودون خائبين إلى أولئك الذين يحلمون بأنقاذ العشيرة؟ وبذلك  
يكونون قد اخمدوا آخر شرارة أمل في قلوب أبناء عشيرتهم، كانت هذه  
الفكرة تطعن الصميم وتدخل الكآبة في القلوب، لكنها كانت لحظة  
ضعف، لقد جاؤوا إلى هنا لأيصال طلب القبيلة إلى السلطات الروسية  
بغية الحصول على المساعدة، لقد سبق وأن ساعد الروس قبائل كردية  
كثيرة ووضعوهم تحت حمايتهم، ولا بد أنهم سيمدون يد العون إلى  
قبيلتهم أيضاً.

ففي جاموش فان نصح العجوز برو ضيوفه الشباب بالتوجه إلى  
دائرة نائب قفقاس، حقيقةً فأنهم لم يتذكروا إسم هذا النائب، إلا أن  
ذلك لم يكن شيئاً مهماً، المهم هو رباطة الجأش وتدبير الأمور في هذه  
المدينة الكبيرة المجهولة، وسوف لن يحرمهم الرب من حمايته، بعد أن  
ركعوا للجهات الأربعة وأدوا الصلوات<sup>(1)</sup> بطريقتهم الخاصة سلكوا ممراً  
أنحدر مُسرِعاً نحو المدينة.

لقد أدهشتهم مدينة تبليس بجمالها وفخامتها، فأزقتها المثلوية

---

(1) يؤدي الازيدي صلاته بالاتجاه نحو الشرق (الشمس) واثناء الغرب ايضا باتجاه  
غروب الشمس لقدسيته وله 3 صلوات.

الضيقة وبيوتها ذات الطابقين وثلاثة طوابق بحدائقها الواسعة الجميلة وفيتونات الركاب كانت تبهر الناظر بحسنها وبهائها، وكانت تتناهى إلى سمعهم خلال الأبواب المفتوحة على مصراعها الآغاني الجيورجية الغربية عليهم. كل ذلك كان جديداً عليهم ويثير فضولهم إلا أن الأصدقاء حاولوا عدم إضاعة وقتهم بمثل هذه المناظر الخلابية، بل راحوا يبحثون عن مكتب نائب القفقاس ولسعادتهم، فأن سائق الفيتون<sup>(1)</sup>، الذي توجهوا إليه لأخذهم إلى مكتب النائب كان أذربيجانياً ويتحدث اللغة التركية، ولم يمض بعض الوقت حتى كانوا أمام دار جميلة في وسط المدينة.

- أنه هنا، قال سائق الفيتون متمنياً لهم التوفيق، وبعد شرح مُطوّل مع الحارس خرج إليه شخص يتكلم اللغة الكردية بطلاقة، وتبين فيما بعد، بأن هذا الشخص كان الأرمني ساغومون يغيازاروف الذي عاش طويلاً بين الأكراد ودرس لغتهم.

بعد أن أصغى يغيازاروف بإنباه إلى حديث الشباب الأكراد حول وحشية الأتراك وعن الخطر المحدق بالقبيلة وأمكان تدميرها من قبل الأتراك وحول رغبة القبيلة في الانتقال إلى الطرف الروسي، قال يغيازاروف مقتضباً، بأن مفوض القفقاس غير موجود الآن في تبليس، وأنه في مهمة عمل.

- لكن حسن آغا سيكون مفيداً لكم، - راح يهدىء الشباب، - فإنه على

(1) الفيتون هي مركبة مكشوفة تجرها الخيول ولا زالت تستعمل في بعض الدول للسياحة.

صلة جيدة مع السيد دوندوكوف الذي يقوم بحل المسائل كالتي  
عندكم تماماً، راجعونا غداً صباحاً، وأن حسن آغا سيكون موجوداً  
في القسم، لا بد أن لديه أعمالاً في المكتب وسيأتي إليه.

كانوا منذ الصباح الباكر ينتظرون أمام باب المكتب، طال الإنتظار،  
كان أشخاص بزي الضباط يدخلون ويخرجون، لكن أحداً لم يهتم  
بأمرهم، وأخيراً خرج إليهم يغيازاروف مُبتسماً، وبرفته رجل ما، ومن  
هيئته عرفوا في الرجل الذي أمامهم أنه كردي.

- هاهم الشباب الذين تحدّث عنهم إليك يا حسن آغا، توجه إليهم  
الشخص الذي كان معه.

بعد الترحاب المُتبادل، أفرحهم حسن آغا حينما قال: بأنه قد نقل  
طلبهم إلى السيد دوندوكوف، وأن الأخير قد أعطى وعداً بالتحرك.

أن السيد دوندوكوف يرغب شخصياً التحدث إليكم، أنه في إنتظاركم،  
قال ذلك حسن آغا مُبتسماً طارداً القنوط من أنفسهم وأمرهم بالسير خلفه  
عبروا عدة غرف شبيهة بمعابد إسطورية ذات أبواب غريبة الشكل، وعندما  
إقتربوا من الباب الأخير، وقف حسن آغا وفتح أمامهم الباب.

دخل الشباب إلى الغرفة بخطوات مترددة، ووقفوا عند عتبة الباب.  
كان دوندوكوف الذي يرتدي سترة عسكرية براقه تتدلى منها شارات  
ذهبية جالساً على طاولة كبيرة ويُدقق في أوراق ما عندما رأى الضيوف  
نهض من كرسيه وإبتسم برقة وطلب منهم الجلوس، كما دخل أيضا  
حسن آغا ويغيازاروف وأخذوا مكانهما مقابل الضيوف.

أصغى دوندوكوف بإهتمام إلى أحاديث الشباب حول قيام عساكر الأتراك بضرب قراهم بالحديد والنار وكيف يقتلون بوحشية السكان الأبرياء وكيف يقتادون زوجاتهم وشقيقاتهم عنوة، وكيف أن البكاوات والائمة المحليين وبتحريض من الأتراك وبدافع المصلحة يقومون بإثارة القبائل ضد بعضهم البعض مما يسبب قتل مئات العوائل وكيف أن القبائل الكردية في تركيا تعيش تحت خطر الأباداة الجماعية.

ثم تحدث علي عن قبيلته بطلب من دوندوكوف، وفي رده علي سؤال من يُعتبر رئيساً للعشيرة، أجاب الشاب، بأنه لا رئيس للقبيلة في الوقت الحاضر وأنه تمّ الإقرار بعد عودة الوفد مباشرة بإنتخاب آغا رئيساً للعشيرة، حينئذ ستبدأ القبيلة بأخذ احتياطاتها لعبور الحدود، فيما إذا مدّت إليهم السلطات الروسية يد العون.

في لحظة الوداع تحدث دوندوكوف قائلاً: أتمنى أن تخدم قبيلتكم كبقية القبائل الكردية لقيصر روسيا عن حب وأخلاص واعداء أيهم بالنجاح والمساعدة، خرجوا من مكتب مفوض القيصر الروسي ودون ضياع الوقت عبثاً أقتلوا راجعين من حيث أتوا.

- بدأ العجوز چاويش فصلاً جديداً من قصته قائلاً:

في إحدى الأمسيات أقبل المرحوم والدي إلى البيت مستاءً، بادرته مباشرة بالاسئلة وأجاب والدي: أن آغا المنطقة أحسن بالأختفاء الغامض لرؤسنا، لذا فإنه لا يجد له مكاناً من الغيظ.

- أي كافرٌ هذا الذي أخبره بذلك؟ سألته أمي مُدركة بالضبط شيئاً ما.

- يُقال أن صاحب العين المنفوخة أصلان تاكوري أبلغه بذلك؟ لفظ  
والدي هذا الإسم يحنق.

- هكذا إذن! هذا ما توقعته! تأوهت والدتي متحسرة ثم اخبرت الوالد  
كيف أنها رأت قبل عدة أيام هذا النذل مع شخص غريب مشبوه،  
كانا يتهاامسان فيما بينهما عن شيء ما، حيث أنها أستطاعت إلتقاط  
حديثهما بصعوبة، فقد قال صاحب العين المنفوخة شامتاً، ممسداً  
شواربه:

أقسم بشواربي أن هذه الدار ستكون لي عن قريب، ثم لَوِّح باصبعه  
إلى دارنا، أنهم يخططون لعمل خطير يرغبون بالفرار إلى الروس،  
دعهم يحلمون، فلنر من مَنَّا رقبته أغلظ، لدى سماعي لهذه الكلمات -  
أضافت الوالدة- أنقبض قلبي مباشرة وفكرت في دخيلة نفسي ألا يمكن  
أن يخطط هذا النذل لعمل أسود ضدنا.

- لماذا لم تخبروني بذلك سابقاً؟ قاطعها الوالد غاضباً.

- كنت خائفة عليك، ردّت الوالدة بإقتضاب، فكرت أنك ستقدم على  
عمل ما في لحظة غضب سي جلب لنا المصائب.

- حسناً، قال مُتكَاسلاً، فلنرى....

لم نذق نحن الزوجين الجديدين، أنا وغزال ليلتها طعم النوم.

- إبتسم لي چاويش مُداعباً كُنَّا حينئذٍ شباباً، ولم نفكر سوى بحبنا،  
ومن الإثم قول ذلك الآن وأنا عجوز، لكن معذرة، فأنت بمقام  
إبني، ففي منتصف الليل وعلى حين غرة، ومن الغرفة الثانية حيث  
كان ينام والدي ووالدتي، تناهى إلى سمعي صوت والدتي، كانت

أما تبكي في الحلم أو تضحك خفق قلبي بشدة ورحت أفكر في دخيلة نفسي، هل هذا بادرة خير أم؟.....وتقلبت في الفراش وأدرت وجهي نحو الجدار مقررًا النوم، ولكن عبثاً.

وفي تلك اللحظات بالذات، بدأ كلبنا ينبح نباحاً عنيفاً في الفناء وسمع وقع أقدام، وخلال ثوان معدودات طرقت الباب بجنون، أخذوا يطرقون الباب بقوة غريبة لدرجة راح الباب يرقص تحت ضربات كعوب البنادق، وكاد أن يُخلع من العتبة، هرعت من الفراش لفتح بوابة الدار، لكن الوالد مسكني من يدي ومنعني، أما الوالدة التي إستحوذ عليها الرعب الشديد، حاولت أن تصرخ بأعلى صوتها:

من هناك؟ وتناهى إلى سمعنا من وراء الباب صوت مُرعب أمر باللغة التركية، ((افتحوا الباب))، طلبت الوالدة من الوالد الأختفاء في زريبة المواشي ثم أخذت في يدها مسعر التنور وتوجهنا نحو الباب، أربعة عساكر إقتحموا الغرفة، رحنا نتراكض نحو الجدار، بينما إقتحموا الدار كالكلاب المسعورة وراحوا يفتشون كل زاوية، بدأ أحد العساكر وهو أحول دميم بدخول الزريبة حيث أختفى الوالد، بعد بضعة دقائق، تناهى إلى سمعنا من هناك صوت ضربات مكتوم، وكان يجرجر والدي موجهاً إليه الشتائم وراحوا يدفعونه بكعوب البنادق إلى خارج الزريبة، وبعيون مُرعبة أخذنا ننظر كل ما حدث دون أن نفهم سبب إعتقال الوالد.

ومنذ تلك الليلة يا أخي، تابع العجوز حديثه مُتنهداً بحسرة، مرّت الأيام ببطء وسادنا شعور بأنه حلت على الوالدة المسكينة وعلينا مصيبة من السماء، أو أن السماء قد أمطرت علينا أحجاراً.

أنتاب الوالدة غضب فظيع لعدة أيام، حيث أخذت تعض على شفثيها بقوة وتذرف الدموع في زاوية منفردة بصمت وهدوء وهي ترثي حالها في ذات يوم وبغثة أنهالت عليّ وعلى غزال باللعنات، فلتّعقم أصلاً بكمما، قالت الوالدة والشرر يتطاير من عينيها، أنهم أخذوه بسببكم أنتم أيها الملاعين، أن أقاربها اللعوبين رفعوا علينا الدعوى لدى السلطات، كما لو أننا إختطفنا عروسهم، أنها جلبت الشر إلى دارنا، مهلاً، أن ما حدث ليس إلا بداية، آه، لو يقصوا شعرك أيتها الماكرة وليحرموك من رؤية نور الشمس. أما المسكينة غزال فقد أجابتها بالصمت وأحسّت بإختناق في حلقها وراحت تبكي بمرارة.

تجمّد الدم في عروقي وشعرت بالإضطراب والحيرة، هل أقوم بمصالحة الوالدة أم بتهدئة غزال أنتيابني الذهول ولم أعرف ما يجب فعله، راحتا تقطعان نباط قلبي، أحدهما بمسباتها والثانية بدموعها.

أن البكاء احياناً يُخفف من الألم، في تلك اللحظة، كان قلبي يشبه صخرة متقلقلة لا يحتاج سقوطها إلا لهزة بسيطة لكي تجتاح كل ما في طريقها لم أتمالك نفسي وبدأت أصرخ في الوالدة:

- أمي كفى ثرثرة! من أين لك أنتعرفي أن كل ما حدث هو بسبب غزال؟ قلت ذلك صارخاً، أما في داخلي فكان قلبي يعتصر ألماً على والدتي.

- هل أصابك الجنون؟ فلو كانت هي السبب، لأخذوني أولاً وليس أبي، والآن هل أدركت؟.

وفقدت السيطرة على نفسي وأنخرطت كالطفل الرضيع في موجة

بكاء، وأحسست فجأة بغصة شديدة تُضيق الخناق عليّ، كنت أشعر في دخيلة نفسي بشيء من الخجل وعدم الإرتياح، لدى تذكري اللحظة التي أعتقل فيها العساكر والدي ولم أهاجم على هؤلاء الكلاب وأقتلهم، رحْتُ أصرّاً على اسناني في صريف وأضرب رأسي بلكمات قائلاً في قرارة نفسي: ((آه يا ابي، ليحرمني الرب من السعادة)).

بعد ذلك لا أتذكر شيئاً، سوى عندما عدت إلى رُشدي وفتحت عيني، رأيت الوالدة مُنحنية فوق رأسي، مسدلة شعرها تصرخ أكثر من الأول وتشد شعرها، يا إلهي فكرت في نفسي ما هذا الذي جرى أيضاً.

وبإختصار تابع العجوز چاويش حديثه وهو يسعل سعالاً مديداً وجافاً، حلت بنا المأساة والمصيبة. وأمست تلك الأيام ليالي مُظلمة فوالدتي المسكينة التي إستسلمت نوعياً للأمر الواقع، فقدت شعورها، وعلى حين غرة بدأت تحس بالوحشة غير شاعرة بكل ما حولها، فلا حركة بسيطة ولا كلمة واحدة تخرج منها أما أنا فلم أتحدث إليها، خوفاً من أن ذلك سيجرحها بشكل أكبر أما عن غزال فلا أعرف ماذا أقول:

ففي الليالي كانت تذرِف الدموع باستمرار في وسادتها وتنشج بصوت مسموع وخذشت خدودها واصابعها شحوب غريب، فكانت تشبه الموتى. كما قطع الجيران علاقاتهم بنا، كما لو أجتاح دارنا مرض الطاعون، خوفاً من إنتقال العدوى إليهم وفي هذا الوضع المُضجر تقوَّعت على نفسي، ران صمت قاتل على دارنا، لم يرغب أحد متاً أن يكون بادئاً في خرق هذا الصمت الثقيل.

ولكن في صباح ذات يوم راحت الوالدة، نحيلة ومتقوسّة، تطلق

الماشية من الحظيرة صامته، ثم بدأت تضع الطحين من الكيس في الطشت، وبعد أن عجنت وتفوهت بكلمات غير مفهومة، خرجت بعد أن صفتت وراءها الباب بقوة.

مضى بعض الوقت، فجأة، هرعت والدتي وهي تلهث متلعثمة:

- ليعميني الرب، لقد إبتلينا بمصيبة أخرى تمّ إعتقال أبناء قريتنا، إعتقلوا كل من العم عمريك والعم ممو ونيغو وأقتادوهم، كما يُقال، إلى دوتاخ<sup>(1)</sup> مثل أبيك والله وحده يعلم ما إذا كانوا سيطلقون سراحهم أم لا...

بعد أن عرفت الوالدة بأن المصيبة لم تحلّ بها وحدها، أتابها رغبة كبيرة في تلطيف غضبها وتوجّهت إليّ بحنان الأمومة قائلة:

- أنهض يا بني، حضر نفسك للسفر مع الآخرين ريثما أخبز وأحمل شيئاً من الطعام إلى والدك، أنهض يا بني، لا وقت الآن لذرف الدموع، ثم توجهت إلى غزال وقالت لها بلطف أيضاً:

- أما أنت يا إبتتي لا تكدرينا وتثبطي همتنا كئلي شيئاً ما، أن ما حدث، هو قدرنا فلنسلم أمورنا إلى الرب الأعلى.

ولو أن الوالدة حملت إلينا نبأ مرأاً، إلا أن مشاطرتها لنا بالحديث هداً من روعنا، لقد تنفسنا أنا وغزال الصعداء.

بينما كنت أجهز نفسي، كانت الأم تنتهي من طهي الطعام وبعد أن أكلت شيئاً ما على عجل، أمسكتُ بيدي الصرّة الحاوية على طعام الوالد (1) مدينة صغيرة في تركيا بالقرب من بحيرة وان.

وما أن استأذنتهم وهممت بالخروج للإضمام إلى بقية شباب القرية، حتى زعقت غزال على حين غرة ورمت بنفسها على عنقي.

- هل تفهم أيها الأبله مع من تريد السفر؟ قالت مستعجلة ثم ألقت نظرة مُحذقة على والدتي جاءت كلماتها كالصاعقة على رأس الوالدة التي أدركت مغزى قول غزال فقد غاب عن ذهن الوالدة تماماً أن فعلة غزال التي رفضت الزواج من علي ابن عمريك بولات، قد يؤدي إلى حدوث مشاجرة في الطريق بيننا وبالتأكيد، فأن عائلة عمريك سوف لن تُفلت من يدها هذه الفرصة السانحة لهم لتصفية حساباتها معي.

بعدها تذكّرت أمي ذلك، وألقت بنفسها عليّ وهي تندب:

آه كم أنا مخبولة! ما هذا الذي يحدث معي، كدت أن أقتل ولدي بيدي، فليُعمني الرب!... لم تنته بعد من إتمام كلامها، حتى خطفت الصرّة من يدي.

- مهلاً يا أماه! سوف لن يحدث سوء، ومن ثم الناس، يا أمي وأقوالهم؟ سوف يسخرون مني أيتها الوالدة، يا للعار ثوبي إلى رشدك يا أماه، حاولت إنتزاع الصرّة من يديها.

- لا وألف لا يا إبني العزيز، فديتك بنفسني، إسمع أمك العجوز. فليس عبثاً يُقال: أن الله مع المُسالمين لن اتخلى عنك، دعني إذهب معهم، قالت الوالدة بلهجة صارمة، سوف لن يمسوني بأذى.

- أنه لأمر مُخجل، أن تبدأ امرأة بالسفر ليلاً وولدها سليم ومُعافى

جالس في البيت. وقتها طُعنَت رجولتي من الصميم، هكذا قال  
چاويش.

نظرت الوالدة إليّ بإستغراب، توقفت قليلاً ثم تابعت:  
أنتظرنني هنا، سأعود على عجل ثم خرجت لكن دون أن نعرف إلى أين.  
أتنا بنا أنا وغزال الذهول وأخذنا نحملق إلى بعضنا البعض منتظرين  
عودة الوالدة وسرعان ما رجعت الوالدة، وحينما دخلت، لاحت على  
وجهها ابتسامة عريضة ولأول مرة وخلال هذه الفترة دنت من غزال  
وأنهالت عليها بالقبلات.

- فديتك بنفسي يا بارعة الذكاء، قالت الوالدة فلو لم تحذرنا في  
الوقت المناسب، لكانت قد حلت بنا المصيبة ويكفيننا ما أبتلانا  
به الرب من مصائب.

ثم توجهت إلي قائلة:

أما أنت فلا ترتبك خجلاً ففي هذه الليلة سوف لن يخرج أحد من  
القرية لقد اقنعتُ الجميع بتأجيل السفر بحجة تأخر الوقت فالصباح  
رباح، ربما نجد حلاً.

أمي، تمتلكها سعادة غريبة أما أنا، فلا إخفاء سخطي، صعدت إلى  
سطح الدار، ريثما أهدأ قليلاً. وبغته ومن وجهة وادي (كوتو)، لمحت  
شخصاً ينهب الأرض نهباً، مُندفعاً بقوة نحو القرية، وكلما إقترَب، برزت  
واضحة ملامح الفارس القادم وفي هذه الأثناء كانت القرية بأكملها واقفة  
فوق سطوح البيوت، تنتظر وصول الفارس بفارغ الصبر، كان يشغل بال  
الجميع، سؤال وحيد: هل يحمل هذا الفارس إلينا خبراً ساراً؟.

دخل الفارس إلى القرية على جناح السرعة، وأوقف حصانه الذي كان يتصبب عرقاً أمام دار عمريك.

- أنه خادم حسن آغا هتف أحدهم من سطح داره، أنه غويو.

- خادم حسن آغا؟- سأل عدد من الكهلة، بادياً عليهم شعور من القلق والدهشة.

- وماذا يُريد؟

- عسى خيراً؟.....

وبعد أن نزل الناس من سطوح المنازل، توجهوا ببطء نحو دار عمريك، وكأنه كان ينتظرهم هناك حفلة للعشاق الشعيين.

بعد ذلك خرج من دار عمريك مختار القرية وأمر بحضور أقارب جميع المعتقلين. وتوجه إلى هناك كذلك عمي المرحوم شغو، شقيق ابي لم يُدرك الناس، عن ماذا كان يدور الحديث داخل البيت، بل إكتفوا بإعطاء توقعاتهم وتكهاناتهم وهم يحملون بعضهم ببعض لكن غويو لم يخرج من الدار إلا في ساعة متأخرة من الليل ودّع الحاضرين بلباقة ثم أمتطى صهوة جواده وأطلق مُسرعاً في نفس الإتجاه من حيث أتى.

ثم خرجت البقية الباقية من منزل عمريك، وأرتسمت على وجوه الجميع أمارات الحزن والهموم ودون أن يلفتوا النظر إلى حشد أبناء القرية المتجمع، ذهب كل منهم إلى داره مطأطى الرأس كان يصعب علينا معرفة الظهور المفاجيء لغويو ومن ثم إختفائه، لكننا كنا ندرك جيداً بأن حسن آغا لن يرسل رسله هكذا ببساطة وعلى هذا، ذهب كل منا إلى داره.

وفي تلك الليلة بالذات مرّ علينا العم شفوٍ استدعى الوالدة جانباً، ثم تبادلنا حديثاً خفيفاً بهمس، ثم إختفى أيضاً بنفس السرعة وبعد خروجه، تقدّمت الوالدة بصمت نحو ستير<sup>(1)</sup> وسحبت من تحته صندوقاً قديماً مجرجرة أياه إلى الموقد، حيث كان ثمة نور يومض، فتحت غطاء الصندوق ثم راحت تفتش عن شيء في الصندوق وسرعان ما أخرجت كوفية- غطاء رأس- كانت بحوزتها منذ أن كانت شابة وأخذت تنتزع منها قطعاً ذهبية واحدة تلو الأخرى.

فمنذ دقائق معدودات كانت الكوفية التي حملتها الوالدة في يدها ذات قيمة عالية، أما الآن فلم تبق سوى قطعة قماش عادية كان من الممكن رميها لكن الوالدة ثنتها بعناية، وتأوّهت متحسرة، ثم أعادتها إلى الصندوق ثم لفت النقود في صرّة بعد أن عدّتها وتوجهت الى الباب بصمت.

- سأعود حالاً، قالت ذلك بصوت خافت ثم صفقت من ورائها الباب.

أصابتنا أنا وغزال الحيرة هنيهة، لكنني سرعان ما أدركت سبب إحتياج الوالدة إلى الذهب.

أراهن على قطع رأسي، أن لم يكونوا قد حملوا فدية إلى حسن آغا، لقاء إطلاق سراح المعتقلين، قلت ذلك بسرعة، وحدجتُ غزال، منتظراً رأيها في الموضوع.

(1) ستير او ستيرك (sterik): هو مكان مقدس في غرفة داخل كل بيت ايزيدي مازال موجوداً لدى بعض بيوت رجال الدين او المؤمنين ويوضع فيه اشياء مقدسة كالبرات والخواتيم ويوقد له سراجاً مساء كل اربعاء وجمعة.

وهنا فاضت شجونها، وترقرقت عيناها بالدموع، وردّت مُنتحبة،  
دافنة رأسها في صدري أخذتُ أهدؤها ثم خرجت إلى الفناء.

أقبل ليل هادىء وبارد ليحل محل اليوم المنصرم، أصابني الظلمة  
بغشاوة خيم سكون ثقيل على القرية، ولم يكن هناك ضوءاء وصخب  
وطنين وفجأة، وفي الظلام، ومن جهة الممر الذي كان يفصل بيتنا عن  
دار العموشفو، تناهى إلى سمعي وبشكل واضح صوت أمي وهي تقول:  
- هذا كل ما أملكه شفو قالت ذلك لعمي، ثم أضافت قائلة:

ليس لديّ قرش واحد غير هذا، كل أملي فيك، ساعدني إذا استطعت،  
سأبتهل بالدعاء لأجلك ولإبنك ليل نهار لن أنسى مساعدتك ابداً.

- حسناً، لا تتوسلي هكذا، سنفعل شيئاً ما، هدا العم من روعها ثم أضاف:

عودي إلى الشباب، يكفي ما حلّ بهم... فما ذنبهم؟ إذهي إلى  
العروس وهدي من روعها، فقد أصابها شحوب الموتى حسناً يجب أن  
أذهب، صباحاً عليّ أن أكون عند حسن آغا.

- لا بأس، ردّت الوالدة ثم وشوشت في إذنه عن شيء ما ولكن لا  
يغيب عن بالك أن تحدثه عن نواياهم أخبره أنهم يدعون إلى أخذ  
ثأرهم من إبنني باختصار أنت تعرف ماذا تحكي له.

- حسناً، قال العم شفو ثم إتجّه إلى داره.

رحت أدخل الدار بهدوء وكأن شيئاً لم يحدث، وأخذت اجلس  
بالقرب من التنور الذي أخذ ينطفئ باعثاً في نفس الوقت بالدفء  
اللطيف.

أنتابني شعور بالخجل والألم، والأسى يملأ قلبي وما هي سوى لحظات، حتى أنفتح الباب بهدوء وظهرت الوالدة على عتبة.

ألقت نظرة خاطفة عليّ وعلى غزال وقد أستبد بها القلق وهتفت فرحة:

- يا إلهي! فليعمني الرب لقد أهملتكما كلياً، من المؤكد أنكما لم تتناولان العشاء بعد!. لماذا لم تدبرا أمر طعامكما بأنفسكما؟، ساحضر لكما العشاء حالاً لقد أهملتما نفسيكما كلياً.

وكعادتها بدأت تققع تحت يدها الأواني ودون أن ترفع حاجبيها تابعت قائلة:

- كل شيء على ما يرام، سنتدبر الدقيق أن الله كريم يا بنتي، توجهت بكلامها إلى غزال، وسنرى عمك قريباً ثم توجهت إليّ وقالت:

أما أنت يا بني فديتك بنفسي، كن حذراً وعاقلاً فيما لو حاول أحد ما إستفزازك، عليك أن تتمالك نفسك وتتجنب طريقهم، وأنت نفسك على دراية بعادتنا ناهيك عن أن غزال كانت مخطوبة من قبلهم وعليك أن تظل بمنأى عن الجدل حول روسيا وهذا ما لا يُحمد عقباه.

- هل حصل مكروه؟ هنا قاطعتها.

- أمر تافه. ببساطة فالشرح الزائد غير مُفيد، أجابت الوالدة بإقتضاب، مكتفية بهذا القدر من الجواب.

لقد أصغيت إلى ما دار بين الوالدة وعمي حول الأخذ بالثأر، وأن زواجي من غزال لن يهدأ من روع اقارب علي فعلى ما يظهر، كانوا

ينتظرون اللحظة المناسبة للانتقام مني . حسناً، كما تريدان، أجبنا بذلك  
للوالدة مغتاضاً، ودون أن أتناول طعام العشاء، إستلقيت للنوم، حيث  
إستبد بي القلق.

سكت العجوز چاويش ونكّس رأسه الذي خطه وجلته الشيب  
كثيراً وهو يسترجع تلك الذكريات والأيام الحزينة، جلس من غير حراك،  
وركز بصره على نقطة في الأعلى وبدا التأثير على وجهه عندما أنتصب  
أمام مخيلته ذكريات الماضي وهازاً بيده اليسرى عدة مرات وكأنه يطرد  
الأفكار البعيدة من ذهنه.

يا إلهي، الحياة مليئة بالأحداث، قال ذلك العم چاويش بعد صمت  
طويل، وهو في حالة بين الصحو والمناماً ما تبقى يا بني فسأقصه  
عليك غداً.

## مصيبة وراء مصيبة

في صبيحة اليوم التالي، تابع العجوز جياويش قصته، قائلاً: تعالي الضجيج في القرية كطين خلية النحل إشتعلت إلإشاعات بأن إبنى عمريك نيغو وممو خرآ ليلاً ولم يعودا حتى اللحظة كانت الآراء متضاربة بهذا الصدد وبالحيقة، أخذ الناس يثرون ففي منتصف النهار تعالي الضجيج في القرية، في مكان ما كان يُسمع نباح الكلاب، وتناهى إلى سمعنا أصوات مفزعة ومضطربة، رحى أنهض من السرير.

- إسمعِ يا أمي؟. ناديتها، أليس العساكر في القرية؟، سوف لن يرحمونا... أنهضوا بسرعة، يجب الهروب.

- لم تفوه والدتي بنت شفة هرعت إلى سريرها وبدأت أحركها.

- لم لا تجيبيني؟ سألتها باضطراب.

- أعتقد أنه قد عاد فرساننا علي ونيغو وبادو، قالت الوالدة.

- هل تعرفين أن الأتراك سينتقمون منا شرّ إنتقام، فيما إذا عرفوا بذلك؟ أنهم يستعدون لإعتقالهم.

حاولت الوالدة إخفاء قلقها ثم قالت:

- أن الله في عوننا، كل شيء سيكون على ما يرام.

جلست المسكينة غزال وقد تملكها الرعب كان خوفها من عودة علي لا يقل أبداً عن ظهور الأتراك، لقد قرأت أفكارها وفي الفناء بدأ كلبنا ينبح بشدة وشراسة لقد تجمدنا في أماكننا، لكن كل شيء بدأ هادئاً جفّ لساننا هلعاً، ولتصق بسقف حلو قنا بذلت جهدي للسيطرة على إنفعالي لتهدئة الوالدة وغزال، لكن دون جدوى.

إستحال علينا النوم طوال الليل، كنت لا أكف عن سؤال نفسي، بأن المعركة لأمتاص منها بيني وبين علي، أصابتني الحيرة كان الجلوس في البيت يعتبر جنناً وطعناً لرجولتي وهذا موت بحد ذاته في حين كان للخروج من الدار والمواجهة عواقبها ايضاً لقد شغلتنى هذه الأفكار مثل العظمة في البلعوم.

وفي الصباح بدت الوالدة وغزال شاحبتين وأدركت من عيونهما بأنهما لم يناما طوال الليل، حيث أخذتا تنحبان وتندبان حظهما المنكود بصمت في الخفاء بعيداً عن أنظار الناس هرولت الوالدة خارجة من البيت، أخذت بنفسها البقرة وساققتها مع القطيع كان هذا من واجباتي لقد سبقتني الوالدة، وشعرت بشيء من الخجل وعدم الارتياح.

إستيقظت القرية رويداً رويداً ولم يعكر صفو الهدوء الصباحي سوى حوار الأبقار احياناً و احياناً أخرى نهيق الحمير كانت الشمس تضيء بنور ساطع وتلمس بلفحات البرد الصباحية الوجوه بلطف من خلال مداخن البيوت كنت أستعد لتناول طعام الفطور عندما وقع بصري على كوجو ابن قريتي الذي مدّ رأسه من النافذة وبدأ يخاطبني:

- أسمع؟ يا چاويش، إخرج لدقيقة.

أنتفضت واقفاً حاولت غزال إعتراض سبيلي لكنني دفعتها وخرجت آه يا أخي قالها چاويش، ما جرى معي لا اتناه حتى للعدو كان يقف مباشرة على الباب علي مع صديقه نيغو وبادو وما أن تخطيت عتبة الباب، حتى هجموا عليّ كالذئاب الجائعة المنقضة على الأغنام طر حوني أرضاً وأنهالوا عليّ بالضرب بشراسة، ولما ثبتُ إلى رُشدي وجدت نفسي في الفراش وجسمي مليء بالخدوش والرضوض وشعرت بألم فظيع لا يطاق في جميع أنحاء جسمي.

وقف أحد الجيران فوق رأسي وهو يُطلق سيلاً من الشتائم على عمريك وأبنائه، أما غزال فقد جلست في الزاوية تنتحب بهدوء وهي ليست بحيّة ولا ميّنة أما الوالدة فقد إستجمعت قواها وكانت الوحيدة التي حبست دموعها من غير أن تولول أو تشّد شعرها.

بل رمقتني بدلال ثم إبتسمت وأخذت تُمسّد شعري وقالت بصوت هادئ:

- الحمد لله يا بني، أن أنتهي الأمر بهذا الشكل، فداك نفسي.

قفل الجيران عائدين إلى بيوتهم، أما الوالدة وغزال فقد أنصرفتا في شغف إلى أمور البيت وعلى حين غرة، يُفتح الباب على مصراعيه ويدخل تمو إبن عم علي:

- جهزوا أنفسكم، فالأحصنة جاهزة، قال ذلك تمو بإقتضاب ثم خرج.

- ما هذا الذي أراه؟ توجهت بسؤال إلى الوالدة وقد اعتراني السخط والغضب لدى رؤيتي لقريب هذا القدر علي.

- لماذا تتعاملين مع أقرباء هذا الكلب المُنحط؟.

- أنهض يا بني، يجب السفر- لم ترد الوالدة على سؤالي - فلتحاسبه السلطات، أما أنا فسأحاول آغاظتهم جيداً في هذه المرة.

بعد أن ألبسوني ثيابي الملطخة ببقع الدم والممزقة في بعض الأماكن، ساعدتني الوالدة وغزال على أمتطاء صهوة الجواد.

كان قلبي يعتصر ألماً وثارت ثائرتي على أنني لن أثار بنفسي من عدوي، بل أتوجه كأمرأة إلى السلطات لتقديم الشكوى عليه ومع هذا، كان من الغريب، أن أحداً من الجيران لم يحاول إقناعنا بالعدول عن هذا العمل غير اللائق بل بالعكس فقد شجع الجميع تعميق الخلاف بيننا ومما أثار دهشتي بشكل كبير هو ما قام به هذا السافل بادو الذي كاد أن يقتلني تعلقاً بأمي وأخذ يهمس معها بوجل وبلهجة مشفوعة بالأمل عن شيء ما أما هي فأجابته طائعة بأيماءة من رأسها دلت على الإيجاب والموافقه.

لقد فقدت هذه المرأة صوابها، فكرت بذلك غيظاً، كاد أن يرسلني هذا السافل إلى العالم الآخر، أما هي فتتهامس معه بلطف أنتابني شعور بالمرارة والعار والغضب حينئذٍ أنتزعت خنجري وهجمت على بادو لإجتزاز رقبتة، لكن والدتي إستدارت بحصانها بحدّة ووقفت بيننا.

- إبتعدي يا ماما- قلت بأمتعاض- أنه لأمر مضحك، فمن جهة تقديم عليهم الشكوى ومن جهة أخرى تجاملينهم، ثم اضفت بلهجة حادة، أن كان رجلاً وابن أبيه فليدخل الآن معي في قتال منفرد.

أمعنت الوالدة في النظر، ثم قالت:

- يجب أن تتحلى بالصبر وطول البال، نفذ ما يُقال لك ألا ينقصنا شيء إلا الدماء؟ لقد ارتكب خصمك خطيئة، فلا داعي أن تقع أنت فيها أيضاً وما أن أنتهت من لفظ هذه الكلمات حتى همزت حصانها مُسرعة.

ولما بلغنا إلى دوتاخ كانت الشمس قد مالت نحو الغروب وحالما وصلنا إلى مدخل قسم الشرطة تركنا الأحصنة في المرَبط بعد أن أعطيناها شيئاً من القش خرج عمي من القسم، حيث سبقنا في المجيء إلى هنا بغية الإتفاق مع الوالي حول إطلاق سراح والدي وحالما لاحظ خدوشي وكدماتي، ضرب كفأ بكف وصرخ:

- يا له من تعيس، يا إلهي، ماذا فعلوا به؟

ثم تحدّث مُطولاً مع الوالدة عن شيء ما، كان منظرهما جدياً ثم إقترب عمي مني ومن غزال وقال:

أن الوالي سيحقق معكم بمكر لا داعي للقلق، ابسطا أمامه مضمون شكواكما ولا تتراجعا عن آرائكما إطلبنا منه معاقبة هؤلاء المجرمين وإذا سألكما عن مسائل أخرى فإلتزما الصمت ولا داعي، البتة للتحدث في مواضيع أخرى مفهوم؟ وإلا سنخسر المعركة أمرنا العم شفو بلهجة صارمة.

لم أكن مغفلاً، أدركت فوراً مغزى حديث العم شفو ألقيت نظرة على غزال، وقرأت كلاً من أفكار الأخر.

تخطينا عتبة الغرفة التي جلس فيها الوالي، حيث كان ينفث غليوناً

ويتدلى على جانبه سيف طويل ويقتعد كرسياً متكئاً على مرفق ويتحدث مع شخص عن موضوع ما.

وفور وقوع بصره علينا أمرنا الوالي قائلاً: تقدموا إلى هنا.

- سمعاً وطاعة أيها الباشا، أنحت الوالدة إنحناءً شديدة على ما يبدو كان الوالي في مزاج حسن.

- حدثيني عن كل ما جرى، توجه الوالي إلى والدتيبالسؤال؟.

- أن كنتي لا ذنب لها قطعاً يا باشا- بدأت الوالدة حديثها- لقد كانت تهوى إبني، لذا رفضت الزواج من علي ابن عمريك لقد تخطت عتبة دارنا بمحض أرائتها وأصبحت زوجة لإبني.

- أين كان علي آنذاك؟ سألها الباشا في سياق الحديث.

- الكافر؟ كان موجوداً في القرية.

- تقولين في القرية إذن؟ سألها الوالي بمكر، ثم أردف قائلاً:

حسناً وما الذي حدث بعد ذلك؟.

- بعد ذلك، قام علي هذا الوغد السافل وأصدقائه بمطاردة إبني وزوجي من المذنب فيما حدث؟ فعروستنا جاءت إلينا من تلقاء نفسها لمنع إراقة الدماء أما هؤلاء المجرمون فقد إنتقموا من إبني شر إنتقام.

- تقولين المجرمون إذن؟ ربما كانوا حينئذ عند الروس؟ سألها الوالي فجأة، مُحدقاً بنظرات ثابتة إلى وجه الوالدة.

- وما علاقة الروس بالموضوع، أجابت الوالدة بالنفي مُتظاهرة بأنها لاتعرف شيئاً من هذا القبيل.

لقد إختفى هؤلاء المجرمون في كهف قريب من القرية، مُنتظرين الفرصة المناسبة للإنقضاض أما على إبني أو على زوجي كان ذلك مدعاة للقلق في نفوسنا لذا لم أترك إبني خطوة واحدة بعيداً عني، وبعد إعتقال زوجي، إستغل هؤلاء الأوباش فرصة خلو المنزل من الرجال فأنهالوا على إبني بالضرب المُبرح وتركوه نصف مقتول، قالت ذلك الوالدة ذارفة دموعها ومُشيرة بيدها إلى خدوش ورضوض وجهي ثم أضافت:

أطالب السلطات بإعتقال المجرمين وأنزال العقوبة بهم وفق شريعة الاسلام بغية منعهم مستقبلاً من القيام بعمل آخر ضد إبني بشكل خاص وعائلتنا بشكل عام، ثم حدّقت إلى الوالي مُنتظرة الرد.

- حسناً، ردّ الوالي بايجاب وكالصياد المُنقض على فريسته أخذ يتنقل على ورقة إ confessions والذتي.

وبما أن والذتي كانت أمية أخذ الوالي يقدم إليها الحبر واضعاً بصماتها على الورقة حيث سجلت عليها إ confessions.

بعد ذلك توجه الوالي إليّ، حيث كررت له كلمة كلمة من إ confessions الوالدة، ثم أضفت في الختام بنفاذ الصبر:

- لم تقل أمي إلا الحقيقة، فبيننا عداوة ولا شيء قادر الآن على مصالحتنا فهؤلاء الأوغاد، كانوا يراقبون القرية، ليلاً ونهاراً، مُنتظرين اللحظة المناسبة وعندما علموا بغياب والذتي وعمي سحبنوني من البيت خدعة وأنهالوا عليّ بالضرب بأن رجائي الوحيد هو أن تعير لشكوانا إهتماماً أما ما يخصهما- أشرت إلى غزال- فإنها أختارت لنفسها زوجاً، ولا يعقل أن تعدم بسبب ذلك.

- هل يقول زوجك الحقيقة؟ توجه الوالي بسؤاله هذه المرة إلى غزال.  
فتوردتا وجنتا غزال خجلاً وأسبلت جفونها، هامسة في إذن والدتي  
عرف الوالي أنه حسب العادات والأعراف الكردية لا يحق لفتاة شابة  
التكلم بصوت عال أمام الغرباء.

كررت الوالدة للوالي كلمات غزال:

- أنها تقول بأن كل ما قيل صحيح وأنها لطخت إسمها بنفسها وأن  
اقتضت الضرورة فهي المسؤولة أمام القضاء، عن كل ما حدث، في  
حين لا ذنب لعائلة حميها قطعاً.

- ولكن حسب الإدعاءات فإن هؤلاء كانوا في روسيا؟ قال الوالي ذلك  
وهو يُمعن النظر في وجه غزال، أملاً أن يلاحظ على محياها علامة  
من علامات الإرتباك.

أجابت الأم عنها من جديد:

- أية روسيا هذه؟ أه لو كانوا فعلاً قد سافروا إلى هناك، ومكثوا فيها،  
لما كنا الآن أمامكم، ولما كان زوجي يتعرّض للضرب.

في هذه اللحظة، دخل الغرفة جندي ذو لحية شقراء وتوجه إلى  
الوالي باللغة التركية قائلاً:

- وردنا أمر رميهم بالرصاص، كان الحديث يدور حول المعتقلين،  
والدي وعمريك ووالد بادو ممو.

جاءت هذه الكلمات كالصاعقة على رأس الوالدة حيث كادت أن  
تفقد صوابها، لكنها تماكنت أعصابها وأخذت تتوسل إلى الوالي قائلة:

- أيها السيد الكريم إغفر لهم فما ذنب هؤلاء الشيوخ المساكين؟ وهي  
تمسح دموعها.

- آه من أمركم أنتم الأيزيديين، الإيزيديين - هزّ الوالي رأسه - تبصقون  
في بثركم بأنفسكم ويصعب عليّ تشخيصكم هل فعلاً أنتم على  
هذا القدر من البساطة، أم أنكم تتظاهرون بالحمق اللعنة وليكن  
بعلمكم، فقد أخبرونا من عشيرتكم بالذات، بأن هؤلاء الثلاثة قد  
عبروا حدود روسيا، لكي يطلبوا من أولئك الكفار الملاعين السماح  
لهم بالانتقال إلى أراضيهم ويُقال، أن زوجك وإبنك مشتركان في  
هذه العملية، أو على الأقل، كانا على علم تام بهذه المهمة لذا فأن  
زوجك سيُحجز عندنا في الزنزانة وسيُعدم مع الجميع، أما الأبطال  
الثلاثة الآخرون فينتظرهم نفس المصير.

- ماذا يعني كل ذلك؟ سألت أمي المسكينة الوالي مُستغربة.

- هذا يعني، أجابها الوالي مُبتسماً:

- أن كل واحد سيُحاسب على اعماله، وأن تغيير الأمر ليس من  
صلاحياتي، أنه وردنا من سلطات أعلى، وأنا مُلزم بتنفيذه كما هو  
وقد تمّ إبلاغ السجناء بذلك.

قال الوالي ذلك بصرامة كما لو أنه يحمل في صدره حجراً بدلاً من  
القلب ويجري الماء في عروقه بدلاً من الدم.

شحننا آذاننا للإصغاء إلى الوالي وكأنا لسنا بأحياء ولا بأموات،  
وكان شخصاً ما غرس خنجراً في قلوبنا حنقاً وغضباً أما الوالدة فقد

بدأت تبكي في دخيلة نفسها على الوالد، لكنها عندما ألقت نظرة عليّ أدركت على الفور بأنني أستطيع التصرف بحماقة وذلك بالإعتراف في لحظة غضب بكل شيء كما حدث.

حينئذٍ حدّقت إليّ بنظرة حادّة وقالت:

- ما بك يا عزيزي؟ عدُ إلى رُشدك، فالله رحيم سوف يشملنا بعطفه.

لقد جننا هنا لنطلب من الوالي الكريم الدفاع عنّا وحمايتنا، ولو إقتضى الأمر فسأسافر حتى إلى إسطنبول وإلى رشيد باشا بالذات، لا بد أن يأخذ العدل مجراه ويُحاكم هؤلاء الكفار لا تقلق يا عزيزي أنهم يسيئون التقدير في أمكانيات والدتك، فإذا كانوا يعتقدون بأنها ستترك عائلتها في المحنة، فإنهم مخطئون، سوف لن أترك حجراً على حجر، أما طلبي فسأحققه أثر عليّ كلام والدتي وعدت إلى رُشدي.

- حين اللزوم تتحولون إلى حمام زاجل، إلا أن أنظاركم متوجهة فقط نحو روسيا، قال الوالي وأخذ يُلقي علينا نظرة بعينيه الصغيرتين المحتقتين غضباً.

- أية روسيا هذه يا أبانا، بدأت أمي حديثها بلطف، أية ثروة تركناها هناك؟ الشكر لله فدولة إسلام تزدهر، لدينا كل شيء، الخبز والزبدة والمواشي، نعيش والحمد لله ولا نتذمر، هنا ولدنا وهنا سنموت.

أن رجائي الوحيد هو أن يُعار لشكوانا إهتمام، فهؤلاء اللصوص يستطيعون إلحاق الأذى بنا أكثر من الأول، وإرحم هؤلاء المُسنين: هل

يا ترى سيعيشون طويلاً في الدنيا، لا ذنب لهم أبداً أقسم لك بشعري  
الاشيب.. لا تقتلهم يا حاميها.

إلتزم الوالي بأهداب الصمت مُستغرقاً في التفكير ثم أخذ بيده  
جرساً بدأ يلوح به، حيث جاء فرد من الجندرمة فوراً، حينئذٍ أمره  
الوالي بجلب الماء.

عاد الجندرمة ويده طاس كبير من الماء، شربه الوالي بينهم، وما تبقى  
من الماء بلل بها منديلاً مسح به عنقه الممّرق، لقد تعرفت على منديل  
والدتي، وعرفت فيما بعد من أمي، بأن هذا المنديل قد سلمه عمي إلى  
الوالي، حيث كان يضم ذهباً بصفة رشوة، وعندما أخرج الوالي المنديل  
فأنه أعطى بذلك إشارة إلى والدتي بأنه قد قبل الهدية وتمّ الإتفاق، حينها  
تنفست والدتي الصعداء.

- هل هناك طلبات أخرى؟ توجه الوالي إلى الوالدة.

- سلمك الله! ودمتم حياً إلى أبد الأبدين، أن طلبي الأخير إليكم هو  
أن تطلق سراح هؤلاء العجزة المساكين أفديك بنفسي، لا بد أن  
الخوف قد أهلكهم الآن أما هؤلاء اللصوص - الشباب الثلاث -  
فعاقبهم لكي لا يمسوا إبني وعروسته بأذى، وأخبرهم بأننا سنعيد  
إليهم جميع الهدايا والمهر، الذي قدموه إلى والديها، ومن الممكن  
حلّ كل الخلافات سلمياً.

وهنا دخل ذلك الجندي الأشقر وسلم ورقة ما إلى الوالي، قرأها  
الوالي مُطولاً وبأمعان ثم نظر إلى أمي بتملق وقال:

- كثيراً ما سمعت عن شجاعة المرأة الكردية واليوم فقط تأكدت بأم عيني من ذلك، أريد أن أبلغك خبراً ساراً: لقد أصدرت الحكومة الاسلامية عفواً لزوجك وللمعتقلين الآخرين، فبإمكانك العودة إلى البيت مطمئنة، أما هؤلاء اللصوص فقد أصدرت أمراً بإعتقالهم. كدنا أن نفقد النطق فرحاً، ركعت الوالدة على ركبتها أمام قدمي الوالي وأمسكت بيده وصارت تقبلها وهي تقول:

- أشكركم بالغ الشكر يا والينا! ليحفظك الرب من المصائب والشروع، ثم خرجنا من مركز الجندرمة فرحين ومطمئنين.

في غرفتي بعدما قطع العم چاويش تكملة القصة سيطر عليّ النعاس بعد هذا الحديث الشيق الذي يحمل كم هائل من الذكريات والقصص التي رواها وجلست افكر بذاك الزمن ومعاناته، وكانت رغبتني في أن أكمل ماحدث بعد عودتهم إلى القرية فباغتني العم چاويش بالسؤال:

- ألم تنم بعد يا بني؟ تناهى إلى سمعي صوت العجوز چاويش وأطل بشعره الأشيب من الباب.

- لا يأتيني النوم.

- بين تارة وأخرى كنت أرى ثمة نوراً يومض في غرفتك، طفقت أفكر في نفسي لا تفقدك أضاف العجوز مقدماً إعتذاره مسبقاً، وها قد جلبت معي قليلاً من الشاي على كل حال.

كان يحمل بيده إبريقاً نحاسياً ضخماً، وأخرج من جيبه كوبين مضلعين أن مجيء چاويش أدخل السرور إلى قلبي وحقيقة لم يأتي النوم في حين كنت أتمكن من سماع قصصه بلا نهاية.

- في تلك الليلة، بدأ العجوز چاويش حديثه بدون مقدمات، وهو يرتشف الشاي الساخن، أقفلنا عائدين إلى القرية كان عددنا قد وصل إلى سبعة اشخاص: الوالدة والوالد، العم عمريك والعم نيغو والعم ممو وأنا وغزال، وصلنا القرية قبل أن يصبح أولى الديكة، أنتظر اهل القرية عودتنا بفارغ الصبر، وما أن رأونا حتى هرعوا إلى إستقبالنا مُقدمين لنا التهاني، وهنا سألتنا أحدهم كان متواجداً بين الحشد:

وأين علي وبادو ونيغو؟.

- سيتم إطلاق سراحهم قريباً، قال الوالي لنا بأنه سيخوفهم قليلاً لمنعهم من التحرش بابني مرة أخرى، سيعودون بين لحظة وأخرى، قالت ذلك والدتي بهدوء وتابعت سيرها.

حلت البهجة محل الحزن في فك أسر المعتقلين، حيث عادوا إلى بيوتهم، وفوراً بدأ الدخان يتصاعد من المواقد، حيث بدأت النسوة بتحضير خبز اللافاش<sup>(1)</sup> ذي النكهة الطيبة ومع حلول الفجر شرع شذى الخبز الطازج يزداد أكثر فأكثر وخلال ساعة وأخرى، كان كل شيء قد جهز وأخذت النسوة من عائلات المعتقلين يرمين عبر فتحات البيوت رغيفاً من اللافاش لكل دار دلالة على أن الرب قد أبدى عطفه وأدخل إلى قلب الحكام الخير والعدالة وأنقذ الشيوخ المساكين من الموت المحتوم.

لكن فرحهم هذا لم يدم طويلاً فقد إعتلت صحة العائدين من المعتقل والتزموا الفراش، لقد ترك الضرب والتعذيب أثره عليهم.

(1) نوع من انواع الخبز.

غالباً ما يكون آثار التعذيب أفظع من هذا- قالت ذلك جارتنا- التي جاءت تزور والدي المريض الذي أن وبان عليه الهذيان فلهؤلاء الوحوش خبرة في ذلك يحرمونهم في البداية من الطعام ثم يشرعون بتعذيبهم لعنة الله عليهم.

ففي العام الماضي جروا المسكين أسو من سجن إلى آخر ثم أعدموه رمياً بالرصاص، حينئذٍ أبلغوا أهله بأنه أنتحر وإتهموه بالجنون.

ثم أخذت تحتضن والدتي من كتفها بلطف قائلة:

- الشكر لله يا عزيزتي، إبتهلوا بالدعاء والصلوات للرب، قدموا أكباشاً قرابين حيث أعاد لكم سيد البيت، سيشفى من مرضه لكنني أقول بجلاء أيتها الجارة فلولا هذه الواقعة مع عروستك لما كنت ترين زوجك حيث كانوا سيتهمونهم بالخيانة.

- نعم، نعم، أيتها الجارة، فأنت مُحقة، فديتها بنفسها فلولا مجيئها إلينا، لقتلوه بالتأكيد، أكدت لها والدتي ذلك.

كنت موجوداً أثناء حديثهم وأبتهجت من أعماق قلبي بأن الوالدة وأخيراً بدأت تعامل غزال بلطف.

لكن ما عكّر صفو غبطتنا هو عدم أيفاء الوالي لوعده بإطلاق سراح الشبان الثلاثة في الصباح، حيث أطلقت النسوة من عائلاتهم العنان لألسنتهم الغاضبة، وهرعت النساء إلى شوارع القرية وتعالى صراخ بكائهن في أفنية البيوت وأخذن باطلاق الشتائم البذيئة والاتهامات القذرة بحقنا وصببن علينا اللعنات، أنظروا فقط إلى هذه الدنيئة عديمة الضمير وعلى عروستها الفاسقة أنها رشّت الوالي وأطلقت سراح

زوجها وأعتقلت بدلاً منه أولادنا، لقد اصابوا بالجنون سوف تدفع الثمن غالباً لو تسقط شعرة واحدة من رؤوس إبنائنا لا نعرف سواها، الموت لأسرتكم اللعينة، أطفأ الله نار موقدكم<sup>(1)</sup>!

مرّ يوم، إثنان.... دون أن يعود المعتقلون الثلاثة، وبدأ أهل القرية رويداً رويداً يثقون بالنمائم والإدعاءات، كما لو أن والدتي ضاربة عرض الحائط برغباتهم، أخبرت الوالي عن رحلة أولئك الشبان إلى الطرف الروسي، وبهذه الطريقة فأنها قد أخذت ثأر إبنها وبدأت القرية تقاطعنا علناً، ووجه أغلبهم أصابع الاتهام نحونا علناً، وحاولنا التقليل من خروجنا إلى الشارع وعلى مضض منا تحملنا الإهانات والمذلات، لا أدري بما كان سينتهي كل ذلك، لولا وقوف أوكيز ممم إلى جانبنا.

- توجه مرة إلى الفلاحين قائلاً لهم:

إخواني كفاكم تنفثون سماً ماذا تريدون من هؤلاء البؤساء، تدنسون شرفهم وكرامتهم ما ذنبهم في إعتقال أولادكم؟ إسمعي يا خالة غاري توجه إلى والدة أحد المعتقلين الثلاثة، أقسم بالله أنهم لم يرتكبوا جرماً ضدك ولا ضد الآخرين، أنكم غير مدركين للأمر جيداً في حين تسترسل في الأحاديث الفارغة لا يفهمها احد فليذهب كل واحد إلى داره، ربما يردنا حتى المساء خبر سار.

كان أوكيز ممم، بالرغم من صغر سنه، يتميز بالحكمة ويحظى بإحترام وتقدير من قبل جميع سكان القرية، ولم يتجرأ أحد على رفض أو أمره، كانوا يثقون بكلامه، فالفضل يعود فقط إليه في أنقاذنا وطيبة سمعتنا.

(1) مثل يضرب لقطع الذرية في العائلة.

لاحق القرية هادئة بعد دفاع أوكيز عنا، أنتظروا ورود أبناء من دوتاخ  
وفي مقدمتهم أنا وغزال.

- أنا المذنبه في كل ما حدث- قالت غزال متألمة- ما قيمة الحياة  
بالنسبة لي بعد ما حدث؟ لم أجلب فقط لنفسي العار بل أسأت إلى  
آخرين، آه، فالنسوة يشتمونني بحق نعم بحق.

أقبل المساء، شيئاً فشيئاً أخذ الناس القلقون يتفرقون شذر مذر،  
غاصت القرية في سكون مطبق لم ينم أحد منا في الأسرة، لقد جلسنا  
في زوايا الغرفة في صمت وكآبة، وعلى حين غرة سمعنا طرق الباب،  
إرتعشت غزال.

من هناك؟ سألت والدتي قلقة.

إفتحي يا اختي وبسرعة، تناهى إلى سمعنا صوت عمي شفو مضطرب  
لاتقلقي هذا أنا وبرفتي زيلغو.

فتحت والدتي الباب ودلف العم شفو مع زوجته إلى الغرفة مسرعاً  
وأخذ عمي يسأل لاهثاً:

- أين العروس؟

- ماذا تريد منها؟ سألته أمي بإستغراب

- وصل حسن آغا إلى القرية ويطلبها.

- حسن آغا؟، صاحت أمي مذعورة، ماذا يريد في مثل هذا الوقت من  
الليل؟ قد..؟، ثم عضت على نواجذها.

- كذا وكذا! يا له من هراء ماذا تقولين بحق الله إلتوت سحنة عمي غضباً، لقد أمرنا الآغا بجلبها، وما باليد حيلة.

أمي المسكينة لم تتجرأ أكثر من ذلك أن تتفوه بنت شفة ارتدت غزال ثياباً عتيقة، وإصطبغ وجهها برماد العار ثم أخذت أمي تدفعها نحو عمي وصفقت الباب وراءهم بصخب:

لقد ثارت ثائرة أمي حينما خرجت عروستها ليلاً، بناء على طلب رجل غريب ودنت غاضبة إلى سرير زوجها المريض.

- ما هذا الضجيج؟ سألتها والدي.

- لقد لحق بنا العار وإلى الأبد أيها الأب، قالت الوالدة، ثم مدّت يدها إلى رأسها وبدأت تزعق:

- آآآه لماذا يُعاقب الرب عباده الطاهرين؟

- اخبريني ما الذي حدث؟ قاطعها والدي بفارغ الصبر.

- لقد إستدعى حسن آغا إليه هذه الفاسقة - غزال

أمعن الوالد النظر فيّ من بين نواجذه:

- زوج جيد، لا ريب في ذلك هنيئاً لك يا بني.

كأن صاعقة ضربتني وتوقف كل شيء من حولي، ودرت بوجهي خجلاً، كان الموت أهون عندي من أن أتحمّل كل هذا.

أخذت الوالدة تصّب اللعنات على زوجتي من دون توقف لن أتذكر كم من الوقت قد مضى، لكنه بدا لي دهوراً من الزمن، عندما طرق بابنا مرة

أخرى أندفعت إلى فتح الباب، كان يقف أمام الباب كل من غزال وعمي وشفو وزوجته.

أندفعت أُمي إلى الباب تماماً كالنمر وصرخت في وجههم عودوا من حيث أتيتم أن النظر إليكم يثير إشمئزازي يا عديمي الحياء.

- ما بك هل أصابك الجنون أيتها العجوز؟ قال عمي شفو ذلك في ذهول، لقد عُدنا بخبر سار، أما هي فقد جنّت فعلاً.

- إترك لنفسك أخبارك السارة، أخذت العروس في منتصف الليل، إرضاءً لهذا التيس العجوز، والآن تتحدث عن خبر سار.

ألقت زيلغو بنفسها إلى الوالدة وأخذت تنهال عليها بالقبلات، هامسة لها عن شيء ما، لكن الوالدة دفعتها إلى الخلف.

- طيبون لا إعتراض في ذلك! إقتنعوا بأكاذيب الآغا، هل أبدى الآغا إرتياحه منكم؟

- ماذا تقول هذه المجنونة؟ صرخ عمي دون أن يمعن الفكر، هل تدركين ماذا تقولين!، لم لا تخجلي من كلامك هذا، فخافي على الأقل من الرب، صرخ عمي على الوالدة نافذاً صبره.

فعلى ما يبدو بدأت أُمي تدرك أخيراً، مغزى حديث عمي، أخذت تتراجع عن موقفها ورمت بنفسها إليه:

- هات ما عندك، أنا إسمعك.

- غداً حُدِّد يوم زفاف إبنك وغزال، وأمعن عمي النظر ليرى مدى تأثير كلامه عليها.

- هل خطر لك أن تمازحني؟

- لا تخرجني من جلدي يا شفو، لم ترغب الوالدة قطعاً في أن تمعن النظر في أقوال عمي

- اكرر لك سنقيم حفلة الزفاف غداً، لقد قلت بلغة بشر مفهومة؟

- عرساً أم إحتفال تأبين؟

- إبتسمت الوالدة بسخرية، أين حدث أن اقيمت حفلة زفاف لأمرأة جاءت بنفسها إلى دار زوجها؟! فالناس يسخرون منا هكذا بما فيه الكفاية.

سيكفون عن السخرية وهذا مُتعلق بك بشكل أساسي، بيّني للجميع إعتزازك وحبك وإعجابك بها، حيثئذٍ سترين هل هناك من سيضحك؟ وما يخص حسن آغا فقد بارك بنفسه وقبّلها من جبينها وقال: لئيسعدك الرب يا إبتني.

- هل قال لها إبتني؟ سألته الوالدة متشككة.

- عساك أن تخجلي من تصرفاتك! تدخلت زيلغو في الحديث أنت امرأة متقدمة في السن وتجرحين هكذا كرامة هذه الإنسانة رغم أنها ليست غريبة عنك بل زوجة إبنك.

وفجأة شرعت أمي بالرقص كالكرة المُنطلقة من اليد، ثم دنت من العم، وقبلته من خديه قائلة: اخبرني عن كل شيء بالترتيب كيف ذهبتم إلى الآغا، وماذا قال لكم؟ إفرحني يا عزيزي.

- أرأيتم كيف بدأت تتفوه - ضحك عمي - كما تشائين، سأتحديث لك عن كل شيء بالتدرّيج، فبعد أن دخلنا عليه أخذ يتقدم إلى غزال ويقبلها في جبينها ويقول:

- ليسعدك الرب يا إبنتي! فلولاك في تلك الساعة المهلكة، لكان قد كتب الهلاك على الأيزيديين، ولم يكن يفوتنا السيف التركي، أن مجيئك إلى دار چاويش وزواجك من إبنه انقذ كل العشيرة من الموت، لهذا السبب أمرتك بالمجيء إلى دار عمريك حماك الأول لكي يسأمحك أمام الجميع ثم نال من جيبه رختاً<sup>(1)</sup>، وعدة قطع ذهبية ووضع كل هذا في يدها قائلاً: هذا هدية مني لعرسك، بعده أخذ عمريك الكلمة، وأخذ هو بدوره يدعوها إليه وبعد أن قبلتها قال لها إبنتي لقد أنقذت العشيرة من سفك الدماء بلغي حماك، دعيهم يتخذون الترتيبات اللازمة للعرس.

إرتبكت أُمي فرحاً، فأخذت تبكي تارة وتضحك تارة، رافق ذلك شعورها بالندم تجاه غزال، بعد أن إستجمعت قواها تقدّمت إلى عروستها عانقتها ثم قبلتها من خديها قائلة:

- فديتك بنفسي يا عروستي لفطنتك وطيبك ولطفك، لقد أدخلت معك السعادة إلى داري، قالت ذلك أُمي وهي تُداعب غزال ثم توجهت إلى العم شفو متسائلة:

- ما الذي حدث بالنسبة لأولئك الشباب الثلاثة - علي ونيغو وبادو؟ أيعقل أن يكون الوالي قد خالف وعده، ففي بيوتهم يسود الحزن ونحن نجهز للعرس.

(1) زينة للنساء يضعنها على صدورهن مصنوع من الفضة.

- لقد أبدى حسن آغا، شكره للوالي - قاطعها العم شفو - ملمحاً إلى أن الوالي قبل الرشوة.

- إذن سيتم إطلاق سراحهم؟ قالت الوالدة متهللة.

- نعم.

- إذا كان الأمر هكذا وكادت الوالدة أن تدفع بنفسها إلى الرقص فرحة وهي تهتف - سنحتفل بزفاف إبني چاويش غداً، أخي الحبيب شفو، قالت الوالدة والقت بنفسها على العم وأنهالت عليه بالقبلات، لك عندي هدية بمناسبة هذا الخبر السار، لكن لا ترفضها بحق أبنائك وبناتك، أرجوك.

وبالرغم من أن العم شفو رفض ذلك مطولاً وبإصرار، إلا أنها نجحت أخيراً في إقناعه وأختارت له من بين قطيعنا كبشين جيدين.

كان الوقت متأخراً، ولحسن حظي لم ينظر العجوز چاويش إلى الساعة ولم يخطر على باله أن يتمنى لي ليلة هائلة بل طفق يتحدث حثيثاً، وزفر بتنهيده ثقيلة ثم تابع يقول: في تلك الليلة، طار النعاس من أجفاننا فرحاً، وهكذا لم ننم طوال الليل.

وأخيراً أقبل النهار وبدأت الشمس تشرق رويداً رويداً من وراء الجبال كعادتها، أخذت باب دارنا يُصفق بين لحظة وأخرى، كان الجيران يدخلون ويخرجون باستمرار وكان الجميع في مزاج عال، وفي عيونهم بريق مسرّة، وكل واحد منهم يحمل بيده في فناء الدار غرضاً ما من لوازم العرس، كان كل شيء في الدار يتحدث عن التحضير للعرس.

أخذت أُمِّي تعجن العجين لخبز اللافاش، لما يكفي لمئة - مائتي شخص - ليست مزحة عملية التحضير للعرس، وما أن أنتهت من عملها حتى أخذت تنادي شاباً من أبناء الجيران وطلبت منه أن يختار من بين القطيع أكثر الأغنام سمناً وكبشين اشعثين بلا قرنين، في حين أرسلت شاباً آخر إلى قرية ((ديريك)) المُجاورة لجلب العشاق والمغنين.

إجتاحت القرية وكالصاعقة أخبار البارحة حول إطلاق سراح الشبان الثلاثة، والآن فأن سكان القرية الذين كانوا حتى الأمس يقولون أنفه الكلمات بحق غزال، أخذوا يلقبونها اليوم بأجمل المواصفات وبأفضل الكلمات إلا أنه كان يبدو عليهم الشكوك والقلق، كانوا بين تارة وأخرى، يراقبون الطريق الذي كان يجب أن يعودوا من خلاله، ويسألون من حين لآخر بعضهم وأن لم يُطلق سراحهم، ماذا سنفعل حينئذٍ؟

كُنَّا أكثرهم إنتظاراً: فكما هي العادة، لم يكن من حقنا الشروع بالزفاف بينما يخيم الحزن على دار أحد من القرويين، لكن كل شيء مضى على خير، حيث لم يلحق الدهن المُذاب المُخصص للعرس لأكل الرز بلحم الضأن أن يتجمد حتى وصل القرية المعتقلون الثلاثة، ماذا حدث آنذاك:

مادت القرية تحت ضربات كعوب الراقصين وهتافات الفرحة والترحاب المتواصل، ترك الجميع أشغالهم جانباً وخرجوا إلى الشارع، وهنا وبأشارة من الوالد أخذ قارع الطبل يدق طبله وتجمع حوله أمام دار والدي حشد كبير من الناس والفرحة والبهجة لا تبرح الوجوه توافد إلينا الجميع من النساء والرجال والشيوخ والأطفال، حتى وقت متأخر من الليل، علا صوت الطبل والمزمار أمام دارنا، وإستمرت التهاني

والتمنيات الطيبة للعروس والعريس، بهذا الشكل وبمباركة من حسن آغا، إرتبطنا أنا وغزال في مصيرنا المشترك.

توقف العم چاويش قليلاً مقلباً مسبحته الكهرماني وتغيرت علامات وجهه كأنه يسترجع تلك الذكريات ويعيشها الآن، فقال:

- لم تمض عدة أيام على عرسنا حتى حلت بالقرية مصيبة جديدة، حيث لاحظنا ظهور أحد رعاة رئيس عشيرة الأكراد المسلمين مصطفى بگ، وإتجه مباشرة إلى دار عمريك، لم يعط أحد أهمية خاصة لظهوره فكان من عادة الرعيان أن يتركوا أغنامهم مع مساعديهم، أما هم فكانوا ينزلون القرية طلباً للزاد.

وتبين فيما بعد أن هذا الراعي جاءنا بخبر مؤسف وإليكم ما قام الراعي بتبلغه إلى عمريك:

قال الراعي، أتمم جالسون في بيوتكم وتجهلون كل ما يحدث من حولكم، بينما قبيلة سرخون قاطبة برئاسة مصطفى بگ التي باعت نفسها للأتراك، تقوم بجهيز الرجال بغية الهجوم عليكم وإستمر الراعي بحديثه وسط تفاجئ وإنتباه عمريك عليه ورغبته بمعرفة المزيد، فكعادتي كنت أرعى الأغنام وإذا بخطيبيتي التي تخدم في بيت مصطفى بگ تركض لاهثة معرفة تقول:

إركض إلى عمريك، دعه يستعجل حتى لو كان رأسه مبللاً برغوة صابون، أن قبيلة سرخون تجهز رجالها القتلة للهجوم على القرى الأيزيدية وازالتهم من على وجه الأرض ويريد مصطفى بگ أن يبدأ هجومه من سيفيك كما أخبرتني خطيبيتي بذلك وسمعتة يقول صارخاً:

أترون أن الإسلام لا يعجبهم لذا قرروا اللجوء إلى الكفار، لكنني سرعان ما أجعلهم يتعقلون وسوف لن أترك حجراً على حجر في قراهم، أما أمام قرية سرخون الأعور فقد زاد الطين بلة حيث قال وبنبرات حاquه تغذي خطاباته التحريضية:

«إضربوا الكفار أيها المؤمنين، بلا أدنى شفقة أو رحمة، أن الله لأ يعتبر ذلك إثماً».

بعد أن أبلغ الراعي هذا الخبر ودّع عمريك ثم خرج من القرية مُتسللاً كما دخلها هكذا يا أخي - تأوه العجوز چاويش مُتَحسراً - حارب الكردي أخاه الكردي، فقد سار الكردي المسلم من عشيرة سرخون الغابرة المجيدة حاملاً السلاح في يده كي يسفك دماءنا.

حيث سادت البلبله والصخب والطين في القرية وكأنها وكر زناير، وكعاصفة جبلية قوية أنتشرت في القرى الأيزيدية المتناثرة في الجبال: ملا شمدين، اوخان، سيفيك، ديريك، إسمر وسينجان<sup>(1)</sup>، حيث ترك الرجال في هذه القرى قطعانهم تحت رحمة الأطفال والنساء بينما جاؤوا إلى القرية يتسلحون ويستعدون للوقوف ضد أولئك الذين كانوا بالأمس إخوانهم وأبناء قبيلتهم، أما اليوم فقد ساروا إليهم بسيف مُسلّط.

وذات مرة وفي إحدى هذه الأيام الصعبة لاحظنا رهطاً من الفرسان ينطلقون من شعاب بورتو، وبعد مرور دقائق، سار خلفهم المئات أن لم

(1) بعض من القرى التي كان يسكنها الأيزيديين في تركيا في تلك الحقبة، علماً أنه وبفعل الحملات العثمانية والاضطهاد لم يبقى الآن سوى عدد قليل من القرى الأيزيدية في تركيا وهي متوزعة في جنوب تركيا في اطراف ماردين ودياربكر ويران شار وغيرها.

نخطيء التقدير، توجهوا صوب قريتنا وهم يصرخون في حين كان الغبار يتصاعد مع الريح أعترا القنوط واليأس لأنعدام قدرتنا على المواجهة، ما عدا اوكيز ممو فلم تخرعزيمته حيث قال بشجاعة:

سنحارب حتى آخر رمق، فقد أعدّ فرقته للهجوم بهدف دق إسفين في تجمعات الصفوف المعادية وافشاء الفوضى والإضطراب في قواته، ولكن عددهم كان يكبر لدرجة بدا لنا وكأن العالم كله تحوّل ضدنا ودنت ساعتنا المحتمومة.

وإذا كان عساكر رشيد باشا قد سلبونا ودمرونا في رادافان، فأن أبناء جلدتنا قد رفعوا السلاح في وجهنا الآن لم يكن قد حدث مكروه من هذا القبيل في قبيلة سيكي سابقاً.

ماذا ستقول، عنا العشائر الأخرى، لم يكن الوقت ملائماً للتفكير، كان العدو على وشك الدخول إلى القرية، فالفلاحون قد تملكهم الرعب، بل أن بعضاً منهم ركعوا باسطين أياديهم متوسلة:

يا إلهي مغفرتك، لا تدع دماء الأبرياء تُسفك، كن حريصاً على عبادك وأشمّلنا بعطفك.

وأخذ الشيوخ والنساء والأطفال يتسلحون بالمعاول والرفوش<sup>(1)</sup> وأحياناً بالحجارة وتقدموا بادياً عليهم الإنفعال وأعتراهم السخط، شادين أعتة الجياد القلقة وكانت بعض النسوة قد خرجن من بين الحشد فيهن أمي أيضاً.

(1). مفردها رفش وهي المجرفة التي تُرفشُ بها الحبوب وُثمال.

ولم تكن تفصل بينهن وبين القتلة سوى خطوات عندما خلعت العجايز المسكينات الأغطية عن رؤوسهن وأخذن يرمين بأنفسهن تحت أقدام جيادهم، مما جفّل المقاتلين أخذت أمني تجلس على ركبته متوسلة:

مصطفى بك أيها الأباء والأخوان، معذرة فيما لو أزعجناكم في شيء، لأجل الإله عودوا إلى رشدكم، أقبل التراب من تحت قدميك يا مصطفى بك إبتعد عن الذنوب.

في هذه اللحظة خرج قائد الفصيلة التركي على حصانه من خلف مصطفى بك صارخاً:

- إسكتي أيتها العجوز الماكرة! ملوحاً بسوطه وتوجه نحو النسوة.

فعلى ما يبدو، أن حديث والدتي أثار عواطف مصطفى بك لدرجة جعلته بطريقة لا أرادية، فقد إستدار بحدّة نحو القائد العسكري التركي وأمسك بعنان جواده موقفاً أيّاه، ثم أمعن النظر في النساء وقال بلهجة مُفعمة باللطف والطيبة:

أنهضن أمهاتي، الموت أفضل من أن أراكن راكعات، أن هذا التركي لا يستحق دموعكن، قال ذلك مؤشراً بكرواجه على قائد الفصيلة التركية، الذي نظر إلى الأطراف في حيرة وإرتباك أقسم بشرفي لو لم تأتوا إلى هنا لكننا قد دمرنا قراكم، وحوّلتها إلى ديار موحشة أبدية، لكنني لست من حجر.. عودوا إلى بيوتكم سالمين.

ومعنا تنفس الصعداء مقاتلو مصطفى بك، وأدركوا أيضاً بأن

السلطات التركية تحرضُ بعضنا على بعض الآخر، وأنهم يسحقون الأكراد بأيدي الأكراد أنفسهم، إلا أنهم لم يتجرأوا على رفض ذلك، لأن مصيرهم كان مرتبطاً بمصطفى بگ الذي كان يخدم الأتراك، في حين كانت كلمة القائد قانوناً للجميع، وقد شكروا في دخيلة أنفسهم الرب الذي أعاد قائدهم إلى صوابه، حتى أن بعضهم أداروا برؤوس جيادهم وأطلقوا مجدداً نحو شعاب بورتو غير منتظرين أمراً بذلك من رئيسهم. أما النساء فقد فقدن صوابهن فرحاً، حيث بقين جالسات على ركابهن، وهن في حيرة بين الضحك والبكاء، إلى أن أمرهم مصطفى بگ بالنهوض والذهاب إلى بيوتهن.

- ليكن أزواجكن فداكن أيتها النساء صرخ فيهن بنماقة ثم أضاف أخبرن ذويكن بأن خلال فترة سيحل عليكم مصطفى بگ ضيفاً، فلي معهم حديث لا بد منه.

لم يبق مع مصطفى بگ سوى إخوته الثلاثة كهрман بگ وچاچان بگ وبينياشي بگ وكذلك الملا رسول الذي قدّم مباركته لهذه المجزرة، فضلاً عن قائد الفصيلة التركي.

أما الباقون فقد أقفلوا عائدين من حيث أتوا، أما هو وبعد مرور بعض الوقت وصل إلى قريتنا مع حاشيته كما وعد وتوقفوا مباشرة أمام باب عمريك، ولم يتمكنوا من النزول من خيولهم حتى هرع إليهم عدد من الشبان، حيث قادوهم إلى البيت ثم أخذوا الخيول إلى الإسطنبول.

عندما علم أوكيز بوصول الضيوف أخذ معه عدداً من الشبان وراح يجمع فدية من القرويين لمصطفى بگ وحاشيته، وأخذ كل منهم يدفع ما

أمكن، وبعد أن جمعوا مبلغاً مقبولاً قسمه أوكيز إلى ثلاثة أقسام وأخذه إلى عمريك، الذي وضع الذهب أمام مصطفى بگ قائلاً:

- مصطفى بگ، أيها الوالد، نحن أخوة وكما كنا.. لن يخطر على بالك بأننا قد أهملناك أو نسيناك الله يشهد، ففي اليوم الذي قدمنا فيه إلى دوخان إلى الوالي، وعندما قفلنا راجعين كان الظلام قد أرخى سدوله، لذا فقد وجدنا من غير المناسب إزعاجك في مثل تلك الساعة المتأخرة لنا الشرف أن تقبل هذه الهدية المتواضعة، لا تؤاخذنا !

وضع أوكيز أكياساً من الذهب والفضة، لكن أصغر حجماً، أمام الملا وقائد الفرقة التركية على الرغم من أن مصطفى بگ كان مسروراً من هداياه فقد قطب جبينه ووجهه سؤالاً إلى عمريك أربكه كعظمة في الحلق:

- ماذا تقول أيها المحترم عن إبنك؟، لأي هدف سافر مع زملائه إلى الطرف الروسي؟ ألا ترغبون في اللجوء إليهم؟.

- أقسم بأسمي أيها البگ، ليس لهذا أساس من الصحة، قال ذلك عمريك برزانة: تهمة باطلة، ما لنا والروس فلا شئ لنا عندهم؟

أن ما حدث كان بسبب خطيبة إبني التي رفضت الزواج منه وذهبت إلى غيره وإبني شاب طائش لمّ اصدقائه وإختفى معهم في الجبال، منتظراً ساعة الثأر من خصمه، لكنه بعد أن علم بأعتقالي نزل من الجبل... أرجو أن لا يعكر صفو حياتك أي مكروه أيها البگ، صدقاً لا كذب في كلامي قطعاً.

- حسناً، لنفترض أن ما قلته صحيح، أخذ ملا رسول الحديث، ولكن لماذا لاتعتقدون الاسلام؟ أو أنكم تعتقدون بأن دمكم قان أكثر من دمنا؟ على كل، لا مفر لكم من سلطة الاسلام ومن مصطفى بگ فکروا ملياً وإدخلوا الاسلام، قال ذلك وهو يمعن النظر في عيون مصطفى بگ بدهاء.

- أنك محق أيها الشيخ- أخذ الكلام أوكيز ممو، الذي إنترم الصمت جانباً حتى اللحظة، وقال بدهاء:

- وأنا أقول بأننا لسنا أفضل منكم، فعشيرة سرخون قد إعتقدت الاسلام، حيث يعيش سكانها في بحبوحة وأمان علينا أيضا التفكير بهذا الأمر قالها ذلك ممو بدهاء مجاملاً لهم حتى يُخلص قبيلته من غضب مصطفى بگ ونقاشات الملا رسول الدينية ثم ألقى نظرة مُخادعة على الحاضرين وفهم الجميع من نظرتة بأنه يستهزىء من الملا ثم مال مرة أخرى نحو الملا وبعيون مؤسفة، وكأنه يريد أن يقول له عبثاً تحاول، وأضاف:

- أن قدمك إلينا يا ملا رسول شرف كبير لنا، وكلنا خدمك، لكن شعبنا يملك رأساً عنيداً إلى حد ما- وضرب على رأسه بيديه- أنه عنيد جداً.. فما أن يركب حماره حتى لا ينزل منه، ومن هنا باعتقادي لا جدوى من هذه المحاولة لكنني متأكد من شيء واحد- وأصبحت نظرات أوكيز جدية وصارمة- سوف لن يعم السلام بيننا، فاليوم كدنا نقتل بعضنا البعض وتنتظرنا أيام كثيرة من هذا القبيل حتى ولو إعتقدنا الاسلام فأن السلطات ستخلق حججاً أخرى للتدخل في شؤوننا، وأن لم تكن أنت فإمام آخر، سيأتينا غداً مع العساكر.

بهت مصطفى بگ وأخوته من هذه الجرأة المفاجئة، وحدقوا فيما بينهم، لكنهم لم يتفوهوا ببنت شفة وعلا وجه ملا رسول الإصفران، وساد عليه القلق والإضطراب من على الكرسي وما أن هدأ إلى حد ما حتى أخذ ينظر إلى كيس هداياه.

في هذه المرة أخذ الحديث القائد العسكري التركي:

- حقيقة- قال ذلك وبدأ ينظر إلى المجتمعين نظرة إزدراء- أننا لا نثق بكم ولا بالارمن إذا كان ضميركم نظيفاً، فلماذا إذن لا تعتنقون الاسلام، أعدل وأطهر دين على وجه الأرض، لماذا؟، بل تتمسكون بآبيكم<sup>(1)</sup>.

- لم يكذ أن يكمل رأيه حتى هجم عليه أحد الشبان الواقفين على الباب شاهراً خنجره لكن ومن حسن الحظ، لحقه أوكيز الذي أخذ الخنجر من يده.

- لا تغضب يا أخي، أنه يجهل عاداتنا، قال ذلك بهدوء للشباب الشجاع، ثم همس معاتباً آياه: أتريد أن تدمر كل القبيلة لحماقتك.

لقد أضع القائد التركي في هذه اللحظة نطقه رعباً، أما مصطفى بگ ودون أن يتوقع أحد، فقد أعجبه الشاب وعفا عنه مُبتسماً قائلاً أنه متهور.

أما اوكيز ممنو فقد إستغل ما حدث ليذكر الملا مرة أخرى.

(1) هنا يقصد مقدس ديني للايزيدية في اشارة الى تهمة عبادة الشيطان التي الصقت بالاييزيدية كذباً والتي هي فلسفة صوفية دخلت الى الايزيدية ولا وجود للشيطان في العقيدة الدينية للايزيدية لاعتبارهم بأن الخير والشر مقررين سلفاً من قبل الله لايمانهم بوحدة الوجود والاله الاوحد فالشر ضرورة للخير والعكس ايضا فلا خالق منفصل لكليهما ولهذا لا يجذون لعن الشيطان كصفة للشر اتقاء من شره (حتى لا يرد عليهم بالمثل).

أرأيت أيها الشيخ سبق أن قلت لك بأن شعبنا غاضب وعنيد معذرة يا ملا، سنفكر أيضاً بمسألة قبول الدين الاسلامي وسنخبركم عن ذلك بأنفسنا.

ثم أنحنى لمصطفى بگ قائلاً له:

- بما أننا لا نملك حالياً من يرأسنا، فليبق أحد من البگوات عندنا ليصبح رئيساً لنا أنذلك سيساعد على إقناع الشعب بالدخول إلى أفضل الأديان، كما أن ذلك سيضع حداً للمذابح بيننا.

- من من البگوات تختارونه رئيساً لكم؟ سأله القائد التركي مُعطيّاً  
إبتسامة مُصطنعة.

- يقرر ذلك مصطفى بگ، نحن خدم له، قال أوكيز ذلك مرة أخرى  
بحنكة ثم أنحنى للبگ المسرور.

- حسناً، سأفكر - قال ذلك مصطفى بگ بتملق ثم نهض - وسأخبركم.  
توجه مصطفى بگ برفقة حاشيته إلى الخارج وهنا تدخل أحد  
الأشخاص بشكل طائش: كيف تذهبون دون عشاء؟.

- مغفل! - زجره شخص آخر من الحاضرين - أنهم يشتمون من طعامنا.  
ألقي مصطفى بگ نظرة غاضبة على المغفل ودون أن يتفوه بكلمة  
همّ بالخروج.

ساد صمت رهيب في الغرفة التي كانت قبل لحظات قليلة تمتلئ  
ضحيجاً تجمد الناس كما لو أنهم رُشّوا من الرأس إلى القدم بالماء  
البارد سُمع من الشارع وقع حوافر جياذ نائية، معلنةً مغادره مصطفى  
بگ ومن معه القرية.

\*\*\*

## عيد خدر نافي<sup>(1)</sup>

ذات مرة، توجه والدي برفقة عدد من أقاربنا إلى منزل عمريك بولات، ملتسبين منه الصفح عن الإهانة التي مسّت شرفهم من قبل غزال، هكذا كانت العادة ففي لحظة المصالحة هذه إختلط العناق بالقبلات والمعاتبات الكلامية وأقسم الطرفان على الوفاء والأخلاص لبعضهما البعض.

ثم زار الجميع معاً والد غزال، ملتسبين منه الصفح عن إبتته ونسيان ما حدث حيثئذٍ ساد الوئام والهدوء أسرتنا كما دبّ الوئام بالقرية. ولاح كل شيء على ما يرام وشرع كل فرد بمزاولة عمله اليومي في الأرض لكنه كان هدوءاً حذراً، فقد عاشت قريتنا حياة مخفية عن أنظار الغرباء، لم يُخالط الرُّسل الثلاثة الذين كانوا في تبليس بعد عودتهم أحداً، وكانوا يتهربون من أسئلتهم، في حين تالألأت عيونهم وكانت تتحدث عن شيء آخر كان كلاً من ممو ونيغو يتوافدان بين حينٍ وآخر إلى دار عمريك ويجلسان هناك لساعات حضر هذه اللقاءات كذلك رؤساء وقادة العشائر من القرى الأيزيدية المجاورة الذين كانوا يتفرقون شذر مذر مع أول خيوط الفجر، ولم يكن هناك من يُدرك عن ماذا كان يدور الحديث في هذه الإجتماعات.

(1) مراجعة التوضيحات تسلسل (5).

ففي هذه الأيام، غمر الأعرور أصلاً تاكوري شعوراً بالقلق حيث أعتراه حب الفضول وكان يرسل زوجته وإبنته إلى الجيران، أما هو كالثعلب الماكر، فكان يحوم حول منزل عمريك محاولاً الأختفاء عن الأنظار وصار يتحدث بالأحاجي والألغاز أحياناً فاتحاً الحديث مع هذا الشخص أو ذاك محاولاً من خلالهم معرفة ما يحدث في منزل عمريك. لكن عمالته دفعت الناس إلى التهرب من أسئلته ووصل به الأمر إلى أن أزعج الجميع بتطفله حتى بدأ الناس يتهربون منه كأنه الطاعون، حتى أن أبناء أعمامه أحمو وصبري صاروا يتجنبان الإلتقاء به، مما زاد ذلك من غضبه وحقده.

ففي عشية رأس السنة الجديدة<sup>(1)</sup> أعدت الوالدة وغزال اطعمة مختلفة لذيدة بمناسبة العيد، حيث دُعِيَ إليها الجيران وفي صباح يوم رأس السنة توجه الوالد شخصياً نحو ينبوع لإحضار الماء، وبعد أن جلب دلائن من الماء، بدأ يرش علينا بعض الماء بهدف إبعاد الشر والمآسي عن دارنا في العام الجديد، ثم بارك المواشي خشية العيون والأمراض وما أن عاد إلى الغرفة حتى أخذ يركع ساجداً على ركبتيه مصلياً، رافعاً يديه فوق رأسه داعياً الرب ليشمل برحمته بدءاً ذي بدء كافة شعوب الأرض ومن ثم شعبنا المُعذَّب جداً<sup>(2)</sup>.

(1) يصادف عيد رأس السنة الايزيدية في يوم الاربعاء الاول من نيسان شرقي من كل عام ويسمى بالكردية (عيد سري صال) اي رأس السنة او (جار شما صور) اي الاربعاء الاحمر ويعد من اهم الاعياد واقدسها لدى الايزيدية وحسب عقيدتهم هو اليوم الذي انتهى الله من خلق الكون وبداية الحياة، وفي الرواية من وصف الطقوس يقصد به عيد خدر اليباس وليس عيد السريصال.

(2) من اسس الصلاة عند الايزيدية انه في بداية الصلاة يجب ان يدعي الفرد الايزيدي بالخير لجميع المخلوقات في الكون ومن ثم ملته ودينه ونفسه وعائلته وهناك نص ديني واضح بذلك (المقدم)

جلسنا حول طاولة العيد وكان الفرحة يعم قلوب الجميع لقد أفلق الجميع أحداث الشهور الأخيرة لدرجة بدأنا في هذا الصباح السعيد من اليوم الأول للعام الجديد نتأوه شوقاً وحيناً إلى السلم والهدوء.

وفي غضون ذلك حلَّ الشتاء ببرده القارص وتساقط ثلج وفير على جبال القرية وأقبل عيد خدر ناقي أكثر إعياد الدينية تبجيلاً لدى الأيزيدية أعدت القرية نفسها للصوم الكبير. لقد رغب الناس الإحتفال بهذا العيد على مستوى رفيع، فقاموا بذبح الخراف وتحضير الحلوى والخبز والأرغفة أما النساء فقد غسلن ونظفن البيوت وفي عشية العيد تحمّم الجميع صغاراً وكباراً وفي صبيحة يوم العيد أخذ الناس يطوفون القرية بيتاً بيتاً وهم في حلّة العيد والابتسامة تغمر وجوههم وهم يهنئون الجيران ويتمنون لهم كل السعادة كانت الأبواب مفتوحة حيث إحتشد الناس في مداخل البيوت في حين نظم الشبان حلقات الرقص والغناء أحتفلت القرية بعيد خدر ناقي، أما الأطفال فقد كانوا يركضون في الشوارع وهم يرددون الأغنية التالية:

في الجبال والوديان

في السهول والحقول،

وعلى صهوة حصان مجنح

ينطلق (خدر ناقي) الحكيم،

وعلى كتفه صولجان

يطوف جميع الأماكن

ويعرّج على كل بيت<sup>(1)</sup>.

(1) مراجعة التوضيحات تسلسل (5).

قالت والدتي بأن (خدر نافي) يطير ممتطياً سهوة جواده فوق سطوح البيوت، مباركاً كل بيت كان جواده يترك أثر حوافره على الدقيق المفروش من قبل صاحبة الدار دلالة على أن (خدر نافي) قد مرّ على دارهم وحسب العادة المألوفة لديهم، فأن النساء نقشن صورة الشمس ونعال الفرس على جدران بيوتهن وسقوفهن.

وفي إحدى الأمسيات وبينما كانت تنير أنوار المصابيح وراء النوافذ، وفجأة بدأت الكلاب تنبح، مما اثار قلقنا بشكل جدي حيث هرعنا جميعاً إلى فناء الدار وعكّر عواء الكلاب وصفير الرياح صراخ شخص طالباً النجدة وكان الرجال وبعد أن ارتدوا ملابس دافئة قد هرعوا باتجاه الصوت.

كانت الرياح تعصف بأقدامهم ووخز الزمهير وجوههم وحينما بلغنا أخيراً الشخص المسكين الذي كان يصرخ، رأينا أمامنا جمال ابن عرب من قرية اوهان فبعد أن خارت قواه أخذ يزحف فوق الكثبان الثلجية، رافعاً رأسه بصعوبة مطلقاً صرخات وآهات مبسوطة أندفعنا نحوه، رفعناه من الأرض ثم غطيناه بفرو، فطن أحدنا أن يحمله معه.

فقد استحوذت على جسمه رجفة وبعد أن احسّ المسكين بالدفء عاد إلى صوابه بدأنا نسأله:

- ماذا جرى لك، لا شك أنك فقدت صوابك، ما الذي جاء بك إلى هنا في مثل هذه الزوبعة؟

- أنه بسببهم الملاعنة! صرّ على إسنانه في صريف.

لم نفهم في البداية من يقصد، لكنه أضاف:

- أن حسن آغا وخدمه وخمسة عساكر قد توقفوا في سهل جو كاد يجب إنقاذهم لقد أرسلوني طلباً للنجدة عليكم بالإسراع، فأما أنهم سيموتون برداً أو سيصبحون هدفاً للذئاب.

- إلى أين يسلكون الطريق في هذا الجو السيء؟ سأله أحدنا.

- إلى قريبتكم، أن حسن آغا سوف يعيش في قريبتكم، إهرعوا وإلا سيقطعون رأسي، أجاب جمال.

- في قريتنا؟ أبدينا الدهشة ما السبب.

لكن جمال لم يقل شيئاً، بل إكتفى بهز كتفيه صامتاً.

أخذت العاصفة الثلجية تعصف بشدة، وغطتنا حبيبات الغبار الثلجي من قمة رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا وبعد أن تركنا أحد الشباب مع جمال، أنطلقنا على وجه السرعة نحو سهل جو كاد كنا ندرك بأنه لو لم ننفذ حسن آغا والعساكر فإن الأتراك سيتهموننا بقتلهم المتعمد وسيهاجمون أرضنا من جديد بالحديد والنار لكن ما الذي اجبر حسن آغا بالتوجه إلينا في مثل هذه الزوبعة الثلجية؟ لقد أفلقتنا هذه الفكرة ولم تهديء من روعنا.

أثار ظهور حسن آغا قلق القرية، حتى أن البعض أبدى عدم إرتياحه علناً لقد كان جلياً حتى للطفل في القرية بأن السلطة و قبيلة سرخون لا تثقان بنا وتريدان إدخالنا لإسلام وإلا ما الذي دفع حسن آغا المسلم أن يسلك هذا الطريق الطويل خاصة في مثل هذه العاصفة...

ففي نفس اليوم، أرسل حسن آغا رُسلًا لجلب زوجته وأولاده، أما هو فقد سكن في دار ممو والد او كيز.

أنصرت الأيام والأسابيع في سلسلة رتيبة مضمينة لا نهاية لها لقد مضى زمن طويل جداً، على تلك الفترة منذ أن عاد العسكر التركي إلى ثكناتهم لكنهم وقبل العودة أخبرونا بأنه من الآن فصاعداً سيتولى رئاستكم حسن آغا.

وبعد مضي وقت ما، أخذت القرية تتعود شيئاً فشيئاً على وجوده، كانت الدنيا تمطر رذاذاً خريفياً مرحاً، وكانت تشع في السماء البيضاء شمس خريفية تيرق بأشعتها الذهبية المنحدرة نحو قمم الجبال، في حين تصاعدت في الأنهار الأمواج الناتئة المتشكلة من ذوبان الثلوج ومن القنوات الجبلية مدوية بشكل متواصل، وغسلت مياه الفيضان أمامها الضفاف، فتلألت تحت أشعة الشمس، أجل لقد أقبلت أياماً رائعة.

ومن جديد ساد سكون موحش في القرية فقد عمد جميع الفلاحين إلى ترك إصلاح معدات السفر، وتبديل دواليب العربات فقد خفت الأصوات وأنطفأ شعاع الأمل الذي أشعل لهيباً ساطعاً في قلوب الناس بعد عودة الرُسل من تبليس.

أما ظهور حسن آغا، فقد أكد مرة أخرى، على أملنا المفقود لقد أجبرنا على التخلي عن فكرة الإنتقال إلى الطرف الروسي، وإلتزم الناس بأهداب الصمت.

لكنه عندما حان موسم البذار، أندھش أهل القرية عندما وجدوا

بأن كل من او كيز ممو ونيغو وعمريك بولات لم يحرثوا سوى نصف أراضيهم «يا للخبر» أنشأوا يحدقون في وجوه بعضهم البعض وتركوا حراثتهم أيضاً.

حان وقت الرحيل فإذا كان الناس سابقاً يشدون الرحال مع أغنامهم إلى مناطق مختلفة، فإنهم سلكوا هذه المرة إتجاهاً واحداً نحو الجبال ذات الأربعين ينبوعاً، مما أثار الدهشة والإستغراب وفوراً أخبر شخص ما قبيلة سرخون بذلك، وقد طار على جناح السرعة رُسل منها إلى حسن آغا ليستفسر منه عن هذا التصرف الغريب للأيزيديين.

يعود الفضل وفي هذه المرة أيضاً لاوكيز ممو في الدفاع عن القرويين المفزوعين:

- ماذا تريدون منا؟ زعق او كيز صارخاً في وجه رُسل مصطفى بك ثم أضاف:

- ألم يكفينا كل مصائبنا، حتى تقوموا أنتم بالإستهزاء بنا، أننا لم ندخر جهداً في تلبية واجباتنا، حتى أن حسن آغا بنفسه، سيعترف بنزاهتنا ودفعنا ضرائبنا في الوقت المناسب

وفي اليوم التالي، توجهت القبيلة عن بكرة أبيها في خط طويل، نحو الأعشاب الطيبة في جبال الأربعين ينبوعاً كانت قطعة من الجنة، بدت البساتين المنداحة في زخرفة أنيقة. كانت السماء زرقاء لازوردية صافية خالية من السُحب وكان يتناهى إلى السمع خرير المياه وتغريد العصفير وكان الطقس لطيفاً رائعاً، لدرجة تجعل المرء يدخل لا أرادياً في جو شاعري وكان من الممكن هنا رؤية الشبان الشجعان الذين

يجيدون الفروسية جيداً، وكذلك الفتيات الجميلات الرفيعات كالدلب وقد أحتفل الكثيرون مباشرة بحفلة زفاف آبائهم وبناتهم، حيث علا صوت طفق الطهاة، يجهزون أكالات مختلفة كم كان رائعاً أن يُمدد المرء جسمه على العشب ويضع يديه تحت رأسه مستمتعاً بالطبيعة الخضراء الجميلة وفي المساء كان يتناهى إلى السمع من مكان ما قريب أصوات مزامير الرعاة الرائعة، كان في هذه اللوحة الرائعة شيء ما اسطوري يوحي باحلام فاتنة.

وفي هذه اللحظة بالذات كان يمكن للمرء أن ينسى تقلبات الدهر ومأساة الفقراء الذين يعانون شظف العيش والإضطهاد على يد البگوات والسلطات التركية.

آآآه أيها الزمن، لقد طار العصفور مرفرفاً، تأوه العجوز چاويش بحزن ثم سكت.

أن تأوه العجوز هذا المليء بالأسف والحزن، جعلني أتذكر المثل الأذربيجاني القائل:

«ذبلت الورود وطار البلبل والآن إن شئت فإضحك، وإن شئت فإذرف دموعاً».

- هكذا إنصرفت أيام البداوة أضاف العجوز چاويش قائلاً:

لقد إكتفى مصطفى بگ بإرسال أزلامه إلى الأيزيديين الهادئين، مرة واحدة في الشهر، بغية جمع الأتاوة من زبدة وجبن وصوف ولحم.

إقترب الخريف خلسة وكان لا بدّ من العودة مجدداً إلى القرية

وبدأ الناس يجهزون أنفسهم شيئاً فشيئاً، يحزمون أمتعتهم، وفي نهار رائع إجتاح الخيم نباً وهو أنه على الجميع أن يعدوا العدة للرحيل في الأربعاء القادم.

كما أن الأكراد المسلمين الذين توقفوا على بعد بضعة كيلومترات من مكاننا، أخذوا يُعدون العدة للرحيل فور معرفتهم بعودتنا إلى القرية وفي مساء يوم الأربعاء لاحظ أو كيز ممو تحركاً مشبوهاً خلف خيمة حسن آغا وقد احسّ بالخطر مباشرة أمعن النظر فيهم قليلاً ثم إندفع نحوهم بسرعة وبلغ أو كيز البوابة تماماً في تلك اللحظة عندما إقتحم عدد من شبابنا خيمة حسن آغا وهم في أهبة الإستعداد للإقتضاض على جميع أفراد عائلته.

أن ظهور ممو المفاجيء أربك الشباب، أطلق الشرر من عين أو كيز غضباً وأمرهم بالخروج من الخيمة فوراً، ثم قال حانقاً:

- ليهدم الرب منازلهم فوق رؤوسهم، - لقد جنوا كلياً- بدأ أو كيز يُهدأ من روعة حسن آغا وزوجته وأطفاله المذعورين حتى الموت، ثم أضاف أو كيز ممو قائلاً:

أبناء الكلاب، سيكون لي معهم حديث خاص ليعرفوا هؤلاء الخبيثاء، بأنهم لن يفلتوا من قبضتي بسهولة كُن مطمئناً يا آغا، فما دمْتُ حياً سوف لن يمساو شعرة من رأسك.

قفزت بريشان زوجة حسن آغا تُقبّل يد أو كيز ممو شاكرة آياه على عمله الجميل وفي نفس الليلة، تم إرسال مبعوثين إلى كافة الجماعات داعية آياهم إلى إنعقاد مجلس الشيوخ وبعد وصول الجميع، أخذ حسن

آغا، الذي لم يعد بعد إلى صوابه بعد تلك الحادثة بشكل كامل الحديث،  
حيث قال:

- أيها الأخوة المحترمون! ليطفء الله نار كل عائلة مستهترة التي تدّعي  
كذباً بأنني اسعى لإبعاد رجالكم عن القيادة بتنصيب نفسي رئيساً  
لكم دعونا لا نتحايل ولنقل كلمة الحق أيها المحترمون، فأنتم على  
دراية، بأنه لولا تدخل لي لدى الوالي وإغلاق ملف تبليس، لما كان  
هناك خلاص لشبابكم من حبل المشنقة لقد أعطيت أنذاك للوالي  
مبالغ طائلة، كما برهنت له أقوالكم حول إختفاء الشباب من القرية  
لأخذ الثأر من عائلة چاويش

- نتذكر ذلك يا آغا، وافق الحاضرون.

- أيها المحترمون، تابع حسن آغا حديثه بصوت مضطرب: أما أنا، فلن  
تخدعوني، وأعرف تمام المعرفة بأنهم كانوا فعلاً في تبليس، ولكن  
ما العمل؟

إنني أدرك جيداً بأنكم ترغبون بالانتقال إلى روسيا هرباً من الجحيم  
وأن مصيبة شعبنا تكمن في إنقسامه إلى طوائف فالبگوات يتصارعون فيما  
بينهم، والسلطات تنهب حتى اللقمة الأخيرة من الفلاحين أما الملاي  
الذين يعتبرون أنفسهم الأباء الروحيين للشعب، فإنهم وبإسم الله يباركون  
الظلم والنهب ويحرضوننا ضد بعضنا البعض أعتقدون بأنني لا أحزر  
بأنكم تنوون الرحيل من هنا مباشرة إلى حدود روسيا؟. لكنني تجاهلت  
وغضضت الطرف عن كل ذلك، في حين أرسلتم اليّ القتلة لقاء شكري  
لكم، أين هو إذن الكرم والأخلاص لإيزيدي الذي تتميزون به؟.

وهنا نهض او كيز قائلاً:

- آغا لنكن فداء موطيء اقدمك! بدأ كلامه بشكل مُنمق أرجو العفو منك والصفح عنا. فليس الجميع مطلعون على فضائلك فالشباب كانوا يعتقدون بأنك ضدنا وتساعد الأتراك سرّاً، أنهم مذنبون أمامك أجل لقد أصبت كبد الحقيقة، فنحن نرغب فعلاً الإنتقال إلى الأراضي الروسية، إرحل أنت أيضاً مع عائلتك معنا فالوقت غير مناسب لتقييم الماضي، فمن الأفضل أن ننصحنا ما يجب فعله علينا أن نظرق الحديد ما دأماً حامياً.

- أصدقائي وإخواني - قال حسن آغا وهو يمعن النظر في الأطراف - ليس لدي إعتراض على إقتراحاتكم، لكنني لن اذهب معكم أن هفوة شبابكم اليوم أعطتني الكثير لكنني أمنحكم عهداً بعدم التعرض لكم ارحلوا والله برفقتكم، وفيما لو رغبتهم بابعاد الشبهات من حولكم، فاشعلوا المواقد، وكأنكم لا زلتم هنا في القرية شدوا أمتعتم على الجياد بهدوء وحذر وتحركوا بعون الله، فالليل أمامكم وللتأكد من نزاهتي، إربطو أيادينا وارجلنا أنا وعائلتي، فهذا سيزيل شكوك وشبهات السلطات حولي وسيعتقدون بأنكم إستعملتم القوة معي.

- حسناً قال أحد الشيوخ المتقدمين في العمر لكننا سنكتفي بربط أيادي وأرجل عائلتك، أما أنت فسناًخذك معنا حتى الحدود وهناك قرر بنفسك: أن شئت ستبقى رئيساً لنا، وأن لم ترغب، فلا داعي للقلق يا آغا، سنرد لك الفضيلة بالفضيلة، سنخلي سبيلك.

لم يكن هناك أمام حسن آغا خيار آخر سوى الرضوخ لشروطهم، مُدركاً عدم جدوى النقاش كما صادق مجلس الشيوخ من جانبه على إقتراح العجوز، وذهب كل واحد إلى جماعته إستعداداً للرحيل.

شعلوا المواقد وطفق الناس يروحون ويجيئون حول مخيمهم وهم يحزمون أمتعتهم أقعدوا الكبار والأطفال في العربات، دفعوا الأغراض إلى داخل الخرج وجمعوا الأغنام في قطع واحد وحملوا الثيران والخيول بما تبقى من أغراض ثم بدأت القبيلة المسير دون تأخير في هجرة الوداع من ارض الاباء والاجداد.

لم يمزق الصمت الليلي سوى صرير عجلات ووقع حوافر جياذ ضعيفة وكان يتناهى إلى السمع بين وقت وآخر بكاء طفل سرعان ما كان تهدئه أمه وكان السير على الأحجار في الليل مؤلماً، حيث كانت الأحجار تهوى من تحت أقدامهم في الهاوية، لكنهم ساروا وساروا إلى الأمام هرباً من بطش ووحشية الأتراك، يحدوهم الأمل في النجاة والنجاح والعيش بكرامه في بلاد الروس.

لاحت تباشير الفجر من جهة الشرق وتراءى الجبل عبر ضباب رمادي متلبد عندما بلغنا مرج هارو كانت تجري هنا السواقي وهبّ نسيم بارد من قمم الجبال أخذ الجميع يغسلون وجوههم، وبعد أن شربوا الماء أقتيدت الخيول إلى النهرومن ثم أقاموا صلاتهم المعتادة ساجدين للجهات الأربعة وبعدها قرروا مواصلة السير، لكننا شاهدنا ثمة فرسان يتوجهون بأقصى سرعة نحونا.

كان هؤلاء عساكر ورجال مصطفى بك الأشرار، أذهل الجميع في

أماكنهم، حتى أن حسن آغا الذي كان لا يحسد على وضعه بيننا أخذ ينصح الشيوخ والنساء والأطفال بمواصلة السير دون توقف أما الرجال فقد هبوا لخوض غمار الحرب، ومع إقتراب العساكر أدير رتاج البنادق وأخذ الرصاص يلعلع في قرقعة، وبدأت بيننا معركة مصيرية وهنا ولسوء حظنا، نفذت ذخيرتنا من الطلقات، والبعض منا كانوا يطلقون النار بين فينة وأخرى ومما هدأ من روعنا قليلاً هو أن القافلة المؤلفة من شيوخ وأطفال توارت وراء الأفق، أما نحن ومع مرور كل لحظة تحوّل وضعنا من سيء إلى أسوأ أننا ابتنا الحيرة، ما العمل وعلى حين غرة دوت صرخة عمريك الجريء موجهاً للعدو.

- أي، إسمعوا، أنني أرى بينكم أكراداً كثيرين، لتعرفوا جيداً بأن حسن آغا بين أيدينا، ولو حاول أحدكم إطلاق ولو رصاصة واحدة في إتجاهنا سيصبح أثراً بعد عين، لذا دعونا نتفق وأياكم سلمياً فمن طرفنا سنقوم حالاً بإرسال رجال منا لإعادة القافلة ولكن ليست هناك حاجة لسفك الدماء، لأننا خسرنا المعركة، لقد أنتصرتم علينا ولكن على ما يبدو، كانت القافلة التي تضم النساء والشيوخ والأطفال قد إقتربت من الحدود، أما نحن فقد أدركنا جيداً بأن عمريك بدأ يناور لكسب الوقت ولإعطاء القافلة الفرصة لتعبر الحدود التي باتت قاب قوسين أو أدنى.

خيم صمّت حذر فترة طويلة وعندما لم يعد رُسلنا، أدرك الأتراك بأنه قد تمّ خداعهم حينئذٍ شهروا خناجرهم وهجموا علينا وهم يصرخون بوحشية كنا جاهزين للقتال حتى آخر رمق وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان لكلينا، فقد أطلّت على حين غرة، فرقة مسلحة تسليحاً جيداً

من خلف ظهرنا وبدأت تضرب العدو ولما رأى الأتراك أن الموقف ليس لصالحهم، لاذوا بالفرار، كان منقذونا مقاتلين أكراد من عشيرة هسنا وعساكر روس، كانوا ينتظروننا على الحدود منذ عدة أيام بعد هذا غمرنا المرح والفرح وأبدينا الشكر الجزيل لقوات الأصدقاء.

إلتقيننا بقافلتنا في الطرف الثاني من الحدود، وقد حطت رحالها ووصلت إلى الطرف الروسي بدت عليهم علامات الراحة شاعلين مواقد النار وفي عيونهم بريق مسرّة، عندئذٍ أخذنا نركع شاكرين الرب الذي حقق حلمنا بالخلاص من بطش الأتراك.

\*\*\*

## على أرض قارص<sup>(1)</sup>

أقبل الظلام وكانت الشمس قد غطست في البحر تماماً إلا أنها كانت لاتزال ترسل بنورها إلى أعالي الأشجار وفوق الجبال وفي حين غمر القرية ظلام الليل، وفي هذا الجو الدامس واصل جياوئيش قصته:

- لأول مرة ومنذ سنوات طويلة نمنا بهدوء ومع بزوغ الفجر وقفنا جميعاً صغاراً وكباراً على ركبنا مرحبين بالغد المُقبل، مبتهلين بالصلوات والدعاء لمنقذي شيخ عدي<sup>(2)</sup> السبعة، وشاكرين الرب على أننا تمكنا أخيراً من عبور الحدود بسلام وأمان لقد تركنا الخيم جانباً وقدمت كل عائلة خروفاً وقرباناً.

توجه إلينا الناس من القرى المجاورة مقدمين التهاني، كان الجميع تغمرهم السعادة بقدومنا، كما يسعد الأخ بلقاء أخيه والأب بابنه.

وفي المساء زارنا رئيس قسم الشرطة في كاليزمان فبعد أن مرّ بين الخيام أخذ يتأمل وجوه الحاضرين، ممعناً النظر في الجميع ومُلقياً بنظرة ثاقبة مسرعة بما حوله، وجمع كافة الرجال مخاطباً أيّاهم:

(1) قارص مدينة تم التخلي عنها من قبل السلطات العثمانية الى روسيا القيصرية اثناء حرب القرم وانشأت السلطات الروسية في نواحيها (14) قرية ايزيدية.  
(2) 36-مراجعة التوضيحات التسلسل (7).

- أهنتكم بوصولكم المُوفق إلى أرضنا لقد قررت السلطات الروسية إعفاءكم من الضرائب والأتاوات لمدة ثلاث سنوات متتالية، وستسكنكم في قرى منطقة قارص حتى الخريف المقبل ريثما تحدّد لكم منطقة للإقامة.

بعد ذلك ألقى عمريك كلمة شكر قائلاً:

- أيها الناس! أيها الأخوة! اليوم أشرقت الشمس فوقنا، أننا نشكر السلطات الروسية لمدها يد العون إلينا، ويسرني أن أوكد لهم بأننا سنكون عند حسن ظنهم.

اتفق السكان المحليون على أن يسكّن كل واحد منهم عائلة من اللاجئين، أخذت الحياة مجراها شيئاً فشيئاً، وبدأنا نتعود الأماكن والقوانين الجديدة.

ذات مرة وفي أمسية من أمسيات الشتاء وما بين عيدي خاج<sup>(1)</sup> وخدر ناقي وبينما كانت الرياح ترفع ندف الثلج وراء النافذة المزخرفة بنقوش الزمهير، دخل إلينا شاب غريب من إحدى القرى المجاورة (كنا نسكن آنذاك عند القاطن الأصلي شافسي سلو).

كان هذا الشاب يمشي بصعوبة حيث خارت قواه بينما كانت شواريه المفضضة بالصقيع مكربة كالأشواك تماماً ووخز الزمهير وجنتيه ويديه بصورة غريبة، حيث تاب إلى رشده بصعوبة.

ربما حدث مكروه! ما الذي جاء بك إلينا في مثل هذا الجو؟

(1) مراجعة التوضيحات التسلسل (6)

ماذا حدث؟ سأله والدي بلطف.

- آه يا جدي، لقد أَلَمَّ بقريتنا الخير والشر بأن واحد، أجب الشاب.

- لا افهمك! ماذا تقصد؟ سأله جدي.

- إنتظر أيها الجد، ساقص كل شيء مهلاً أعطني فرصة ريثما أعود إلى صوابي، قال ذلك وبدأ يفرك يديه بنشاط وإذنيه وخديه.

إنني من غوغارماس لا بد أنك قد سمعت بها، أنها من قرى مراد آغا، لقد أنهكنا تماماً هذا السفاح، لم يكفه ما تقدّم له القرية من زبدة وجبن وصوف ولحم، بل أخذ يطلب الآن النقود، أن هذا العنكبوت يطالبنا بخمسة آلاف، أن مثل هذا المبلغ لم نره قط في حياتنا، ولم نتورع عن الوقوع راععين أمامه وأنحنينا إلى الأرض متوسلين أن يشفق علينا نحن الفقراء عبثاً عندئذٍ قررنا بالاجماع نحن سكان القرية، تقديم الشكوى ضده.

تباحثنا حول هذا الموضوع في المضافة وقد ردوا علينا قائلين:

وهل لديكم وثائق تؤكد على أنكم أعطيتموه مثلاً في السنة الفلانية كذا بقرة وكذا ضأناً وطحيناً... الخ.

أنا، وكما تعلم أناس نؤمن بالأقوال، وشر البلية ما يُضحك، ولكن ليس هنا بيت القصيد، بل أخذوا ينصحوننا: ادفعوا له المبلغ المطلوب وإلا فعذرکم على جنبکم رأيت العدالة يا جدد؟ وعندما إطلع مراد آغا شخصياً على شكوانا زاد من إستبداده ضدنا أكثر من السابق، فقد تمكّن من إقناع إثنين من الفلاحين وأخذهما معه إلى السلطات وهناك وخلال

دقائق أثبت بأننا مدينون له بخمسة آلاف نظموا عقداً وختموه وبدلاً من خمسة آلاف كتبوا سبعة، ثم أطلّ علينا في القرية رئيس مركز الشرطة ومعه القوزاق، ختموا أكياس الطحين بالشمع الأحمر مُهدداً، لو حاول أحدكم فتح الأكياس فليس أمامه سوى سيبريا ولم يمر يومان أو ثلاثة حتى بدأ الأطفال يصرخون جوعاً إعتصر قلبي الألم لدرجة لم أعد أطيع صبراً، أندفعت إلى الأكياس، حطمت الختم وأخذت أخرج الطحين كانت زوجتي تنتحب وهي ترتعد ذعراً وفجأة ومنحيث لا أدري ظهر أمامي قوزاقي ملوحاً إبن الكلب بسوطه، ثم قادني إلى قسم الشرطة حيث فوجئت هناك برؤية عدد غفير من أبناء القرية، كانوا جالسين وقد أنهكهم الجوع وبدأوا بضربنا ضرباً مبرحاً وتركونا رهن الإعتقال وبالأمس أطلقوا سراحنا بسند كفالة لمثولنا أمام المحكمة حالما تنعقد.

- ماذا تنوي الآن أن تفعل أيها المسكين؟ سألتني أمي، قال الشاب وهنا إلتوت سحتته إلتواءً رهيباً وترقرقت الدموع بشحة فوق وجنتيه راکعاً على ركبتيه أمام والدي متوسلاً:

- أن مصير أولادي بين أيديكم ليس لي أقارب قطعاً، أنني أعي بأن حياتكم صعبة أيضاً، لكن أولادي سيهلكون جوعاً، ليس أمامي مصدر أخذ منه نقوداً لأدفع بها ضريبتى هؤلاء الملاعين سينفونني إلى سيبريا.

- هدىء من روعك يا رجل، قال له والدي بمرارة، مقطباً حاجبيه ثم أضاف مهموماً:

- إذن لا فرق بين هنا وهناك، هربنا من الموت، ووقعنا في موت اخر كفى حزناً يا بني، سنفعل شيئاً أن مصيبتك هي مصيبتنا.

هكذا أنصرم شتاؤنا الأول على الأراضي الروسية فقد ذابت في سيول الماء الثلوج المتبقية التي غدت هشة قبل ذلك بفعل الرياح الربيعية الدافئة والرطوبة وراحت الجداول الجبلية تحمحم مجنونة كالرعود، وأخضرت السهول والمروج، أنه بحق فصل الخير والعطاء، حيث أخذ الربيع الحثيث يبعث الحياة والنشاط في الطبيعة.

عندئذٍ حُدِّد لنا المكان الذي يجب علينا أن نبني فيه بيوتنا وهكذا ظهرت عدة قرى جديدة مثل (يامان جاير، شيرنكوي، خراب ديغور، أنغوك، دوزكنجي وغيرها) لم يكن ينقصنا شيء سوى إختيار رئيس لنا. إنصرمت عدة أيام أخرى رائعة استمتعت بلذة الحياة في القرية، معيشتها الفريدة حيث أنني إرتحت بين أهلها من أمثال العم چاويش وموسكوف وآخرين ورحت إسمع قصصاً عجيبة من العجوز چاويش وأنا افكر بمصير شعبي.

لقد دونت الكثير، مما قصّه عليّ چاويش خلال أيامي الأخيرة في كوراكاند، إلى دفتر ملاحظاتي في يريفان محاولاً إعطاء الأبتكار والزخرفة لكلامه.

كان لا بد من العودة إلى يريفان، حيث كانت تتظرنني هناك الأعمال بالإضافة إلى ذلك كنت أرغب في تدوين كل ما سمعته في القرية بأقصى سرعة.

أما نورة ويريميان فكانا مكلفين بالإتصال مع ريبايكوفو توقعت بأن الرد لا بد أن يكون قد وصل، وكنت على عجلة من أمري للإطلاع على رسالته تذكرت حينئذٍ المثل الدارج بين الشعب<sup>(١)</sup> إظهر مرة في السنة تصبح

سلطاناً، مرة في الشهر - ستكون ضيفاً عزيزاً، تأتي كل يوم ستكون مصدر إزعاج) وقد قلت هذا المثل للعجوز چاويش في إحدى المرات أثناء تناول الغداء فأزعجه ذلك جداً وحاول أكثر من الأول إقناعي بالبقاء.

وفي مساء اليوم نفسه توجهت إلى العم موسكوف مستأذناً منه السفر، فضلاً عن أنني عرفت من چاويش بأن موسكوف لديه معلومات عن فريك، لم تتبدل سحنة العم موسكوف محاولاً إخفاء زعله عني لأنني لم أحل ضيفاً عليه بل عند چاويش.

- عمي موسكوف جئت لأستأذنك بالسفر، سأرحل غداً مع طلوع الفجر إلى يريفان.

- مسرور بلقياك يا بني، مع الأسف جداً، كان يجب أن تبقى فترة أطول، أننا لم نشبع بعد من الحديث معاً، متى تنوي زيارتنا في المرة القادمة؟

- من الصعب تحديد ذلك الآن ولكن عند توفر الأماكن سأتي إليكم دون تردد فعندكم الحياة رائعة.

ثم دعاني العجوز إلى تناول العشاء لكنني أبدت له أمتناني وإكتفيت بطلب كأس ماء بارد مشكوراً.

جلبت حفيدة موسكوف كأساً كبيرة من الماء، رحت أقدم الماء لموسكوف إحتراماً له كما هي العادة، لكنه هز رأسه بالرفض متأسفاً:

إشرب يا بني، لينعم الرب عليك بالصحة، أنني أشعر بظماً شديداً، لكن الشمس لم تغب بعد، ها هي وراء الجبل تلتهب كجمرة من نار.

ألقيت بنظرة على موسكوف وسألته مندهشاً:

- ولكن ما علاقة الشمس بذلك يا عم موسكوف؟

- فهناك عادة دارجة بين شعبنا وهي:

إذا مات طفل في إحدى الأسر، فإنه من الجائز أن يشرب شخص ما من الكبار في تلك الأسرة الماء قبل غروب الشمس بنصف ساعة فليس من باب الصدفة يقال: ((القول لكبير العائلة والماء لصغيرها)) تقول الأسطورة الشعبية بأنه تماماً في هذه النصف ساعة ما قبل غروب الشمس، ينطلق روح الطفل الميت إلى الينبوع ليطفئ عطشه وإذا ما قام أحد أقرباء الطفل الميت بشرب الماء، فإن روح الميت وحسب هذا الاعتقاد يُحرم من الماء في هذا اليوم ثم أضاف العجوز متلعثماً: تعرف يا بني لقد اعطى حفيدي الصغير ابن علي روحه للرب في العام الماضي: - فلتحضنه الأرض، قلت له ذلك.

- وليرحم الله أمواتك أيضاً، ردّ العجوز محاولاً تغيير هذا الموضوع قائلاً:

آآه، لم أزر يريفان منذ زمن بعيد، كم أنها رائعة فأول ما أنتهي من أشغالي سأزورك في يريفان، هل تقبلونني ضيفاً عليكم؟ - بكل ترحاب المهم حاول أنت أن تزورنا، قلت له ذلك مبتسماً. ثم توجهت إلى العم موسكوف متسائلاً:

كل ما أطلبه منك يا عم موسكوف هو أن تجيبني عن سؤال واحد، لا بد أنك تتذكر فريك الإبن البكر لعكيد آغا كان هذا يتردد كثيراً على الوالد في ديغور تحدث لي عنه.

- كان شاباً رائعاً، لكنني لا أملك كلمات كافية لوصف جماله ولباقته، فقد غادرنا عام 1917 ومنذ لك لم اسمع عنه شيئاً لقد تعذبت المسكينة نورة لأجله كثيراً كان الشخص الوحيد الذي بقي حياً في عائلتها، لكنه قتل أيضاً كانت عائلة كبيرة وقوية في زمانها، من كان يدري بأن مثل هذه الأسرة، أسرة عمريك بولات ستقرض، لا مناص من القدر، قال ذلك مستغرقاً في التفكير هنيهة ثم أضاف:

لم يعد عكيد آغا من سيبيريا وحيداً بل جلب معه زوجته وأولاده، كانت زوجته انسانية طيبة ولطيفة وعطوفة وهادئة لقد إنصرفت إلى العناية بشؤون جميع أفراد عائلة عمريك بولات من طبخ وغسيل وخياطة..... الخ لقد نالت إحترام الجميع، وفي القرية كان يجري الحديث فقط عنها أما أطفالهم فكانوا من أروع ما يكون خاصة فريك، حيث كان ذكياً جداً، حتى أنه تعلم اللغة الكردية خلال فترة وجيزة أثار دهشتنا أما عن ركوبه الخيل فكان يخطف أنظار القرية إلى مهارته في ذلك.

لقد أدخل عكيد اطفاله المدرسة، ومن المضحك الآن ذكر ذلك فقد أثار ذلك الإستياء والغضب كان إرسال الأولاد للمدرسة يعتبر من الذنوب درس فريك بامتياز وجذب بذكائه الجميع إليه صغاراً وكباراً.

كان يصغي إلى قصصنا وآغانينا بدون نهاية مدوناً باستمرار كل ذلك في دفتره وفي القرية لقبوه بالعالم، فالجميع صغاراً وكباراً كانوا يحبون مجلسه، كان يتحدث إلينا ساعات حول سيبيريا، كم كان يرهبنا أنذاك إسم سيبيريا.

كان يتحدث لنا عن المدن الروسية النائبة، عن الناس وعاداتهم أثار

أحاديثه الطريفة والغريبة دهشتنا لكن ثقتنا كانت كبيرة بفريك فكثيراً ما كان يشكو من والده عكيد آغا الذي أجبر الفلاحين على العمل لصالحه كان فريك أول من نقل إلينا الأنباء حول الثورة في روسيا كانوا يرسلونه من بكثرة.

في ذلك الوقت، جمع فريك شباب القرية وتحدث لهم حول الأحداث الجارية في روسيا وبيّن لنا بأن سعادتنا مرهونة فقط بوضع يدنا بيد الروس الذين يناضلون ضد السلطة القيصرية والأثرياء.

وعندما زار ديغور في المرة الأخيرة، حاول والده منعه من المغادرة، لكن كان ذلك مستحيلاً أتذكر كم كان حزيناً خلال زيارته الأخيرة كان دوماً يكتب أشياء ما في دفتره يُقال أنه كان يكتب الشعر، حتى أنه كتب قصة كبيرة عن الأكراد أحبّ الجلوس والكتابة على الساقية التي كانت تجري بالقرب من دارهم وكان شباب قريتنا والقرى المجاورة يأتون إليه لاتقان فن الرماية أن هذا سيلزمكم قريباً، كان يقول لهم ذلك فريك، كما جرت محاولات لإعتقاله، لكن فريك غادرنا على جناح السرعة إلى سيبيريا. ومنذ ذلك الحين لم نره أبداً، قال ذلك العم موسكوف متأسفاً.

ومع بزوغ الفجر عدت إدراجي إلى يريفان.

\*\*\*



## القسم الثاني



## الزعيم الجديد

بعد عودتي من يريفان كان لزاماً عليّ ترتيب ما دونته في كوراكاند، وتسجيل كل ما سمعته من العم چاويش وموسكوف وإيكم ما أخبرني به صديقي القديم چاويش خلال أيامي الأخيرة في كوراكاند:

فبعد أن إستقرت القبائل في القرى، كان من الضروري تعيين شيوخ لها، وعادةً اختاروا أولئك الذين ناصرتهم السلطات، وسرعان ما تمّ تعيين الشيوخ وبدأت الحياة تأخذ مجراها العادي شيئاً فشيئاً، لكننا بقينا دون زعيم على الأرض الجديدة.

ففي ذات مرة جاء جنود إلى القرية، وتم تبليغنا بضرورة حضور جميع رؤساء القرى والقبائل إلى مركز قضاء كاكيزمان<sup>(1)</sup> للمشاركة في إنتخاب زعيم للعشيرة، وجرت مناقشات في القرى الأيزيدية حول الإنتخابات المقبلة وكان السؤال الوحيد الذي أقلق الجميع هو: لمن سيُمنح هذا الشرف الرفيع؟.

لقد أراد كل مرشح أن يقع عليه هذا الأختيار، وكان هذا بالذات سبباً في حدوث خلافات ونزاعات بين رؤساء القبائل، توتّر الوضع

(1) اويزد: تسمية ادارية في روسيا حتى سنة 1929.

بينهم وأخذ طابعاً عدائياً، لقد سعى شيخ كل قرية كردية إنتخاب نفسه او ترشيح أحد اقربائه لهذا المنصب الرفيع، مُستخدماً جميع الوسائل الإنتخابية من مؤامرات ونمائم وشراء الذمم.

كما أخذوا يبسطون بخنوع موائد الطعام العامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب أمام موظفي القيصر، وراحوا يرسلون رجالهم إلى مركز القضاء في كاكيزمان وديغور الأرمينية، إلى أصحاب الأمر والنهي، بغية الحصول على رضاهم، بالطبع مقابل هدايا ثمينة، وكلما كانت القبيلة غنية وكبيرة، كانت هداياها لاتقَدَّر بثمن لقد قدموا الغالي والرخيص مُستخدمين جميع أمكانياتهم لنيل عطف وإستحسان السلطات، حيث دار الصراع على قيادة جميع القبائل الأيزيدية.

وقبل الإنتخابات بيوم واحد غادر رؤساء القبائل قراهم كل مع حاشيته، بعد أن عبروا ديغور، وصلوا في نفس اليوم قبيل غروب الشمس كاكيزمان، كان في إنتظار هذا العدد

الضخم من الضيوف السكان المحليون من الأرض الذين إستقبلوا الأصدقاء القدامى لآبائهم واجدادهم بحفاوة وترحاب بالغين.

لقد رأت كل عائلة ارمينية من واجبها إلاءة والإهتمام بضيفين او ثلاثة، ففي جميع البيوت حتى وقت متأخر من الليل إستمر تبادل المجاملات على الموائد وهم يشربون بإستمرار نخب الزعيم المُنتخب داعين له بالتوفيق.

في صباح اليوم التالي إحتشد الجميع أمام باب الدائرة ومنتظرين قدوم المفوض العسكري، إذ لم تمض سوى فترة قصيرة حتى إقترب

مُسرِعاً الفيتون وتوقف بسرعة عند مبنى الحاكمية مُحاطاً برهط من القوزاق<sup>(1)</sup>، حيث توقف أمام المحتشدين.

ترجل أحدهم قافزاً من حصانه وأخذ يفتح باب الفيتون، بعد أن نزل المفوض أخذ يتأمل وجوه الحاضرين، وحياهم بايماءة من رأسه ثم أندفع مُسرِعاً إلى الدائرة أمراً الجميع بالسير خلفه، كان رجلاً متوسط القامة، ذا كرش كبير وشعر أشقر وعينين زرقاوين.

وما أن أخذ الجميع أمكنتهم بالجلوس، حتى تمَّ إستدعاء مُترجم ثم خطب المفوض فيهم قائلاً:

- أستهل حديثي هذا بتقديم التهاني لشيوخ القرى الجدد، وكلي أمل أن يخدموا جلالة القيصر باخلاص، لقد دعوتكم هنا لتختاروا بأنفسكم زعيماً لكم ولتتسنى أمامكم الفرصة في ترشيح الشخص المناسب لهذا المنصب الرفيع فأملني أن تنتخبوا رجلاً مناسباً يكون مركز ثقة من قبلكم لأنه سيمثلكم في كل شيء أمام السلطات عن كل ما سيجري في قراكم، وسوف يسكن الرئيس المُنتخب مع عائلته في قرية خراب ديغور مفهوم؟  
- مفهوم، أجاب الجميع بصوت واحد.

- إذن- قال المفوض العسكري- أريد أن إسمع الآن إسم مرشحكم هذا.

- نهض أوسو حسن من قرية بادجانلو وتوجه إلى الحاضرين قائلاً:

(1) القوزاق يختلف الباحثون في تسميتهم واصلهم، احد هذه الاراء يرى بأن القوزاق هم فئة عسكرية من الناس ضمن روسيا.

- إنني أعتقد أن هذا المنصب يليق فقط بعلي بن عمريك بولات.  
- منذ متى أصبح علي لائقاً لهذا المنصب؟ قال ذلك موسى جاسو من  
كوزول كولا والأبتسامة نغمر وجهه.

- هل خانتك الذاكرة يا موسى؟ سأله أوسو ساخراً أنسيت بأن علي  
بالذات كان واحداً من الذين غامروا بحياتهم عندما أجتازوا الحدود  
الروسية لأيصال طلبنا إلى السلطات القيصرية لإنقاذ العشيرة ولولا  
والدة عمريك لكانت العشيرة بأكملها الآن قد دمرت تحت ضربات  
الأتراك وراح أوسو يسرد على المفوض كيف أن عمريك لم يفقد  
صوابه في اللحظة الحاسمة خلال المعركة مع عساكر الترك ونجح  
في الإحتيال على المجموعة التركية متمكناً بهذا الشكل من إنقاذ  
حياة القبيلة بأكملها.

أصغى المفوض الروسي إلى كلمة أوسو بانتباه، وكان يعلم أن علي  
أحد الشبان الثلاثة الذين في وقت ما طلبوا من دوندوكوف الموافقة  
على إنتقال العشيرة من تركيا إلى روسيا، أن هذا بالطبع ميّز علي عن  
الأخرين، فضلاً عن ذلك فإن المفوض أعجب بمنظر علي الخارجي  
وشكله وحرصاً على عدم ضياع الوقت هباً فقد توجه المفوض  
العسكري صارماً للأكراد الذين أخذوا يحملقون إليه بانتباه:

- أعتقد أن أوسو حسن اختار الشخص المناسب من بين الجديرين...  
ومن الآن فصاعداً سيكون علي ابن عمريك بولات زعيمكم  
وستلقبونه فقط بالأغا- علي آغا.

نهض علي من مكانه منحنيماً بأحترام أمام المفوض في هذه اللحظة

وتكلم أحدهم في مهمة غامضة مستاءاً، القى المفوض عليه نظرة صارمة.

- لم هذه الدممة الغير واضحة؟ سأله المفوض غاضباً هل أزعجناك بشيء؟

- لا شيء يا سيدي - تلعثم المقدام - أقول ما تجده مناسباً فنحن نقبل به، أمركم قانون بالنسبة لنا يا سيدي.

لوح المفوض بيده غير مكترث ثم أدار بوجهه نحو المرشح الجديد قائلاً له:

- والآن نصغي إليك يا علي آغا.

- السيد المفوض المحترم - بدأ علي حديثه بلباقة - أيها الأخوان أنني إذ أنحني أمامكم بخشوع بما أوليتموني به من شرف وثقة، أسمحوا لي بأسم جميع الأكراد الأيزيديين الهاربين من الاضطهاد التركي، أن أعبر عن شكري للسلطة الروسية لمدّها إلينا يد العون أيها السيد المفوض، لقد تركنا تركيا هرباً من التمزيق والملاحقة والأبادة التي كنتا نلاقها هناك، ليس فقط على يد الأتراك بل وبمشاركة من أكرادنا الذين إعتنقوا لإسلام وبسببهم تعرضنا للتمزق والمطاردة وروسيا دولة تعتنق المسيحية، وديانتنا الأيزيدية قريبة إليكم ومن هنا فقد فضلنا العيش في هذه الدولة الكريمة لانها تضمن كرامتنا.

لم يكذ ينتهي من عبارته الأخيرة حتى لمح موجة من السخريه والاستياء تغمر الحشد المُجتمع وذهلوا من المفاجأة كما لو صبّ عليهم الماء البارد.

- يا له من آغا جديد! نفوه بذلك شيوخ القرى ضجرًا لها قد علق على صدره الصليب فوراً، أنه ينوي تشتيتنا بهذا الصليب في العالم ويرغب في تجنيد أبنائنا. ساد صمت طويل وأدرك علي أنه إرتكب خطأ فادحاً في كلمته وأحтар في أمره، وهنا أخذ او كيز مموا الكلمة متوجهاً إلى المفوض:

- سيدي المفوض! سوف لن نكف ابداً عن تقديم الدعاء للقيصر الروسي ولدولته العظيمة التي مدّت إلينا يد العون في أحلك الظروف بالنسبة لنا.. ويسرني أن اتمم ما أراد أن يقوله المحترم علي آغا.

ثم ألقى او كيز نظرة خاطفة وعابسة على الجالسين ووجد الإستحسان في عيونهم وتوقف قليلاً ليضيف:

- أيها الحاكم! نحن الإيزيديين أكراد مثلنا مثل الأكراد المسلمين، لغتنا واحدة ورقصاتنا مشتركة وزينا واحد.. لكن الفرق بيننا وبينهم هو أنهم إعتنقوا لإسلام أما نحن فقد حافظنا على ديننا فألهانا هو الشمس<sup>(1)</sup>، ولكننا لسنا بمسيحيين أيضا أيها السيد المفوض لم نهرب من شعبنا بل من الأتراك الذين أرغموا إخواننا على الدخول إلى دينهم وحرصوهم ضدنا وبثوا بيننا العداوة ولهذ السبب لم تجف الدموع في عيون أمهاتنا وزوجاتنا.. هذا كل ما أردت أن اقول ثم إنحني او كيز لممثل السلطة ملقياً النظر على علي الذي غمره الإرتباك ثم جلس في مكانه بصمت.

---

(1) تمثل الشمس قبة الايزيديين ولها رمزية مقدسة لديهم ولهم نصوص دينية مهمه متعلقه بذلك.

منذ ذلك اليوم كبر او كيز أكثر من السابق في عيون أبناء عشيرته، وكان كل واحد منهم يقول في دخيلة نفسه، بأن او كيز كان يجب أن يصبح رئيساً وليس علي ففي جميع القرى الأيزيدية كانوا يكيلون له المديح ويبدون تعاطفهم معه، لأنه لم يتردد من قول كلمة الحق حتى أمام السلطة الروسية.

تناهى إلى سمع علي آغا هذا المديح، وفي كل مرة كان يسخط على نفسه كيف إرتكب هفوته هذه دونما تفكير مثيراً بذلك سخط أبناء القبيلة؟!!! أصابني البكم يا إلهي؟.

لقد إبتعد عنه الشعب بجلاء وكان من الممكن أن يؤدي ذلك نشوء حركة عصيان ضده، حتى أن بعضاً من الأكراد المسلمين الذين إنتقلوا في وقت ما إلى الطرف الروسي أبدوا إستيائهم من التصريح الغريب الذي أدلى به علي آغا، وكانوا يعبرون عن ذلك في جميع اللقاءات مع أصدقائهم من الأيزيديين بقولهم:

- يا للعار! يحرّض علي آغا بعضنا ضد بعض، ما المشكلة إذا كنا نعتنق دينين مختلفين، فالشيء الأساسي هو أن الدم الذي يجري في عروقنا واحد أنه الدم الكردي أليس آباؤنا وأجدادنا كانوا أخوة في الدم!

لقد أقلق كل ذلك وبشكل جدي علي آغا وعائلته وكان لا بد من عمل شيء، وجاءت مثل هذه الفرصة.

في أمسية من أمسيات أواخر الخريف كانت الدنيا تمطر رذاذاً وهبت الرياح في جنون، وفي هذا الجو القارس نبحت الكلاب في فناء دار علي

آغا وكانت مضافة علي آغا كعادتها مكتظة برجال وشبان القرية حيث راح الشيوخ يستعيدون في ذاكرتهم شوقاً وحنيناً وذكريات شبابهم عن المعارك والحملات الغابرة.

- أمعن النظر في الفناء ماذا هناك؟ قال علي آغا لشاب كان واقفاً على الباب.

أنحنى الشاب بإحترام ثم خرج وما هي إلا دقائق حتى أنفتح باب الغرفة وبرز عند مدخله الشاب وبرفقته شخص غريب، شاع صمت حذر على الحاضرين وأخذوا يرمقون الضيف بأنتباه، وحدث المجتمععون من مظهره الخارجي أنه ليس من هذه المناطق في حين دلّت محياه على أنه قطع مسافات شاسعة، فقد أصابه الشحوب وخبأ الوميض في عينيه وأضناه الأرق.

وقف الشاب مرتبكاً على عتبة الدار، أجال بصره في الحاضرين، ثم ركز نظره على علي آغا قائلاً:

- السلام على هذا البيت.

- وعليك السلام أيها الإنسان الطيب، ردّ عليه علي آغا تفضل إدخال ثم طلب منه كما هو مألوف الجلوس.

- أشكركم جداً- قال الغريب- ليس لديّ متسع من الوقت، فأنا عابر سبيل.

- أخبرنا إذن ما الذي جاء بك إلينا؟

سأله علي آغا ومن أنت؟ وما إسم قبيلتك؟

- كنت أظن أن علي آغا قد مات لذا جئت لأعبر عن تعازي.

لم يكذب ينتهي من قوله حتى هجم عليه خادم علي آغا!

- ما هذا الذي تقوله أيها الوغد، ليمت والدك، يا ابن الكلبة!..

- دعه- صرخ عليه علي آغا- فأنت لم تفهم مغزى قول هذا المسكين!

فعلى ما يبدو أن مصيبة ما وراء قدومه إلينا.

أدرك علي آغا مباشرة مغزى قول الضيف، ثم توجه إليه مجدداً  
بأسلوب مهذب ولطيف:

- تبدو على محياك علائم الإستياء لا بد قد أصبت بمكروه؟ ماذا جرى

أيها الشاب؟ قد نستطيع مساعدتك.

أوماً الحاضرون برؤوسهم دلالة الموافقة معه.

أحس الشاب بأختناق في حلقه وأمتلأت عيناه بالدموع ثم بدأ يتكلم  
بصوت منخفض:

- إسمي مامد، من عشيرة كولي جفار آغا القاطنة على بعد عشرة

فرسخاً<sup>(1)</sup> عن تيرماشن، كنت أسكن مع عائلتي في قرية سورمال،

أجبرتني الفاقة على الرحيل، لذا قررت السفر في هذا الخريف إلى

حموي في تيرماشن بغية قضاء شتاءنا عنده حتى الربيع، ريثما ندبر

أمرنا فيما بعد فالله كريم، حملت حماري الوحيد بالعفش، صليت

ثم سلكتنا الدرب مع زوجتي وإبنتي التي كانت في الثامنة عشرة من

عمرها، وبحلول المساء بلغنا قرية تاشنيك التركية.

---

(1) الفرسخ: 1060 متراً (المترجم).

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ سأله أحد الجالسين بلهفة.

- إسكتوا، صرخ علي آغا محتدماً، ثم مال مجدداً نحو مامد، تابع مامد حديثك، كلنا آذان صاغية.

- وحتى وقت متأخر من الليل بحثنا في القرية عن مكان للنوم، إلا أن أحداً لم يفتح لنا بابه، كان الليل بارداً والدنيا تمطر رذاذاً كما هو الآن، وبعد أن فقدنا الأمل في إيجاد ملجأ دافئ، قررنا المكوث في سياج أحد البيوت، غطينا أنفسنا باللبادة والرضوخ للأمر الواقع وعلى حين غرة صرخ أحدهم خلف الباب باللغة التركية، مَنْ هناك؟.

أجبتة بلغته من نحن وماذا نريد وبعد دقيقة سمعنا قرقعة المزلاج الثقيل وفتح الباب على مصراعيه أماننا.

- إدخلوا استحلون ضيوفاً عليّ قال صاحب الدار، ثم أشار نحو إسطبل الخيل لكي آخذ حماري إلى هناك حينما رجعت من هناك لم تكن زوجتي وإبنتي موجودتين في فناء الدار، كنت أعتقد أن صاحب الدار قد قادهما إلى قسم النساء، ولكن في حقيقة الأمر، فإن هذا القدر أخذهما إلى قسم آخر من البيت ولهذا باءت كل محاولاتي لمشاهدة هذا القسم النسائي بالفشل، وحينما دخلت الغرفة كان صاحب الدار يفرش لي وله بسرعة غير مفهومة غمرني شعور مقلق غريب لكنه مؤقت حيث أخلدت إلى النوم من جراء التعب والأرق. إستيقظت في منتصف الليل على صراخ زوجتي هرعرت بخفة إلى فناء الدار بملابس النوم وهنا ماذا رأيت!، كانت إبنتي متمددة على

أرض رطبة وهي ترتجف كما يحدث عادة في لحظة الموت وتعض الأرض بأسنانها وهي تزعق ((بابا، بابا))، أما الزوجة فكانت كالمجنونة تبكي وتولول وتضرب صدرها بيديها وتمزق شعرها، أما أنا فأصبحت كالمجنون ووقفت كالبليد متفرجاً على هذا المنظر المُنخيف.

وما أن ثبتُّ إلى رشدي حتى تذكرت فجأة، بأنه عندما ركضت إلى فناء الدار لم يكن هذا اللئيم موجوداً في فراشه، وهنا فقدت وعيي غضباً وصرخت:

- أيتها الزوجة ماذا جرى هنا؟

- آآه يا إلهي، أنه لا يزال يسأل وراحت تزعق بصوت أقوى، من الأفضل لك أن تموت من أن تتحمل هذا العار أيها المسكين آآه يا إبنتي فديتك بروحي آآه كان من الأفضل أن يقتلني هذا المجرم المشين من أن يمس شبابها.

وأخذت تتحدث عبر دموعها وبصعوبة كيف قادهما صاحب الدار إلى غرفة مظلمة مغلقة، وفي منتصف الليل وبينما كانتا تغطان في نوم عميق، أنسل خلسة كالقط إلى إبتنا، حملها وهي نائمة ثم دنس شرفها.

إعتصر قلبي الماء، صرخت غضباً، أنتابني رغبة جامحة بأقتحام البيت وتحطيم رأس هذا السافل، لكنني شعرت فجأة بأنه قد خارت قواي وأنهارت، وأعتراني الوهن تماماً وخذلتني قواي، ثم عدت إلى صوابي وأدركت بأن المصيبة لا تزول بالبكاء والعيول، وعلى أن الصراخ قد يتسبب في إستيqaظ القرية عن بكرة أبيها، وعندئذ سينكشف عارنا أمام الجميع لذا هدأت زوجتي وإبنتي وأخرجت الحمار من الإسطل وقبل بزوغ الفجر خرجنا من القرية بهدوء.

- وهل تعرف داره؟ قاطعه أحد الشباب، وتلاً في عينيه نار الثأر.

- نعم، أتذكر.. فبعد ما بلغنا أطراف القرية، تركت زوجتي وإبنتي في الوادي، أما أنا فقد عدت أدراجي إلى هناك بهدوء للثأر من هذا النذل وغسل عاري لكنني لم أتمكن من أخذ الثأر، فقد لاحت تباشير الفجر وبدأت القرية تستيقظ رويداً رويداً، لذا قررت تأجيل الثأر إلى اليوم المناسب.

أصغى الجالسون إلى مأمّد بصمت وبوجوه عابسة فقد هزّت هذه القصة الحزينة القلوب وإعتبر كل واحد منهم بأن وصمة العار هذه تخصه أيضاً وعلى أنه يحق لهم أخذ الثأر من ذلك الشخص الذي دنس شرف مامد.

- تقول بأنك تعرف البيت؟.. سأله علي آغا مفكراً ومُقطباً حاجبيه الكثيفتين وإستشاط وجهه غضباً.

- لقد عرفت من هو هذا الرجل! قال ذلك بغتة رجل في متوسط العمر اسمه عباس گولي وكثيراً ما فرض عليّ العمل بأن أحلّ عليه ضيفاً فهو من كبار أثرياء قريته لقد إرتكب سابقاً مثل هذه الذنوب، لكن الناس وخوفاً منه لزموا الصمت يربض بيته عند سفح هضبة نمت خلفها شجرتان ضخمتان من الجوز مترأمتا الأغصان أليس كذلك يا اخ مامد؟.

- هو بالذات.

- هكذا إذن، قال علي آغا، مُبرماً شاربه ثم أضاف مُحتدّاً:

إسمع مامد، سأقص شواربي هذه وسأضع على رأسي محرمة النساء بدلاً من الطربوش، لو لم يجلب إليك رجالي الشجعان في هذه الليلة بالذات، رأس هذا النذل ثم توجه بحديثه المجلس:

- أيها الأخوان، أن صرخة الثأر تناشدنا وتطالبنا بمحاسبة عباس گولي هذا وفق قانون آبائنا الأكراد لقد كان الأتراك يندسون شرفنا وينهبوننا في الطرف الأخر من الحدود كما يحلو لهملكنه من الفاحش جداً أن نسمح لهم أن يفعلوا فينا ما فعلوه سابقاً هناك، فلدينا شجعان سينفذون الحكم العادل اليوم وقبل بزوغ الفجر أجال علي آغا ببصره على الجميع واحداً تلو الآخر وسمع من كافة الجهات كلمة ((أنا، أنا)).

إلا أنه كان من غير المعقول إرسال جميع الراغبين إلى القرية الأخرى، لأن طقطقة سنابك الخيول في مثل تلك الساعة المتأخرة، ربما كانت تثير الشكوك لدى السلطات وهنا أخذ الكلمة حمزة كوردو ذاك الرجل الذي ادعى أنه يعرف هذا التركي:

- أيها الأخوان! أتمنى لكم النجاح والإزدهار لباركنا الرب وليحفظ دوماً فينا الأيمان والأخلاص أن الذود عن شرف أحدنا اليوم يعني الدفاع عن شرف الأباء.. ولكن تذكروا بأن القوانين تختلف هنا فإذا ما عرفت السلطات الروسية بذلك فلا مناص من المصيبة لابد من إختيار عدد من الشجعان والتوجه إلى تاشنيك بحذر سأذهب أنا ومعني شابان جريثان.

- وأنا؟ سأله مامد مرتبكاً ثم نظر هو إليه.

- أما أنت يا بني، لا بد أن الطريق قد أرهقك وما عليك إلا الراحة الآن وبدونك يمشي الحال، قال له ذلك عجوز خط الشيب رأسه.

- أرجو أن لا يعكر صفو حياتكم أي مكروه أيها الأخوة قال ذلك مامد بإسلوب عاطفي وظهرت على عينيه دموع الفرح والشكر ألا يمكن أن تخطئوا بيته صدفة؟

- كُن مطمئناً أيها الأخ- قال حمزة بثقة- هنا لا يمكن أن أخطيء دعا حمزة إليه إثنين من الشبان وهمس في إذنيهما بشيء ما وبعد أن أنحنى للمجلس خرج معهما، وما هي إلا دقائق حتى تناهى من الخارج إلى سمعنا وقع حوافر جيار راکضة.

إفترق المجلس شذر مذر بعد أن مدحوا شجاعة علي آغا وذكأؤه وتمنوا له ليلة هادئة.

لم يبق في المضافة سوى علي آغا ووالده عمريك آغا وأخيه عكيد والمسكين مامد شرعت النسوة بسرعة في تحضير طعام العشاء، لكن الوقت لم يكن مناسباً للطعام، وتناول علي آغا قليلاً من الرز، لكنه وبعد أن لاحظ الوجوه الحزينة والمهمومة للآخرين، همّ بالنهوض وسار منكساً رأسه حزناً وهكذا، أنهتوا من تناول الطعام بهدوء دون الشبع كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، لكن أحداً لم يفكر بالنوم، لأنهم كانوا ينتظرون بنفاذ صبر وقلق بالغ وصول الشباب وكان مأمداً أكثرهم حسرة وعذاباً:

فقد أقلقه مصير حمزة كوردو ورفاقه، لا قدر الله أن يصيبهم مكروه وكان مامد يشعر في دخيلة نفسه بأنه قد يتسبب في إلحاق الأذى بهم.

مضى وقت آخر دون أن يطرأ أي جديد حز الألم والحزن في نفوسهم، لقد أدرك الجميع ماذا ينتظرهم لو عرفت السلطات بما حدث راح علي آغا يتمشى في الغرفة جيئةً وذهاباً والقلق ينتابه، نافثاً سحب الدخان من غليونه بشكل مستمر وهو يحرك مسبحته في قلق وعلى عجل، وفجأة بدأت الكلاب تنبح نباحاً عنيفاً من وراء النافذة.

ها قد جاؤوا، هتف علي آغا بصوت عال وأندفع نحو الباب ولم يكذ يفتح الباب حتى ظهر عند عتبه كل من حمزة ورفاقه، لم يتفوه حمزة ببنت شفة بل اكتفى برمي قميصٍ ملطخ بالدماء وقبعة عباس گولي أمام مامد.

ذهل مامد وتجمد في مكانه هنيهة، ثم أطرق رأسه عندئذٍ فقط جلس على ركبته أمام أقدام من غسل عنه وصمة العار قائلاً:

- إخوتي! فديتكم بنفسي وعائلي لقد أخذتم ثأري من عدوي وغسلتم عني وصمة العار أقبل أياديكم الجريئة وفولاذ خناجركم ولتكن حياتكم أزلية كما هو الحال بالنسبة للشمس في كبد السماء.

ثم أخذ يرفع من الأرض قميص عدوه الملطخ بالدم جعل يتفحصه من جميع الجوانب وبعد أن مزقه صرخ محتداً:

- خذ يا ابن الكلب، لقد نلت جزاءك وأدرك الآن كيف تدنس شرف الفتيات البريئات...

تبادل علي آغا وشقيقه ووالده نظرات الفخر والإعتزاز وفي عيونهم بريق مسرة.

- أخي مامد - قال علي آغا برزانه وجدية، لقد تأرنا بشرف إبتتك أنني لم أبخل بشيء في الدفاع عن شرف آبائنا وأستجبت لنداء الضمير: فالظالم نال ما إقترف من جريمة وهنا تمهل علي آغا وأرجو ألا تفهم خطأ يا مامد، أن بقائك الآن عندنا يعتبر مجازفة فبدءاً من اليوم سيحتاج المنطقة كلها نبأ مقتل هذا النذل وسيبدأ العسكر في البحث عن القاتل في كل مكان، والسلطات الروسية كما تعرف، لن تشكرنا على ذلك فمن الأفضل أن تسافر حالاً إلى حميك قبل أن تستيقظ القرية ولينعم الله عليك بعطفه فهناك قد تبقى بعيداً عن أعين السلطات هذا صحيح يا آغا ثم أوماً برأسه أمثالاً وطاعة قائلاً أنا مدين لك.

- لا، لا يا مامد أشعر بالخرج من ذلك، رد علي آغا بحماس فكل ما عملته هو تنفيذ وصايا الأباء والأجداد.. أمضي لشأنك والله برفقتك. وحينما أنصرف مامد إقرب علي آغا من المنتقمين الشجعان عن كذب وقبَل جبين كل واحد منهم ثم قال:

- هنيئاً لكم إخوتي وليكن الحليب الذي أرضعتكم الأم الكردية طاهراً، وفي المستقبل، يدفعكم إلى النجاح! والآن إذهبوا إلى بيوتكم.

حينما لاح في النافذة أول خيوط الفجر، فتح علي آغا عينيه جلس ببطء وإستند بظهره إلى جدار الغرفة وكان لا يزال في عينيه نشوة النعاس، ثم وضع يده وراء ظهره وتمطى حسب ما أمكن، ثم أرخى عضلاته واغمض عينيه شاعراً بالمتعة وراغباً في الخلود إلى النوم الهادئ، حيث إستبد به النعاس مجدداً، لكن سرت في كيانه قشعريرة عندما سمع صهيل الخيل وتذكر مباشرة حادثة الليلة، كان لدى علي آغا ما يفتخر به

لقد أثبت للجميع بأنه جدير بلقب الآغا ولا بدّ الآن أن يكف الحاقدون عن الهجوم عليه.

راحت الشمس ترتفع رويداً رويداً في القبة السماوية وخرج علي آغا إلى فناء الدار كانت المواقف مشتعلة هنا وهناك، في العشب اليابس والعيدان الجافة، وتصاعدت أعمدة الدخان الأسود إلى السماء في جو هادئ.

بعد الفطور، أمر علي آغا خدمه بأسراج فرسه وسافر إلى ديغور الأرمنية وقبل وصوله إلى دائرة الشرطة، أبصر من بعيد حشداً كبيراً من سكان تاشنيق وعدد من القوزاق.

وصار قلبه يخفق مضطرباً وإقتنع تماماً أن السلطات عرفت مشاركته في حادثة القتل بالليلة الماضية أراد أن يرجع بفرسه لكي لا يقع بين أيديهم كان من الصعب أن يتحمل مثل هذا العار، أنه لأمر يصعب تصوره لكن علي آغا ذهل وتجمد خوفاً في مكانه، أندفع نحوه فارسان من القوزاق وقف علي آغا متردداً خائب الأمل وهو يصفر مرتبكاً، وبدأت ركبته ترتجفان وتفصد جبينه عرقاً بارداً.

- صباح الخير يا علي آغا!- رحب به القوزاقيان، تلعثم علي آغا ورّد سلامهم بصعوبة، إبتسم القوزاقيان.

عندئذٍ فقط مسح علي آغا العرق المتصبب على جبينه، متنفساً الصعداء وأخذ يسألهاما بهدوء أكثر:

ما قصة هذا الحشد من الناس هناك؟

- ألم تسمع بحادثة الليلة الماضية؟ أنها أصبحت حديث كل المنطقة.

- لا، لم أسمع بذلك، ماذا حدث؟

- قتلوا عباس غولي في تاشنيق أجاب أحد القوزاق.

- عباس غولي؟ سأله علي آغا متصنعاً إبداء الأسف مغيراً ملامح وجهه ومقطباً حاجبيه يا للمصيبة أضاف علي آغا.

أنطلق الفرسان نحو مبنى دائرة الشرطة، شقوا طريقهم وسط الحشد، تناهى إلى سمع علي آغا صوت أحدا لأترك يقول للآخر، ((الله يشهد عليّ أن إبني لم يقتل عباس غولي)).

حينما دخلوا إلى الدائرة، كان ساديموف رئيس الشرطة يستجوب ثلاثة شبان من تاشنيق، كان هؤلاء يؤدون القسم وأيديهم على قلوبهم بأنه لا علاقة لهم بقتل عباس غولي.

أمر ساديموف بإدخال زوجة المقتول كان صوت الأرملة التي لم تتحمل المصيبة يكاد لا يُسمع من تحت الحجاب راح ساديموف يسألها فيما إذا كانت تشك في أحد من الشبان الثلاثة بقتل زوجها هزت الأرملة رأسها بالنفي ثم أضافت:

ولو أنهم كانوا على علاقة سيئة مع زوجها، إلا أنهم لم يتجرؤوا أبداً على الإقدام على قتله ثم تحدثت كيف أنه في الليلة السابقة بات عندهم أحد الاكراد برفقة زوجته وإبنته وكانوا ينوون السفر صباحاً إلى إحدى القرى، لكنها لم تتذكر إسم القرية إلا أن هذا الكردي إختفى قبل الفجر بوقت طويل وفي الليلة التالية وجدت زوجها مقتولاً.

- وهل تتذكرين إسمه؟ او من أي منطقة هو؟ سألتها ساديموف.

- كلا أيها الآغا، لا أعرف شيئاً أجابت زوجة عباس گولي بتأوه وحسرة  
ثم أنخرطت في البكاء تأثراً وغيظاً.

- هكذا إذن! هتف رئيس الشرطة بلهجة حازمة ثم أخرج من جيبه علبة  
دخان، وبعد أن أشعل سيجارته وضافت عيناه من الدخان راح يلقي  
نظرات ثاقبة إلى وجه علي آغا وعاود الكلام:

ماذا تقول يا علي آغا؟ هل سمعت ما قالته هذه المرأة؟

دون أن يحوّل بصره عن علي آغا عبر سحابة دخان التبغ.

- أطال الله في عمرك يا سيدي! الآن سمعت بهذه المصيبة، أحلف لك  
بكل المقدسات، لو إرتكب هذه الجريمة، أحد من قبيلتي، سأخنقه  
بيدي، لكنني لا أعتقد أن يكون أحد من الأكراد قد قام بهذا العمل  
فأنت على دراية أيها السيد القائد بأن قريننا تقع بعيدة عن تاشنيق  
وليس لنا معهم أي خلاف وهل يعقل أن يتجرأ أحد من الأكراد  
بإرتكاب مثل هذا العمل الخسيس على أرض القيصر الروسي.

- من يعرفكم..فأنتم الأكراد شعب غير هادىء على كل حال، أنني  
أكلفك بتجهيز فرسان للبحث عن ذلك الكردي الذي بات في منزل  
عباس گولي أريده هنا عندي ولو كان من تحت الأرض، إذهب  
علي آغا فأنت حر.

إنحنى علي آغا ثم خرج بصمت في الفناء جلب الخفير فرسه في هذا  
الوقت ظهر (علي ولو) رئيس الأكراد المسلمين، وسلم على علي آغا  
ثم دخل الغرفة لم يكن علي آغا قد إنتهى من حديثه مع الخفير، حتى

ظهر علي ولو في عتبة الباب منفعلاً من حديثه مع ساديموف، ألقى نظرة  
ماكرة على علي آغا إبتسم ثم قال:

- أمرني مثلك بالبحث عن ذاك الرجل الذي حلّ ضيفاً على عباس  
گولي أن أوامر رئيس الشرطة قانون بالنسبة لنا، نحن خدم القيصر  
سأرسل رجالي حالاً للبحث عنه في جميع قرانا، ربما سمع به أحد  
ما، أتمنى لك التوفيق يا علي آغا.

- الله معك- رد عليه علي آغا بطريقة جدية على رجالي أن يبدلوا  
قصارى جهدهم في سبيل الأتيان بهذا الكردي إلى ساديموف.

إقترب علي آغا من قريته خراب ديغور وعلى طول الطريق كان في  
قراءة نفسه متكدرًا من كلمات علي ولو أو بالأحرى من أسلوب نطقه،  
هل يعقل أن يكون قد ساورته الظنون في شيء؟.

في فناء داره وقع نظر علي آغا على فرس أصيل وراء مربط الخيول،  
من يمكن أن يكون ضيفه؟ خفق قلبه بشدة وبعد أن سلم الحصان للخدم  
الذي هرع إليه دخل البيت لم يكن هناك أحد في المضافة.

- عگيد، أين أنت؟ ناداه علي آغا.

- أنا هنا يا أخي ردّ عليه عگيد آغا داخلاً عتبة باب المضافة.

- هل لدينا ضيف؟.

- طار إلينا على جناح السرعة فارس من بكر بك من المقاطعات  
المجاورة.

- من قبيلة جمال الدين في تير ماشين؟ قاطع علي آغا أخاه الصغير  
مقطباً حاجبيه ماذا يريد؟ أدعه إلى هنا.

راح عكيد آغا يدعو الضيف وكان هذا الأخير شاباً عريض المنكبين  
وذا خصر ضيق وشعر أشقر.

- أهلاً وسهلاً أيها الضيف العزيز، ما الذي جاء بك إلينا؟ كيف صحة  
بكر بك المحترم.

- الشكر لله ولرسوله أنه بخير وبصحة جيدة لقد أرسل إليك حصاناً  
أصيلاً بل أفضل ما لديه هدية وكلفني بتبليغك بأن شجاعتك أثارت  
الإعجاب في نفسه.  
إبتسم علي آغا فاهماً قصده:

- أتمنى له حياة سعيدة بلغ سيدك بأنه شرف كبير لي أن أمتطي صهوة  
حصانه الرائع أما بخصوص شجاعتني، فأني ببساطة قمت بواجبي  
أنتم إسلام ونحن أيزيديون، لكن كلانا ملزمان بعدم النسيان بأنه  
دم واحد يجري في عروقنا، وأن مد يد العون لبعضنا البعض في  
اللحظة الصعبة هو واجبنا المقدس.

- والآن أرجو أن تأذن لي بالإنصراف يا علي آغا، فالطريق طويل كما  
تعرف، قال خادم بكر بك وألقى نظرة متسائلة على علي آغا.

- شد الرحال والله معك، فالنهار يقترب من نهايته - قال علي آغا- ثم  
مال إلى أخيه عكيد متسائلاً:

ماذا تريد أن تقول في لحظة الوداع.

- رحلة موفقة، بلغ سلامنا وإحترامنا إلى بكر بك وهذه البيشكه ش<sup>(1)</sup>،  
وقدم عكيد آغا إلى الرسول سيفاً من الفضة ذا قبضة مطعمة ثمينة.

(1) بيشكه ش: كلمة كردية تعني {هدية}.

أنحني الشاب حتى الخصر عرفاناً بالجميل، ثم أمتطى سهوة السرج  
وهمز حصانه.

أما الأخوان فقد إلتقت عيونهما مبتسمين وتوجها نحو المرابط لرؤية  
الحصان الذي أرسله بكر بك.

في المساء وكالعادة إكتظت المضافة بالناس، كان الجميع ينتظرون  
كلمة من رئيسهم. وتحدث علي آغا:

- أيها المحترمون، أيها الأصدقاء! أعتقد الكل موجود، هل من غريب  
بيننا؟

- نحن ومعنا أرواح أجدادنا، هتف أحدهم مازحاً.

- كنت اليوم عند ساديموف، فالروس على دراية بأنه في عشية مقتل  
عباس گولي بات عنده أحد الأكراد، وأنني إذ أبدي قلقي خوفاً  
من أن ينكشف عملنا البطولي العادل حينئذ لا مناص من المصيبة  
وسيقضي الكثيرون منا منغاه في سبيريا، لذا فأن كل ما حدث يجب  
أن يدخل في طي النسيان فأنتم لم تسمعوا شيئاً ولم تروا شيئاً...  
- صحيح ما تقوله! - أيده الجميع.

- إلا أن هذا ليس كل شيء - تابع حديثه علي آغا - لقد أمرنا ساديموف  
وبأي ثمن معرفة ذلك الشخص الكردي الذي حلّ ضيفاً على عباس  
گولي ما رأيكم بهذا الصدد؟

- يجب تضليل ساديموف - أبدى بهذا الرأي أحد الشيوخ - فلنرسل  
رهطاً من الفرسان إلى القرى دعهم يسألون السكان شكلياً،  
ويعملون بعضاً من الضجة ثم يعودون فارغين.

- فكرة ذكية أيها الوالد - قال علي آغا مبدياً موافقته للفكرة- هذا ما سنفعله.

ثم توجه إلى رؤساء العشائر قائلاً:

مع بزوغ الشمس جهزوا فرقاً قوامها ما بين عشرة إلى خمس عشرة شاباً لهذه الغاية، ولن يغيب عن بالكم إيعازهم بأن تبقى الخطة سرية ويجب أن تبقى هذه الحادثة في طي الكتمان.

تفرق المجلس ولم يبق في المضافة سوى علي آغا وأخيه عكيد، عندئذ توجه عكيد آغا إلى أخيه علي آغا قائلاً: لن أتمكن من نسيان هدية بكر بك ما الذي جعل هذا المسلم يبدي هذا السخاء المفاجيء معنا؟

- ولم الدهشة يا عزيزي، أنسيت، ألم تتذكر بأن مامد توجه برفقة زوجته وإبنته إلى والد زوجته في قرية تير ماشين فعلى ما يبدو أنه تقاسم مصيبتهم مع بكر بك، وتحدث له كيف أننا غسلنا العار عنه وأخذنا الثأر عن ذلك من التركي القدر، لهذا السبب أرسل بكر بك حصاناً تقديراً لي، كما أن مامد من عشيرتهم لكنه يعيش في قرية أخرى.

أن الحديث عن شجاعة وشهامة، علي آغا ابن عمريك بولات إزداد يوماً بعد يوم كانوا يكيلون له المديح في كل القرى الكردية، ولم يمر يوم إلا وأرسل إليه أحد من الأغوات أو البكوات هدايا ثمينة أو جاء بنفسه ليعبر له عن إحترامه.

مضى بعض الوقت على هذا الشكل، وذات مرة أنتشرت الإشاعات في القرى بأن أحد الفقراء وإسمه (عطو سلطان) من سور خولي

خطف فتاة وأخذها إلى خراب ديغور عند علي آغا، ويحدوه الأمل في أن يلقي أسباب الراحة وعدم تركهما فريسة لأهل الفتاة الغاضبين والمتعطين للدماء.

- أن علي آغا رجل حصين وعاقل.. فهو يعيش وفق عادات وتقاليد العشائر الكردية أنني واثق تمام الثقة، أنه سيفهمنا ولن يطرنا هذا ما قاله عطو في الطريق لحبيته أكشان.

وفي الصباح كانا واقفين عند مدخل بيت علي آغا، قادت النسوة مباشرة أكشان إلى جناح النساء أما عطو فقد دعاه الآغا.

- ما الذي سنفعله الآن يا عطو؟ نظر إليه علي آغا نظرة المحقق لِمَ تلتزم الصمت أيها البطل الهمام، لقد وضعتني في وضع محرّج ماذا أقول الآن لوالد البنت؟

- آغا! قال عطو مطرق الرأس، إن شئت فإطرنا أو إقتلنا ثم مدّ إليه الشاب خنجره، لكنني أرجوك أيجاد مخرج لمشكلتنا اعترف يا آغا أنني أرتكبت إثماً، لكنه لم يكن أمامي منفذاً آخر فمئذ سنوات عديدة نحب بعضنا البعض، لعنة الله على الفقر، فقد كان سبب رفض أهلها لزواجها مني وفي الأيام القليلة القادمة كان سيتم عقد قرانها لشاب ثري من بازار جوخ، حيثئذٍ قررت خطف أكشان وإذا رأفت بنا وعيّنت لي عملاً ما سأحاول لم بعض النقود لوالدها، أن مصيرنا بين يديك يا آغا!.

- ما العمل الذي تستطيع القيام به؟ سأله علي آغا.

- كل ما يقوم به الفلاح من رعي الغنم والعمل في الزراعة وحرارة الأرض والإعتناء بالخيول فإختر لي عملاً حتى ترى بنفسك أمكانياتي، إشفق علينا يا آغا.

ألقي علي آغا نظرة مطولة على عكيد وجعل يفكر طويلاً بارماً شاربه الكثيف.

- ما رأيك يا عكيد؟ - سأله علي آغا بصوت خافت.

- ماذا يمكن القول هنا، هز عكيد كتفيه وألقى نظرة على عطو الجالس،  
- أنه شاب مسكين، جاء إلينا، واثقاً من أصلتنا وسلمنا مصيره، هل من الممكن طرده فعلاً؟

على كل حال يلزمنا راع، حدّده زاوية في غرفة الخدم ودعه يسكن مع حبيته، أما الآن فمن الضروري إرسال جماعة إلى والدها، فأني أعتقد أنه سيحترم طلبك وسيعفو عنه ومتى ما جمع عطو مبلغاً من المال ويدفع المهر سنصلح بينهم.

- وكيف سينظرون إلى هذا الأمر جماعة السيبكيون؟ فأنت تعرف أنهم يكرهون قبول الغرباء في العشيرة.

- لكننا عندما هربنا من تركيا، كنا عشيرة كاملة لا شخص واحد ومع ذلك فقد إستقبلنا الغرباء ورحبوا بنا اجمل ترحيب وجعلونا شركاء لهم في المؤن والخبز والدفء.

أيعقل أن نطرد هذا المسكين مع حبيته؟. نحن إبننا عمريك بولات لا يليق بنا أن نتصرف مثل هذا التصرف.

لقد سرّ علي آغا بهذا الجواب وقال:

- لقد أدخلت كلماتك الفرح إلى قلبي يا عكيد، أنت جدير أن تكون  
إبناً لأبيك والآن دل عطو على قطع الغنم الذي سيقوم هو برعايته.  
بالغ عطو في الإطراء وشكر له ثم حاول أن يقبل يد علي آغا، إلا أن  
هذا الأخير سحب يده وسار عطو خلف عكيد آغا بعد أن أنحنى لعلي آغا.  
سرعان ما تهادى إلى مسامع علي آغا صوت أخيه عكيد من خلف  
الباب يقول لأحد ما: مرحبا بكم في دارنا، أهلاً وسهلاً.  
فتح الباب ودخل علي ولو مع إثنين من حراسه، أسرع علي آغا للقاءه  
ماداً يده وهاتفاً بقوله:

- تفضل، أشرقت الأنوار، يا أهلاً وسهلاً! وما أن أنتهيا من تبادل  
التحيات حتى توجه علي ولو بسؤال إلى علي آغا مضيقاً عينيه  
بدهاء:

- ماذا فعلت يا علي آغا: ألم تقبض على القاتل؟

- أصبح هذا السافل أثراً بعد عين - قال ذلك علي آغا ملوحاً بيده وهو  
يحوّل نظره من نظرة علي ولو الفاحصة وأنت ماذا فعلت؟ سأله  
علي آغا.

- لو كنت قد قبضت عليه لما سألتك عن ذلك؟ إبتسم علي ولو ساخراً  
وتطلّع على حراسه الذين كانوا ينتظرون أوامره، ثم أضاف:  
- إذن، دعنا نذهب إلى ساديموف لنخبره بأن البحث لم يعط ثماراً.

- لدينا وقت كاف - أجب علي آغا- من الأفضل أن تقول لي ماذا جرى مع المتهمين؟.

- لم يتمكن ساديموف في إثبات التهمة ضدهم لذا أخلى سبيلهم قال ذلك علي ولّو محققاً بنظرات ثابتة إلى وجه علي آغا لم يتحمل علي آغا نظرة محدثيه الثابتة فهبّ واقفاً على قدميه قائلاً:

- حقيقةً ، كنت أنتظر قدومك دعنا نذهب إلى ساديموف .

توجه القادة برفقة مجموعة من الفرسان إلى ديغور الأرمنية إلى دائرة الشرطة، حيث كان ساديموف ينتظرهم هناك بفارغ من الصبر وكان متأكداً من أن رؤساء العشائر الكردية (المسلمين وإلأيزيديين) سيجلبون المجرم الهارب ولو من تحت الأرض، وسيلقون به أمام قدميه ولكن أماله تبددت عندما فتح الباب بتردد وظهر في عتبه كل من علي آغا وعلي ولّو.

ألقي ساديموف عليهما نظرة شرسة وسألها ممتعضاً.

- بم جتّما؟ أين المجرم؟

- يا سيدي أين سنلاقيه، إذا لم نعرف أين نبحت عنه، قال علي ولّو وهو يحوّل نظره عن ساديموف فالمنطقة لم تعرف عنه شيئاً ولم تسمع به قطعاً وبالتالي من يدري أن كان هناك بالفعل ضيف حقيقي؟ أم لنا يا سيدي أن لا نتق بالنساء..

- هيااااا كف عن هذا الهراء! - أنفجر ساديموف غضباً والشرر يتطاير من عينيه،- ليست لها أية مصلحة في الكذب!..أنني متأكد جداً بأن هذا من عمل الأكراد، فعلى ما يبدو أنكما متورطان في الجريمة.

- يا سيدي المحترم- تحدثت علي آغا بأرتباك، لم نر أبداً هذا المجرم.  
- علي آغا- قاطعه ساديموف بنبرة صارمة - أعتقد بأنني أعمى  
وأطرش؟ قل لي من فضلك:

ما هو السبب المفاجيء لقيام القادة الكرد من جميع الأطراف  
بأرسالهم رسلاً إليك وبحوزتهم هدايا ثمينة؟ فضلاً عن ذلك ماذا دفع  
عطو سلطان خاطف الفتاة إلى اللجوء إليك أنت الإيزيدي ولم يلجأ  
إلى بگوات المسلمين. أأنت أنت الذي أكدت بالأمس بأن المسلمين  
مرتدون عن الدين؟ واليوم تقوم بحماية نفس هذا المسلم؟، ثم ألقى  
ساديموف عليهما نظرة مهددة مضيئاً:

- من الأفضل لكما أن تعترفا أين أخفيتما هذا المجرم! وإلا أقسم  
بشرفي لا تنتظروا مني الرحمة!، فتح علي آغا فمه محاولاً الكلام  
لكن ساديموف أمرهما بالخروج.

- والآن هيا أنصرفا، قال ذلك ساديموف من بين نواجذه وأنصحكما  
بأن تفكرا ملياً بهذا الأمر، ولتدركا بأن روسيا ليست تركيا، فهنا  
لها قوانينها، ومن الآن فصاعداً خذا هذا بعين الإعتبار بأن السلطة  
ستعرف كل شيء، حتى أنا سماعنا تلتقط أزيز الذباب في القرية  
المجاورة قال ذلك بلهجه تحذريه لا تخفي نبرات التهديد في  
ثناياها.

- خرج القائدان الكرديان بصمت، ومن وراء ظهرهما سمعانبرة ساديموف  
التهديدية: ((فكروا جيداً، وإلا فأن الندم لا ينفعكم بشيء!)) ففي هذه  
اللحظة كانا متهمين تماماً من قبل الموظف القيصري، ولو كان الأمر

بأرادتهم لقطعوا رأس ساديموف هذا دون تردد، (مخلوقات كردية)  
تردد صوت ساديموف من الداخل مرة أخرى.  
مدّ علي ولو يده لا إرادياً إلى مقبض خنجره، لكن علي آغا لاحظ  
ذلك وأمسكه بشدة من مرفقه.

- لا ترتكب حماقة! قال له علي آغا بأسلوب مرن وأخوي دعه ينفجر  
هذا المجنون، وهنا حدق علي آغا مباشرة في عيون صديقه، لكنني  
لن أسلم هذا المسكين، إبتسم علي ولو وضمه بشدة.

- إنني أعرف تمام المعرفة بأن رجالك الشجعان أعدموا هذا التركي،  
لكنني رغبت أن أسمع هذا منك بالذات.

كانت الشمس قد غابت وراء الجبال عندما ودع بعضهما البعض  
وإستدار علي آغا بحصانه بإتجاه خراب ديغور.

ففي الطريق وفي حدود قريته كان علي آغا غارقاً في بحر من الأفكار،  
سبحت أمام ناظره صورة ساديموف الغاضب وكان يتردد على مسامعه  
صراخه وتهديداته.

وكان لا يزال في البعد، حين أبصر مجموعة فرسان غرباء وكاد أن  
يصعق من الدهشة.

- داوود، من هؤلاء؟ سأل أحد حراسه.

- يحفظك الله، ألم تعرف؟ أبدي داوود دهشته، هؤلاء خطاب جاوزو  
بك جاؤوا لخطبة إبنة أوسو عادل ابن قريتنا، ذاك الذي من عشيرة  
هسنان.

- كيف فاتني هذا<sup>(1)</sup>؟ لم يصدق علي آغا ما سمعه تقول إذن خُطاب  
جاوزو بك؟ سأله علي آغا ثانية، أليس هو رئيس عشيرة هسنان؟

- هو بالذات يا آغا أنه ابن أخ فرحان آغا، قال ذلك داوود.

- كيف يحق لهؤلاء الأوغاد عقد الخطوبة، حتى أنني لم أسمع بذلك  
قط وهمهم علي آغا بين أسنانه.

أن جيراننا يفهمون مصطلحتهم جيداً، لفظ داوود كلمة ((الجيران))  
بشدة- فكل شيء عندهم يجري في الخفاء، تخلصوا من النير التركي،  
وأصبحوا أحراراً والآن أخذوا ييصقون على عادات وتقاليد الأجداد أن  
مدّ الأصبع لمثل هؤلاء سيعضونه حتى المرفق.

لم ينس علي آغا بنت شفة وتجهم وجه علي آغا مقطباً حاجبيه  
الكثيفتين ومضى صامتاً حتى البيت.

لكن أوسو لم ينس علي آغا، بل جاء مباشرة برفقة أقربائه إلى داره  
وكان معه پير<sup>(2)</sup> قاسو جال پير قاسو ببصره من الأحذية المبعثرة إلى وجه  
علي آغا العبوس وضرب كفاً بكف قائلاً:

- لماذا شلحت الحذاء يا علي آغا؟

- وما الذي تأمرني أن افعله أيها الجليل؟ قال علي آغا.

- جئنا لتذهب معنا مكانك الآن هناك بين ضيوف أوسو.

---

(1) كانت العادة ان يحصل اقرباء العروس والعريس قبل الخطبة على امر موافقة من  
الأغا أو من رئيس العشيرة.

(2) (پير pîr): من المراتب والطبقات الروحية والدينية في الديانة الايزيدية ولها مهامها  
وواجباتها الدينية.

- أما أنا فقد اخطأت بحق أوسو، فكرت بأن أوسو من عشيرة هسنان  
لم يعترف بآغا السيكيين، قال ذلك علي آغا معاتباً، ثم ثبت نظره  
على أوسو قائلاً:

أوسو! هل تتذكر ذلك اليوم، عندما قتلوا والدك في مناطقكم،  
وأخذتكم والدتكم المسكينة، أنتم الأيتام، وجاءت بكم إلينا في عشيرة  
سييكا؟ يقال بأن أخلاقكم كانت حينئذٍ أكثر وداعة.

- من الإجرام تجاهل ذلك، قال أوسو بصوت خافت، واطرق رأسه  
خجلاً لن أنسى وصاية وشهامة الجد عمريك حتى آخر أيام حياتي  
لقد إستقبلنا كالأهل فديته بنفسي أنني مدين لوالدك يا علي آغا إلى  
أبد الأبدين ..

- بما أنك تتذكر هذا فالمسألة تختلف إذن.

إرتدى علي آغا ملابسه ودعا أخاه معه وذهب للحفلة.

إحتشد جمع غفير من الضيوف في دار أوسو عادل وكانت العيون  
تبهر من المحارم الحريرية المبرقشة الملفوفة حول قمة الطرايش  
العمودية ومن مقابض الخناجر الحربية المزخرفة بالفضة وزنانير ذهبية  
وفضية مشدودة حول خصور الجبلين الضيقة ومن مسابح الكهرمان  
التي تدور بأتزان بين أصابع الشيوخ الخشنة.

تربع الضيوف على بساط ناعم وتحدثوا بصوت خافت في الصدارة  
كان يجلس أقرباء العريس ورؤوساء العشائر القادمون من سيناك إلى  
الحفلة وعلى رأسهم فرحان آغا والبگوات من المناطق المجاورة وكان

المعمرون من الرجال يمعنون الفكر ويراقبون جميع التحركات بإهتمام بالغ فقد تذكروا كيف أنحنى كل شخص، هل أنحنى بخنوع أم بشكل مألوف كما جرت العادة ومن تحدث مع من؟ ومن كان يسعى الوصول إلى الصدارة من بين الذين لم يسمح لهم عمرهم ومركزهم بذلك ومن كان يفضل الجلوس في مكان متواضع بجانب الباب تمالكوا أنفسهم برزانه كما يليق بالمشايخ، وبين فينة وأخرى كانوا يتطلعون صوب الباب وكأنهم ينتظرون قدوم أحد ما كما خصص في الزاوية مكان للعشاق.

هب جاوزو بك ابن أخ فرحان آغا والضيوف الشباب واقفين حالما دخل علي آغا برفقة أخيه عكيد الغرفة.

- رحب بهم علي آغا قائلاً:

نرحب بكم يا رؤساء العشائر والقبائل الكردية وأتمنى لكم السعادة والنجاح الكبيرين.

- عليكم السلام! اهلا بكم وسهلاً.. رد عليه المجلس من جميع الأطراف بإحترام طالباً منه ومن أخيه بالجلوس في الصدر جانب جاوزو بك.

سار علي آغا وعكيد آغا بخطى حازمة إلى المكان المشار إليه وجلسا على بساط ناعم وضعت جنبهما مخدات من وبر ولم يفرغا بعد من التعرف على المجلس بشكل جيد، حتى أنهال عليهم الترحاب المتواصل والأسئلة عن صحة الأهل والأقرباء وكانا يُجيبان عليهم بإيجاز «الحمد لله نحن بصحة جيدة بارك الله فيكم».

وأخيراً، عندما لزم الجميع الصمت نهض غورو كلش وكيل العريس طالباً الإصغاء وأنتصب واقفاً وسط الحضور وطفق يتكلم:

- أيها المحترمون، أخوتي، لا عكر الله صفو حياتكم! قبل كل شيء، أشكركم على إهتمامكم بنا، حيث تركتم أشغالكم جانباً ورأيتم ضرورة بالحضور إلى حفلتنا هذه، وهذا شرف كبير بالنسبة لنا إجتماعنا لطلب من أوسو عادل يد كريمته گوليزار للسيد فايزو بك ابن سيدنا المحترم جاوزو بك.

- فلتتحقق رغبتكم هذه، لتكن هذه الفرصة فرصة للجميع! قال ذلك جميع الحاضرين.

- أما الآن، تابع وكيل العريس كلامه، ومال نحو علي آغا وجاوزو بك علينا تحديد المهر.

- الحق معك، أيد أحد المقربين للعريس هذا الإقتراح، الكلمة لأوسو دعه يعرض شروطه.

- ماذا أقول، إلتفت أوسو إلى الوراء مرتبكاً لقد كان الأمر مفاجئاً لدرجة لم يفكر بعد بذلك.

- صديقي أوسو، أخذ الحديث والد العريس جاوزو بك حالما لاحظ علامات الإرتباك على وجه أوسو، قل ما تشاء دون خجل، فأنت تفصل ونحن نلبس، والمسألة هنا مسألة شرف وسنقوم بالواجب كما يجب.

- كلام معقول أبدى الحاضرون موافقتهم.

- يا بك، قال أوسو، أن قدومك إلينا يدخل السرور إلى القلوب، فأنت بالنسبة لنا الضيف المُحبب دوماً؟.

- لينعم الله عليك بالعافية وليعتبرك من اهل الجنة، قال ذلك عدد من الشيوخ الجالسين على مقربة من جاوزو بك.

- أن مسألة المهر ليست مهمة إلى هذا الحد والله شاهد على ما أقول، فلدينا كل شيء ولا ينقصنا شيء فالمسألة هي أن... أدرك جاوزو بك مباشرة ما أراد أن يقوله أوسو ومال نحو علي آغا ووجه إليه نظرة متسائلة.

فهم علي آغا وبدون إضافات بأنه قد جاء دوره ليقول كلمته حيث ينتظر الجميع موافقته.

- نعم، بالتأكيد، قال علي آغا حان الوقت لنحسم هذا الموضوع.. تنفس الناس الصعداء.. فلو كان يرفض الخطوبة لعاد الضيوف أدراجهم.

- أتمنى لك عمراً مديداً يا علي آغا، أخذ جاوزو بك يعبر عن شكره، فديناك أنا وأولادي بأنفسنا لقد عرفت بأنك تملك قلباً طيباً كبيراً، والآن فأنا مدين لك ثم توجه إلى أوسو قائلاً:

- أوسو ننتظر جوابك النهائي..

غمر أوسو شعور خاص، وبرقت أسنانه البيضاء، بإبتسامة أطلت من تحت شاربيه ثم ألقى نظرة على جاوزو بك قائلاً:

- ليحدد الحاضرون المهر أنهم يعرفونني ويعرفون إبتني، قال بإبتسامة مبشرة لم تكد تظهر اسنانه الناصعة.

- أخي، تحدث وكيل العريس، لا نحتاج إلى من يعرفنا على أخلاق  
غوليزار لم نأت هنا لتبادل الحديث الجميل، لا تعذبنا، قل شروطك.

أخذ أوسو الذي كان يمعن الفكر يقول:

- أطلب لقاء إبنتي ممتي رأس من الغنم وحصاناً واحداً أصيلاً، وخمسة  
هدايا حسب إختياركم منها إثنان لعلي آغا المحترم وأخيه المحترم،  
هذا كل المهر.

- لينعم الله عليك بالسعادة في شيخوختك! قال جاوزو بك، أن ما  
يخص هدايا علي آغا وعكيد آغا فهذا من شأننا فنحن مدينون لهم،  
فلم يحدث أن قام أحد على طول الدهر بخرق عادات الشرف  
الكردي، ولن نخرقها نحن أيضاً.

- معذرة عن هذه الهفوة يا سيدي البگ، لم اقصد، ثم أطرق أوسو رأسه  
خجلاً.

- العفو من عند الله.

أثناء الحديث عن الهدايا، هبّ وكيل العريس كورو كلش واقفاً  
والشرر يتطاير من عينيه وقال بصوت مؤسف:

- أيها المحترمون! لم يعر أحد هنا أي إعتبار لنا، وهذا يعني أننا قطعنا  
كل هذه المسافة سدى.

- ليست هذه بمشكلة، قال والد العروس، أنزل لك عن عشرين رأساً  
من أصل ممتي رأس من الغنم.

- ماذا عن قيمتي؟ قال أحد المسنين من هناك.

- ولك عشرة أيها الجد قهرمان.

- وأنا؟ قال آخر.

- ولك عشرة أيضاً، أبدى أوسو كرمًا، كما عفا عن ثلاثين رأساً لأجل علي آغا.

- سلمت يدك قال جاوزو بك، لقد قمت بالواجب يا أوسو.

أما ما يخص بقية الهدايا سأتكفل بها.

- نهنتكم، بالخير والسعادة لهذا الزواج، أنهالت عليهم التهاني من جميع الجهات.

- والآن، دعونا يا أبنائي نبرم عقد القران، توجه إلى والد العروس والعريس الشيخ خوكو<sup>(1)</sup> الذي دُعي خصيصاً للقيام بهذه المهمة.

- نهض كل من جاوزو بك وأوسو وجلسا على ركبتيهما في وسط المضافة أمام الشيخ الذي وضع يديه على رأسهما ثم قال:

- يا جاوزو بك إبن عمر آغا حفيد حميد آغا، هل تأخذ إلى بيتك العروس كوليزار إبنة أوسو عادل بمحض إرادتك؟

- نعم، أجاب جاوزو بك.

كرر الشيخ سؤاله ثلاث مرات وفي كل مرة حصل على الرد نفسه، ثم مال الشيخ برأسه نحو والد العروس قائلاً له:

(1) في العرف الديني والاجتماعي للايزيدية اثناء الزواج او الخطوبة يعقد الزواج بحضور رجل الدين من طبقة (الشيخ) لمباركة الزواج واعطاءه الشرعية.

- يا أوسو ابن عادل حفيد كالو ابن حفيد شرو، هل تعطي إبتك گوليزار  
بمحض إرادتك إلى فايزو بك ابن جاوزو بك؟

- نعم، حصل الشيخ كذلك ثلاث مرات من أوسو على جواب إيجابي.  
وما أن أنتهوا من مراسيمهم هذه حتى أنهالت عليهم التهاني  
والتمنيات من الجميع مُجدداً:

- لهما السعادة والعمر المديد معاً، لهما التوفيق والنجاح.

عندئذٍ نظر جاوزو بك نظرة تساؤل إلى المسنين، الذين هزوا  
رؤوسهم بالإيجاب.

- والآن، ادعوا الغزالة عروستي گوليزار، قال ذلك جاوزو بك بسرور  
بارماً شاربه المصبوغ بالحنّ.

هرعت العمّات والخالات إلى قسم النساء ودخلت گوليزار مُطرقة  
رأسها خجلاً، بعينها السوداوين الرائعتين: ليست فتاة بل زهرة معطرة ولها  
خصر ممشوق كشجرة الحور وجسم رائع قوي وتألّلات عيناها بحماس،  
تحت حاجبيها السوداوين كالليل، دُهش الضيوف لِحُسْنها وجمالها.

دعاها وكيل العريس إليه وألبسها خاتم الخطبة، قبّل جبينها ثم باركها  
أستندت گوليزار بنفسها إلى كتفه ثم أسرع من المضافة وعيناها مُبلّلة  
بالدموع.

وفجأة تغضن وجه عكيد آغا وسيطر عليه شحوب كشحوب الموتى،  
وشعر في أعماق نفسه بغيرة غامضة لقد تسللت گوليزار كالحية الى قلبه  
تاركة فيه سمّها، وراح عكيد آغا يفقد صوابه، والشرر يتطاير من عينيه

واضعاً يده على مقبض الخنجر لكن ناره هذه قد أطفئت وتراخت يده  
وزحف ثعبان الغيرة تحت حجر ثقيل من أحزانه، خارت قواه وهوى  
جسمه ككيس مملوء بالأحجار على الأرض فرغ الحاضرون.

حاول علي آغا الوثوب خائفاً إلا أن پير قاسو داس على قدمه خلسة  
أفهمه من خلاله أن الرجال لن يصفحوا عنه إذا ما أبدى الضعف، ثم أمر  
پير قاسو بجلب الماء ورش به علي وجه عكيد آغا.

وضع إذنه على صدره وقال بصوت هادىء:

- لا داعي للقلق، سرعان ما سيعود إلى صوابه.

وبالفعل وبعد عدة دقائق وكالمريض المعتل فتح عكيد آغا عينيه،  
وإدار برأسه ونظر حوإليه بإندهاش ومسح أمام ناظريه بشكل غامض  
وجه پير قاسو الذي كان منحنيّاً فوقه، وهنا أسرع إليه شابان قوبان أنهضاه  
وأمسكا بمرفقيه وقاده إلى البيت.

وتجنباً لخرق آداب المجلس أمضى كل من علي آغا وپير قاسو فترة  
أخرى ثم ودّعا المجلس متمنين للضيوف قضاء حفلة الخطوبة بسرور  
وما أن خرجا حتى ساد صمت قاتل على المجلس في دار أوسو عادل.

في تلك الأيام تحدثت خراب ديغور قاطبة عن عكيد آغا وعن  
أغمائه، كانت الأقاويل كثيرة:

فقد أكد البعض بأن عكيد أصيب بمرض عضال، ومنهم من يقول  
بأنه أُغمي عليه بسبب الجو الخانق والحر الشديد في غرفة أوسو، أما  
القسم الثالث فقالوا بأنه طريح فراش الموت.

وشيئاً فشيئاً أنتشرت هذه الأقاويل حتى وصلت إلى جميع القرى الأيزيدية، وأخذت المسألة منحى جدياً فقد استمر توافد الناس من كافة الأطراف إلى دار علي آغا، فمنهم من سأل عن صحة عكيد آغا ومنهم من عرض مساعدته.

لكن أحداً لم يتمكن من معرفة أي مرض أقعد عكيد آغا في الفراش يوماً بعد يوم سار وضعه من سيء إلى أسوأ فقد كان يذوب أمام العيون ممتنعاً عن الطعام والشراب، مكتفياً بضغط رأسه في الوسادة ملتزماً بأهداب الصمت.

حينئذٍ بعث علي آغا برسول إلى الطبيب المحلي الذي سرعان ما حضر وبدأ بمعاينة المريض:

فحص لسانه وجّه إليه عدة أسئلة عادية دون جدوى نظر الحكيم محتاراً إلى علي آغا الذي كان يقف عند الباب مع حاشيته ثم اوماً برأسه مُشيراً إلى أنه يريد أن يبقى لوحده مع المريض، أمثل الجميع لأمره وخرجوا من الغرفة.

أنتظر علي آغا مع اقرباءه خلف الباب وقد بدا لهم ذلك مطولاً وعندما نفذ صبره ولم يعد يحتمل الإنتظار الصعب، أقتحم علي آغا غرفة أخيه والقى بنظرة غاضبة على الحكيم المُسن وزعق محتداً:

- يا إلهي، لقد خرجت كل روحي! أخبرني أخيراً ما به؟

لكنه سيطر على نفسه بسرعة وخجل من تصرفه هذا وثاب إلى رشده مباشرة، مُنكساً رأسه وادار بوجهه وتقدّم إلى النافذة صامتاً وسمع من خلف ظهره صوت الحكيم المُضطرب يقول له:

- أنا متأسف يا علي آغا.. لو كنت قد أرسلت ورائي قبل الآن! فهناك بياض على لسانه ووجهه شاحب مما يثير المخاوف لا بأس، لو تأخذونه إلى طيب المنطقة في قارص، لكن المصيبة في طول السفر. إعتصر قلب علي آغا ألماً من كلمات الحكيم المُسن الذي كان يعلّق عليه أمالاً كبيرة فقد أثار حديثه إنفعال علي آغا، مُندراً بالعواقب الوخيمة التي تنتظر أخاه المريض وأشعره بخيبة الأمل، لكنه وبالرغم من عظم المصيبة، لم ينسَ أن يقدّم ليرة ذهبية إلى الحكيم وتوديعه كما يجب.

وما أن أغلق الباب وراء الحكيم حتى ابتسم أحد الحاضرين بسخرية قائلاً:

- حكيم رائع! أنه داهية! فلا موت على يده!!

أدخلت هذه الكلمات ألماً قوياً إلى نفس علي آغا المهموم وحاول أن يوقف هذا الثرثار عند حده ولكن سيطر على نفسه بسرعة، فعزّة النفس الرئاسية لديه وبحضور رؤساء العشائر من الضيوف جعلته يتصرف بلباقة.

- إسمعوا!، تحدث نفس الشخص، لا داعي للإكتئاب تذكروا كم مريض عادت عليهم عافيته على يد حكماننا!...

أرى من الضروري إستدعاء شبتوخ كُولي.

- إذا كان الحكيم شخصياً قد فشل في تشخيص المرض، فماذا بإمكان الساحرة شبتوخ أن تفعله، ردّ ذلك عن علي آغا أحد أبناء أعمامه.

- آه يا بني، أن على هؤلاء الحكماء أن يتعلموا أصول الطب على يد شبتوخ كُولي، قال ذلك عجوز خطّ الشيب رأسه وإسمه اوكو، ملقياً النظرة على الحاضرين الذين أوماؤا برؤوسهم بالإيجاب.

- حسناً، أبدى علي آغا موافقته، دعنا نضع أمالنا على هذه الساحرة،  
والآن ليتفضل الضيوف المحترمون الى المضافة.

- دارك عامرة! قال العجوز اوكو ثم نظر باتجاه الباب ودعا إليه شاباً  
قائلاً له:

إبني تمو خذ معك حصانين وإسرع إلى يامان جاير لإستدعاء شبتوخ  
كُولي أعتقد أنها لا زالت موجودة هناك واخبرها بأنك من طرف الجد  
اوكو وأن هناك أعمالاً بانتظارها لكن على وجه السرعة.

واصلوا عملية تناول الفطور حتى منتصف النهار تحدث الضيوف  
على المائدة باللواتم، وتبادلوا الأخبار وإحتسوا القهوة الساخنة وعلى  
حين غرة تردد من خلف الباب صوت يقول: عاد تمو ومعه شبتوخ.

نهض علي آغا ونهض معه الضيوف في هذه اللحظة، دخلت  
المضافة، وهي تلهث من الحر، سيدة قصيرة ومليئة في متوسط عمرها  
وكانت نظرة واحدة تكفي حتى ترى شفرتها الغليظة والقيحة وعيناها  
السوداوين الماكرتان الصغيرتان مثل ثقب الأبرة، كانتا تنتقلان من  
طرف إلى طرف.

صافحها علي آغا ثم الضيوف واحداً واحداً، وبعد أن سلمت بإحترام  
على الجميع ثبتت نظرتها على علي آغا قائلة:

- تحدّث لي رسولك عن كل شيء في الطريق.

هل هذا صحيح بأن عكيد آغا طريح الفراش؟.

- صحيح يا أُمي صحيح، ردّ عليها علي آغا إنما بصوت حزين.

- أين يرقد المريض؟ خذوني إليه.

أوماً علي آغا برأسه إلى خدمه لكي يأخذوا شبتوخ إلى غرفة عكيد آغا.

عندما دخلت شبتوخ إلى غرفة المريض، كان عكيد آغا مستلقياً ووجهه إلى الجدار مُخفياً رأسه تحت اللحاف لوحت شبتوخ بيدها للخدم أمرة لهم بالخروج، ثم تقدّمت ببطء وحذر نحو سرير المريض يا إلهي أنصرتي ولا تخجلني أمام رؤساء العشائر والقبائل الكردية، تمتمت شبتوخ لنفسها ثم راحت تجلس على طرف السرير أمام أقدام عكيد آغا وهي تقول بصوت خفيض:

عكيد يا بني، أدر لي بوجهك.. وأخبر والدتك العجوز عن سبب مرضك؟

لكن عكيد لم يرد عليها وحتى لم يتحرك.

- عكيد يا بني، توجهت إليه بلطف مرة أخرى، فديتك بنفسي، در لي بوجهك، لا تكن مجنوناً.. تفوّه ولو بكلمة واحدة يا أخي عكيد.

- ومرة أخرى السكوت أثار عناده من غضب شبتوخ التي برزت على وجهها بقع إرجوانية لكن خوفها من أن يفضح أمرها أمام كل الناس الذين أمنوا بإمكانياتها الطيبة جعلها تتمالك نفسها.

ومن جديد قالت بلطف:

- عكيدو، إفتح لي قلبك وأخبرني ما بك؟ فليس من العيب أن يقال: لكل داء دواء.

ودون أن تنتظر منه في هذه المرة الرد، دسّت أصابعها تحت الغطاء لتدغدغ عقب أقدامه لكن عكيد سحب أقدامه إلى بطنه.

- يا بنين لاتخجل مني، دعني أطبب عقب قدميك، سيخفف هذا من ألمك تفوه ولو بكلمة حينئذٍ سأتركك لوحك فليس لدي متسع من الوقت ومدّت يديها إلى رأسه تمسّد شعره.

ودون أن يلتفت عكيد أبعد يدها عن رأسه وأنزلق بنفسه بشكل أكثر تحت الغطاء حينئذٍ فقدت سبتوخ السيطرة على نفسها.

- إذا إستمررت في عنادك هذا، قالت سبتوخ مضطربة وشدّت اللحاف من طرفها، أحلف بكل المقدسات سأسحب من فوقك اللحاف وأفصح أمرك.

وهنا إلتفت إليها عكيد بحدّة فاقداً السيطرة على نفسه وأخذ يصرخ ملء حنجرتة:

- اخرجي من هنا فوراً، أنت النسناس المشؤوم، اغربي عن وجهي وإلا أخرجتك بنفسي.

إستحوذت رجفة على الضيوف الجالسين في المضافة حينما بلغ مسامعهم صراخه أرادوا النهوض، لكن علي آغا اوقفهم، مكتفياً بإرسال خادم لمعرفة الأمر.

أدخل الخادم رأسه إلى الغرفة من الباب المفتوح ورأى أمامه لوحة مخيفة:

عكيد آغا يرغي ويزبد وهو يطلق سيلاً من الشتائم على سبتوخ دون

أن يترك لها شيئاً أما هي فقد اتسعت عيناها مذعورة، مُستندة إلى الجدار وقد إستحوذ على جسمها رجفة.

- هدم الله بيتك أيتها الوالدة شبتوخ! ماذا حصل هنا؟ سألتها الخادم ماسكاً بيدها بغية جرها بأسرع وقت من الغرفة خوفاً من أن يتصرف عكيد آغا تصرفاً غير طبيعي في لحظة غضب.

لكن شبتوخ كالكلبة المسعورة عصّت يد الخادم بأسنانها وبقوة لدرجة أخذ المسكين يزق المأ.

- جن جنونها غيظاً وهاجمت الخادم قائلة له:

ألمتعرف من هي شبتوخ گولي؟

أنني أمنح العقل للمجانين والحياة للموتى وأنت يا عديم الأصل قررت طردي من هنا أعتقد بأنه يصعب عليّ معالجة عكيد آغا لقد أمرت أن لا يدخل عليّ أحد إلا بطلب مني ثم رفعت يدها وصدفت الخادم صفعه قوية بحيث عكر كل شيء أمام عينيه.

وضع الخادم يديه على خديه وولى هارباً من الغرفة.

أماشبتوخ گولي فمالت بإتجاه عكيد الذي نظر إليها مرتبكاً، كان عكيد آغا قد سمع سابقاً عن أسلوب شبتوخ گولي في معالجة مرضاها بالتمائم والكلمات السحرية، لكنها أذهلته بحركاتها إلى حد جعلته ينسى علته، لكن ما حدث مؤخراً أربكه فقد بدأت گولي فجأة تنط خلف سريره وهي تتكلم بجنون:

- آه، آه، آه! يا إلهي! أنقذ عبدك! وهي تضرب صدرها إرحم هذا

المسكين، لا تدعه يذبل! إليك عني! إليك عني! أيتها الروح  
الشريرة! أوووو! أوووو!، إبتعد، إبتعد أيها القاتل، أنقذ شبابه من  
المسلك الغادر. أووو، أوووو.

وشفتيها إلتوتا بشكل قبيح ثم ندت عنها قهقهة جنونية وإرتعشت  
رعشة خفيفة ثم طفقت شبتوخ فجأة تشد شعرها وإرتفعت عينيها إلى  
الأعلى وهوت كالميت على الأرض.

تملك عكيد الرعب بشكل جدي ألقى بنفسه من السرير آخذاً إبريق  
الماء وبدأ يرش على وجهها الماء.

- ما بك أيتها الوالدة شبتوخ؟ وهزها من كتفها لأجل الرب عودي إلى  
رشدك إفتحي عينيك.. سأنفذ كل ما ترغيبه لن أعاند ابداً، ثوبي إلى  
رشدك.

فتحت گولي عينيها شيئاً فشيئاً ثم أغمضتهما مجدداً، ثم راحت  
تتحدث بصوت هادىء:

- يا بني، لم آت إلى هنا للهو، جئت لمساعدتك، ولكن كيف  
إستقبلتموني هنا؟ يا للعار! يا للخزي! ساعدني على الجلوس....  
اوووف!....

أقعدها عكيد على الكرسي الوحيد في الزاوية لكن شبتوخ جلست  
في أسفل السرير.

- تعال إلى هنا يا بني، إجلس بجانبى وقل لوالدتك عن سبب حزنك لم  
أترك أحداً دون معالجة وسعالجك أيضاً.

حوّل عكيد آغا نظره عنها بحيرة والحُمرة تعلو وجهه وراح كالطفل الصغير يحكي كل ما لديه وبدا أن شبتوخ سحرته كلياً، أمسك عكيد بيدها وقال بصوت خفيض: والدتي العزيزة!

- نعم يا عزيزي؟

- والدتي العزيزة، نطق مرة أخرى بهذه الكلمة، أو عديني بأن يبقى سرّاً بيننا كل ما سأقوله لك الآن.

تلاً لأت عينا شبتوخ فرحاً وقالت:

- فديتك بنفسي يا بني! لا تزعجني سيكون كل شيء مثل ما تريد، والله يشهد على ما أقول لن يعرف أحد بسرّك غيري خفف من الألمك، دعني أشاركك أحزانك أنك بمثابة إبني، فلا تخجل.

- شكراً يا أماه، أنك تملكين قلباً رقيقاً فأنا لست مريضاً البتة بدأ عكيد حديثه متردداً:

- إذن، ماذا يعذبك يا ولدي؟ سألته شبتوخ برقة وفركت يديه بلطف.

- أحجل من الإعتراف لقد فقدت صوابي بسبب العشق أني أحب گوليزار ابنة أوسو عادل.... لكنه فات الأوان، لقد قطفوا زهرة بستاني وأخذوها، خطبوها لشخص آخر لو كنت أعرف أن كل شيء سيتم بمثل هذه السرعة، لأرسلت الخطاب منذ أمد بعيد فالإختطاف غير ممكن الآن، سيبدأ الأردال بالثرثرة وسيقع العار كالرماد على قلبينا.... يا للعار، آه يا للعار يا أماه.

بعد أن افضى عكيد بمكنونات قلبه للساحرة عاد إلى عالم العزلة مُجدداً وضع يديه على وجهه والتفت نحو الجدار.

أما گولي فبعد أن سمعت إعتراقات عگید آغا غمرها شعور خاص سار فقد بات سر عگید معروفاً لديها والآن فأنها وصلت إلى دواء عگید وبأمكانها التبجح بذلك مفتخرة. فليعرف الجميع بأن محاولة شبتوخ صاحبة الأمكانيات الكبيرة لم تذهب سدى ومن ثم أن علي آغا سوف لن يبخل بهدية سخية لها.

- عگید يا ولدي، قالت شبتوخ بلطف، ليعمني الرب لِمَ لِمَ تخبرني بذلك من قبل؟ لاجعل في ذلك أبداً فقد خلق الرب الشاب والفتاة كي يتحابا بعضهما البعض لكنك لم تشعر بها إلا في وقت متأخر، لقد خطبوها من أمامك يُقال أن العرس سيتم في الخريف، أمعنت شبتوخ في التفكير ثم أضافت:

- ليست ثمة مشكلة لم يضع كل شيء بعد سأحاول الوصول إلى قلب گوليزار وسأحدثها عن حبك لها.

والآن أنهض وإغتسل وإهتم بنفسك، يُقال أنك لم تأكل شيئاً خلال هذه الأيام، ثم أخرجت شبتوخ رأسها من الباب صارخة:

- يا ربة البيت! لتحرق دارك، أنسيت ولدك إجلبي إلى هنا شيئاً من الطعام بسرعة، فعگید آغا يريد أن يأكل.

أدخل صوت شبتوخ السرور في قلب علي آغا الذي إبتسم فور سماعه صوتها فرحاً وكذلك غمر الضيوف رعشة إبتهاج عارمة.

انتشر نبأ شفاء عگید آغا كالنار في الهشيم في جميع القرى لم تخطيء شبتوخ في تشخيص المرض وراح الناس يتحدثون عنها مادحين إسلوبها

وقدراتها في معالجة الناس ونسبوها إلى القديسين بشكل لا ريب فيه،  
وزادوا من إحترامهم لها وازدادت ثقتهم بها.

حلّ المساء وكانت السماء تتلألأ بالنجوم الأولى عندما تسللت  
شبتوخ گولي إلى دار أوسو عادل خفية وكانت گوليزار وشقيقتها گافازو  
والدتهما يغزلون الصوف، أما الرجال فذهبوا إلى دار علي آغا لتقديم  
التهاني بمناسبة شفاء عگيد آغا.

- مرحباً بك في دارنا أيتها الوالدة شبتوخ! رحبت بها گوليزار مسرورة.

- السعادة والنجاح لكم! ردّت شبتوخ مُبتسمة وهي تتقدم منهن.

- تفضلي يا أختاه، نحن سعداء بلقائك، قالت والدة گوليزار، مُشيرة  
لها بالجلوس إلى جانبها حيث كان التنور يعمل ببطء كيف أحوالك  
يا أختي؟

- الشكر لله! أعيش تحت رحمته ولا اشكو من شيء الحمد لله.

بعد السؤال عن الحياة والصحة والمعيشة، إستأذنت والدة گوليزار  
وگافاز معتذرتان للضيقة وذهبتا للزريبة لحلب الغنم، بقيت شبتوخ  
وگوليزار لوحدهما وعندما تأكدت شبتوخ من أن أحداً لا يستطيع  
سماعهما، توجهت بصوت خافت جداً للفتاة:

- والآن كيف تنظرين إلى كل ما حدث يا إبتي؟

- عن ماذا تتحدثين يا أماه؟ سألتها گوليزار بدهشة.

- أنتظاهرين بالمراوغة؟ قولي لي أيتها الطاهرة الساذجة، ألم تفهمي  
بعد؟ فالمسكين عگيد آغا يلفظ أنفاسه الأخيرة من أجلك، بينما

تشامخين متكبرة.. شيء رائع أنظروا كيف أنها تجهز جهاز ولوازم الزفاف.

- ماذا تريدان أن أفعل؟ كان عليه أن يفكر بالأمر مسبقاً، كان عليه أن يأتي إلى والدي في حينه ويطلبني منه فكما تعلمين لا يؤخذ رأي الفتاة في الزواج والآن لا فائدة من أن يفكر بذلك، فقد خطبوني لابن جاوزو بك.

ارتبكت شبتوخ التي لم تنتظر مثل هذا الرد من گوليزار لكنها تماكنت نفسها مباشرة وتابعت تحيك مؤامرتها:

- ففوات الأوان واضح كضوء النهار، لكن المسكين أصابه الهزال الشديد فإنه يقبع في الغرفة كالظل فمند عدة أيام أنقطع عن الطعام والشراب على أمل أن تزويه وتقولين له كلمة لطيفة فهو يحبك حباً كبيراً وأصيب بهذا بسبب عشقه لك بعدما ان شاهدك وعرف جمالك.

- الله يساعدك يا أماه! أيعقل هذا؟ لكنني عروسة للغير، فكيف لي إذن التقى به؟ وحين يعرف الناس لا مفر من العار، أجابت گوليزار وأحمرت خجلاً.

لقد ظهر بريق أمل لدى شبتوخ وأنفجرت تساريرها وهمست قائلة:

- لا تكتئبي يا بنتي، سأرتب بينكما لقاءً، أما أنت فإرحمي هذا المسكين وإلتقي به.

- ولكن كيف؟ طأطأت گوليزار رأسها خجلاً، شاعرة بأن شبتوخ لن تدعها لشأنها.

- بعد العرس في الربيع إذهبي مع صديقاتك إلى الطبيعة لجمع العشب وإفترقي عنهن خلسة وفي مكان بعيد عن أنظار الناس ستلتقين به، أما أنا سألتقي بك مرة ثانية قبل ذلك بغية تحديد المكان، ستلتقيان مع بعضكما البعض ومن ثم ستفارقان كأخ وأخت.

- حسناً.. كما تريدين، وافقت گوليزار وهي تشبك أصابع يدها بشدة ونظرت إلى شبتوخ بتمعن، يا أماه اتوسل إليك بإسم الرب أن لا يعرف أحداً عن هذا العار.

معاذ الله أن اكون أنا قليلة الحياء سبباً في سفك الدماء.

- ذكية يا بنتي ذكية! قالت شبتوخ، لا تقلقي أبداً سيكون كل شيء على ما يرام عليّ أن اذهب لقد تأخرت كثيراً.. سافرّح هذا المسكين ونهضت مع كلماتها هذه.

بلغي والدتك بأنني كنت على عجلة من أمري، سأمر عليكم كيفما كان لثرت مرة أخرى، قالت ذلك شبتوخ في لحظة الوداع ثم إختفت خلسة كما ظهرت وفي نفس اللحظة عاد والد گوليزار مع أخيها.

- من خرج من عندنا الآن؟ سأل إبنته.

- شبتوخ گولي، أجابت الفتاة مرتبكة.

- وأين الوالدة؟ سألها أوسو غاضباً.

- أنها في الزريبة، أصفرت گوليزار وقلبها ينبض بشدة.

أندفع أوسو مُسرِعاً إلى الزريبة.

- أيتها الزوجة! ناداها بغضب شديد، ليهدم الرب دار والدك! كيف  
تتركين گوليزار وحيدة مع هذه الغرابة..  
وأخذ أوسو يشتمها ويسبها بأفظع الشتائم والسبب قائلاً:  
لو أراها مرة أخرى عندنا لكسرت قدمك وقدمها.

\*\*\*

## الإختطاف (1)

أقبل الربيع بدفته وجماله، دوت أمطار الربيع الأولية رعداً، وراحت الأنهار الجبلية المتدفقة تحمحم مجنونة، تدفع مياه الثلوج الذائبة العكرة في أخاديد الطرق الوعرة والحفر وسالت في الألفية سيول مندفعة أخضرت المروج والروض برقة وأزدانت المروج بالأزهار، في حين كانت الأرض والبساتين ترسل أنفاسها المتبخرة الممزوجة بشيء من المرارة وبواكير العشب النامي تفوح برائحة حادة فتيمة مُسكرة وكان الهواء الرطب يحمل أريج بواكير الربيع المشيرة.

كان يتردد من جميع الجهات أصوات حيّة فقد تعالي في الهواء ثغاء الغنم وخوار البقر ونباح الكلاب النحيلة على أثر حراسة الشتاء وتردد هدير قهقهات الأولاد الطائشين المرحة الصاخبة.

شكلت الفتيات بلباسهن المبرقشة الزاهية، كل واحدة منهن مثل زهرة الصباح، حلقة من الغناء والرقص، كانت الحلقة تتمايل بإتزان مع إيقاع الآغاني وعن بُعد كان من الصعب معرفة أن كان فعلاً فتيات

(1) الخطف (REVANDIN بالكوردية) هي طريقة من طرق الارتباط بين العشيقين أو الحبيبين إذ ما امتنع الأهل عن تزويجهم لبعض وهي عادة كانت متبعة وغير مقبولة اجتماعياً (المقدم).

ترقص أو زهور تتمايل بفعل النسيم كان هذا المنظر يريح النظر ويدخل السرور في القلوب.

منذ أن شفي عكيد آغا من علته على يد شبتوخ گولي لم يمكث في البيت إلا قليلاً، فقد راح يقضي أكثر أوقاته في الصيد واللهو ومع ذلك لم يفارق الحزن وجهه، فقد راح يتنهد ويتعذب من جراء حبه المفرط لحبيته گوليزار خفية وبعيداً عن أنظار الآخرين.

لم تخرج گوليزار من البيت تقريباً بعد الخطبة، أما شبتوخ گولي فقد انقطعت أخبارها بعد حصولها على المكافأة القيمة لمن سيفضي عكيد آغا بمكنونات قلبه وحزنه وآلامه الآن؟ ومع من سيتقاسم همومه؟.

في غضون ذلك، أجتاح القرية كلها نبأ حبه لگوليزار وكان لثرثرات الساحرة شبتوخ گولي سبب في ذلك، ولكن الخوف من سخط علي آغا جعل الناس يتحدثون عن ذلك خفيةً علمت بذلك أكشان زوجة عطو سلطان الذي لقي في وقته كل اسباب الراحة في دار علي آغا وذات مرة، وفي عرض حديثها فاتحت أكشان زوجها بالموضوع التالي:

- أن علي آغا وعكيد آغا من النبلاء وهل تتذكر كيف آوونا ووقفوا بجانبنا عندما لجئنا اليهم في محتتنا؟ فلولاهم لما كنا الآن معاً..

- ماذا تقصدين بذلك؟ شحذ عطو إذنيه للإصغاء.

- أأصابك العمى؟ أم أنك لا تلاحظ كيف يذبل عكيد آغا بسبب حبه لگوليزار ابنة أوسو، فكلما أراه أتذكر أنفسنا وينزف قلبي دماً.

- ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ بم نساعده؟ فنحن أناس غرباء وليس

لنا ما نفعله هنا سوى القيام بعملنا على أكمل وجه إرضاءً لعلني آغا  
أريد المساعدة لعكيد آغا بكل سرور ولكن كيف؟ دليني على ما  
يمكنني القيام به؟.

- ما باليد حيلة، هزت أكشان كتفيها بدلال، يُقال بأن جاوزو بك  
قرر الإسراع في الزفاف وقد أرسل رجاله (سوار)<sup>(1)</sup> إلى أوسو  
أما ولده فايرو بك خطيب گوليزار فقد حلّ ضيفاً عليهم منذ عدة  
أيام كما يُقال أيضاً بأن گوليزار رفضت في الليلة الأولى الدخول  
إلى غرفة خطيبها<sup>(2)</sup>.

أن العريس المُهان حاول مغادرة دار أوسو في نفس الليلة، لكن أوسو  
توسل إليه راعماً أمام قدميه وأقنعه بالبقاء خوفاً من العار أما هو فقد أنهال  
غاضباً بالشتائم على زوجته والشرر يتطاير من عينيه مُتهماً أياها بإدخال  
الساحرة الشمطاء گولي التي حسب زعمهم لعبت في عقل گوليزار  
بإيجاز، فقد أدخلوا البنت عنوة إلى العريس..

- من أين لك كل هذه المعلومات؟ أبدى عطو دهشته.

- النساء على دراية بكل شيء ففي الصباح وعلى النبع يدور الحديث  
فقط حول هذا الموضوع أن قضية عكيد لاتبرح الذهن ولو للحظة،  
أكدت أكشان ثانية.

---

(1) سوار: فرسان العرس. (المترجم).

(2) لا يوجد في الاعراف الاجتماعية الايزيدية مانعاً من ان يقوم العريس بزيارة دار  
العروس قبل الزفاف وفي مرحلة الخطوبة بغية التعرّف والتعود على بعضها  
البعض في اطار العائلة (المترجم).

حينما أنبلج نور الصباح وعندما لمست أشعة الشمس الأولى قمم  
الجبال الثلجية، فتح عطو عينيه، وتمطى بجسمه شاعراً بالمتعة وتثائب  
راغباً في الأخلاد إلى النوم الهادىء، ثم أخذ يرتدي ملايسه بكسل كان  
عليه قبل عودة القطيع ترك الأبقار والغنم وتنظيف الإسطل من الروث  
وكنس فناء البيت قبل استيقاظ سيدة البيت.

أخذته الدهشة حينما رأى عكيد آغا في فناء الدار وأدرك عطو من  
عينيه المتورمتين بأن الآغا الصغير لم يذق ليلته طعم النوم.

إقترب منه عطو وبادره بالتحية كما يليق بالخدم مقررراً إستغلال هذه  
الفرصة ليعبّر عن شعوره نحو عكيد آغا وتمتم بحيرة:

- عكيد آغا يا صاحب السعادة، أريد التحدث إليك وأرجو المعذرة عن  
الإزعاج، هل ستسمعي؟.

- تكلم، أسمعك، رد عليه عكيد آغا بشعور كئيب ولما لاحظ الإرتباك  
عليه قرر الإنفراد به في غرفته قائلاً له: دعنا نذهب إلى غرفتي.

أشار عكيد بيده إلى مكان مقابله وأمره بالجلوس مُلقياً عليه نظرة  
متسائلة:

- آغا، لماذا لم تظهر في الآونة الأخيرة؟ هل حدث أمر ما؟ قال عطو  
وصمت هنا مُدركاً بأنه لم يقل اللّازم.

غرز عكيد آغا ناظريه محققاً في عيني عطو منتظراً ما سيقوله بعد:

- يا آغا أني مدين لك ولأخيك المجيد علي آغا طول الله عمره.

سكت عطو قليلاً، ثم أضاف مرتبكاً: كلما نفكر، أنا وزوجتي،  
بفضلكم علينا، لانجد الكلمات الكافية لنعبر عن أمتناننا وشكرنا لكم.

- ليسعدكم الرب! قال عكيد آغا بحرارة، لكن على ما يبدو لم يكن هذا حديثك معي.

- يا آغا، ربما يكون ذلك ليس من شأني ولكن معذرة ثم صمت عطو.  
- تكلم لا تعذبني، قال عكيد آغا.

- أريد القول، أنني علمت عن حبك لگوليزار، أردف عطو.

- من أخبرك بذلك؟ سأله عكيد آغا مرتبكاً.

- كل القرية تتحدث عن ذلك يا آغا لقد سمعت زوجتي من النساء وأخبرتني بذلك. أعترف عطو ملقياً النظرة من تحت حاجبيه على سيده المرتبك.

- وماذا يقول الناس أيضاً؟

- يُقال، أن گوليزار رفضت رؤية خطيبها وفي الليلة الأولى، عندما حلّ فايزو بك ضيفاً عليهم رفضت الدخول إليه وأخضعها والدها تحت تهديد الموت.

وأخبره عطو كل ما سمعه من زوجته بإيجاز.

أصاب عكيد دوار في الرأس وإحتقن وجهه غضباً من هذه الكلمات وأخذ وجهه بين يديه وبدأ يئن ثم أرخى عضلاته وازدادت دقات قلبه عنفاً وأحس أن قلبه سيكف عن الخفقان بعد لحظات.

إعتصر قلب الخادم المسكين ألماً أما عكيد آغا الذي تحيّر من أمره تملّك نفسه، وقال بصوت مبحوح:

- لقد جددت جرحي القديم ولكن رجائي الوحيد هو أن يبقى حديثنا هذا في طي الكتمان، أفهمت؟

- لا تزعلني يا آغا! تعرف بنفسك موقفي منك، وإذا اقتضى الأمر فأني سأحوّل الجبال إلى سهول من أجلك قال عطو مرتبكاً.

- معذرة! لقد طارت من لساني ما دامت هذه حال الأمور في هذه الأيام، فما عليّ إلا الانتظار.

يُقال أن الصبر مفتاح الفرج، قال عكيد آغا مكتئباً، ثم طفق يفكر بعدها وأضاف أشكرك على عرضك لمساعدتي فقد أحتاج إليك فيما بعد.

- فديتك بنفسي يا عكيد آغا قال عطو جازماً، أنا في أهبة الإستعداد لخدمتك.

- أشكرك على إخلاصك أما الآن إذهب الى ابن عمي عمر سمو وأخبره ليأتيني حالاً.

أنحنى عطو بلباقة وأندفع مُسرِعاً لتنفيذ أمر الآغا الشاب لم يمر نصف ساعة حتى كان ابن العم عمر في غرفة عكيد آغا كان الحديث طويلاً وجدياً بينهم وفي نهاية الحديث توجه عكيد آغا بالكلمات التالية إلى عمر:

- فكر بالأمر جيداً، فلديك عائلة، وتعرف أفضل مني بأن السلطات لن ترحم أحداً.

- يا عكيد، أن كلماتك كالخنجر تمزق قلبي، قاطعه عمر بعزم ثابت ملوحاً بيده، أنا لست من طائفة الجبناء.. فأباؤنا أخوة، والأخوة

وُجِدت لهذا الغرض، لم يد العون في اللحظة الحاسمة لم يُخالف  
أحد من عائلتنا الأعراف والتقاليد ولن أخالفها أنا أيضاً، قل لي فقط  
ماذا يجب أن نفعل؟.

وأدرك عكيد بأن عمر المخلص له سينفذ رغباته مهما كانت أنواعها  
وتوجه إليه قائلاً:

- أخي عمر، وهو يحضنه، لنبق معاً إلى الأبد! فقلبك كبير وأنا أعتمد  
عليك مثلما يُعتمد على جدار صخري..

خرجوا إلى الفناء حيث قيظت الظهيرة وإفترقا بسرور.

مضى بعض الوقت على الحديث السري بين عكيد وعمر، واصلت  
القرية حياتها الاعتيادية دون تغيير، فقد مارس سكانها أشغالهم وأعمالهم  
اليومية الطبيعية من حراثة الأرض وإستئصال النباتات الطفيلية من البساتين  
وري المزروعات، كان الشغل كثيراً ولكن ما العمل فقد أقبل الربيع.

كان الصباح رائعاً في ذلك اليوم فقد نشرت الشمس أشعتها الذهبية  
الناعمة على الدنيا مرحبةً بالصباح الذي قد حلّ تواء، حيث أدخلت  
الحيوية إلى الطبيعة.

توجهت الفتيات قبل إن بلاج الفجر نحو وجار الدب، حيث بدأن  
بقطف الأعشاب الصالحة للأكل وجذور أعشاب الطبخ، فيملحنها  
ويجففونها ويأكلونها في الشتاء الطويل كما كانوا يخلطون بعض هذه  
الاعشاب في الجبن والقريشة<sup>(1)</sup>.

(1) نوع من انواع الاجبان.

في صباح ذلك النهار رافق بدوال ابن الاصغر لأوسوعادل شقيقتيه  
گوليزاروگافاز الى أبعد ثغر عند منطقة وجارالدب وحالما بلغوا هناك  
طلبت گوليزار من اخيها ان يعود ادراجها لى القرية فوراً:

- اذهب انت الى البيت يابدو قالت گوليزار فنحن هنا في أمان وقريباً  
سيكون هنا بقية الفتيات وأنت قد اصبحت يافعاً ولا يجوز لك البقاء  
مع الفتيات.

وعلى الرغم من الاوامر الشديدة التي تلقاها من والده بعدم ترك  
شقيقتيه ولو للحظة واحدة لو حدهما، وافق بدو على طلب گوليزار وفضل  
راجعاً الى القرية خلافاً لاوامر والده لم يكن بدو قد وصل بعد الى  
القرية عندما شاهد ثلاثة فرسان غادروا القرية على وجه السرعة احدهم  
كان عگيد آغا وشعر بدو بأن شيئاً ما قد قطعنا قلبه واحس بأن شئ  
ما سيحدث خاصة وانه على علم مسبق بقصه عگيد وگوليزار فانطلق  
مهورلاً الى البيت واندفع الى داخل الغرفة مسرعاً وهو ينادي امه لاهتاً:

- ماما عگيد آغا، كان برفقته شخصان إنهم خرجوا من القرية.

- أين كان اتجاههم؟ سألت الوالدة مذعورة ومن هما الشخصان؟

- لم اعرف كانت ظهورهم نحوي لقد كانوا ينطلقون نحو بشكليش.

- آآآآه يابني لقد افرعتني حتى الموت ثم تنفست الصعداء وازافت:

وهل اوصلت شقيقاتك الى وجارالدب بالذات؟

- نعم الى نفس الفجوة.

- اذن لاداعي للخوف انهما جهتان متعاكستان كلياً فمن وجارالدب

يؤدي الطريق الى قارص أما من بشكليش يؤدي الى اتجاه آخر كلياً  
على ما يبدو توجه عكيد آغا مع اصدقائه الى بشكليش للتسلية.  
- ورغم كل هذا فان اقلق جداً، بدأ القلق الواضح على وجه بدو فانهم  
كانوا مسرعين باحصتهم.

- اذا كان الامر على هذا الشكل قالت الوالدة بلهجة صارمة اذهب يا  
ولدي الان مباشرة الى شقيقتك بالاضافة الى ان والدك سوف  
يغضب لو عرف بأنك تركتهما وحدهما هيا استعجل يا بني قدم  
هنا والقدم الاخرى هناك ودون ان يضيع بدو وقته خرج مجدداً من  
القرية متجهاً الى الرايبة مسرعاً كان تمشيته داخل القرية عادية لعدم  
اثارة اهتمام اهل القرية ولكنه عندما وصل الى اطرافها اندفع راكضاً  
باقص يسرعة للحاق بهما.

ركض دون ان يشعر بالارض من تحت قدميه بالالم من جراء  
تعثره واصطدامه بالاحجار وصل الى قمة تل صغيراً هائلاً نزع سترته  
واستجمع انفاسه وبدأ مجدداً يتسلق نحو الاعلى والشعور بقرب وقوع  
المصيبة لا يفارقه.

وطار كالباشق على قمة جبل سفيك وتابع ببصره الفرسان وبعثة  
اصابه الهلع وصرخ يائساً، كان ثلاثة فرسان يهرولون نحو منطقة  
وجارالدب وتراءى أمامه شقيقتاه من على بعد عبر الاعشاب الكثيفة  
ارتخت ساقا بدو وغشيت العتمة عينيه أطلق صرخة مخنوقة يائسة  
ورفرت في رأسه فكرة العودة الى القرية لطلب العون لكنه تخلى عنها  
تحسباً ان لا يقوم هؤلاء الثلاثة بعمل شاذ عندئذ فان هس يثير الضجيج

عبثاً ولكي لا يضيع وقته هباءً فقد اندفع نحو الامام، توارى عن الانظار من اسفل المنحدرالفرسان والبنات بسبب الانحدار الشديد وعندما بلغ القمة شاهد أحد الفرسان يحاور گوليزاراما الاثنان الآخران فكانا يحاولان تهدئة گافاز التي كانت تصرخ وفجأة قام ذلك الفارس الذي كان يتحدث مع گوليزار بلف يده حول خصرها ووضعها على السرج اما گافاز فكانت تمسك الركاب بيديها وهي تزق صارخة بكل قوتها مستغيثة، حينئذ ومن بعيد اطلق بدو صرخة بأعلى صوته:

- عكيد آغا ايها الغادر لا تلتخ شرفك بالعار.. النجدة.. النجدة!.

عندما سمع عكيد آغا صوت بدو همز حصانه وگوليزار مستلقية عرضاً على السرج امامه واندفع نحو سفح الجبل وهنا شاهد المسكين بدو كيف قام احد الفارسين بطرح گافاز الماسكة بالأعنة جانباً وقال لصاحبه شيئاً ما وانطلقا ليلتحقا بعكيد آغا.

عندما وصل بدو الى شقيقته وجدها على الارضية تنزف دمًا وقد غشيت العتمة عينها ودمدمت وهي تئن بصعوبة:

- اخي آآآه آآآه كم يؤلمني ثم مالت برأسها نحو الفرسان الذين اصبحوا بعيدين واغرورقت عيناها بالدموع وهي تنفس بحشرجة واستندت بصعوبة على يدي بدو وزعقال مسكين بدو محتدًا:

- يا آآ آآ آآ يا نا آآ آآ صرخ وكالمجنون اندفع راكضاً الى الامام رافعاً يديه الملوئين بالدم النجدة النجدة النجدة.

كان صدی صراخه كرياح الجبال يرتد زعاً فوق قرية خراب

ديغور، ترك الجميع اشغالهم جانباً رجالاً ونساءً واطفالاً واسرعوا باتجاه الصوت وفي مقدمة الجميع كانت تركض المسكينة والدة كافاز المقتولة حيث تدلت خصلات شعرها الذي خطها الشيب وهي عارية القدمين .

ثلاثة ايام بلياليها لم ينقطع الانين والعيول ومظاهر الحزن في داراوسو عادل، ثلاثة ايام بلياليها ودون راحة بال أوقد الوالد النار على قبر ابنته وخلال هذه الفترة تركت المراجل التي سخن فيها الماء للغسيل دون مس ولم يطفأ المصباح الوحيد الحزين الذي كان في زاوية الغرفة، ثلاثة ايام بلياليها توافد الناس ليقدمو تعازيهم الى أوسو .

بدأت الزيارة الحقيقية في اليوم الرابع عندما اجتاح قرية عشيرة أوسو نبأ مصيبته كان يستحيل على الناس الذين وصلوا الى خرابديغور وكانت تبدو على وجههم علائم الاستياء والسخط والكآبة .

اخذت عشيرة سيبكا التي ينتمي اليها عكيد آغا احتياطاتها وتحدث ابناء العشيرة عن انه لا بد من وقوع الاشتباكات وسفك الدماء وانه قد حانت نهاية علي آغا وقبيلته وان عشيرة هسنا ستدمر هم شر تدمير وستمحوهم من على وجه الارض وستدمر قريتهم تدميراً تاماً وقد راح بعض الشجعان يتبجحون مهةدين :

- دهم فقط يجربون انفسهم ان مقارعتنا ليست بهذه البساطة .

ارتسمت علائم القلق على وجوه ابناء العشيرة كان الناس يأوون الى فراشهم ليلاً وترادهم فكرة هل سيمضونها على خير وهل سينجون من سيوف عشيرة هسنا .

هكذا كان قانون الاكراد: فهدر دم شخص واحد من القبيلة كان كافياً  
بأن تقوم القبيلة بتدمير القبيلة الاخرى وفي وسط هذا الجو المشحون  
والمتوتر وازاء تهديدات ابناء عشيرة هسنا الذين كانوا في جيئة ورواح  
مستمرين فوجئ الناس في صبيحة احد الايام بدخول فرقة عسكرية  
روسية الى القرية.

\*\*\*

## قبيلة ضد قبيلة

بددت صرخة النجدة هدوء ليل القرى السيبكية في منطقة قارص  
لقد زحفت عشيرة هسنا بجيش كبير نحو ممتلكات السيبكيين فخراب  
ديغور في خطر انهضوا من سباتكم ان عمريك آغا جريح ونجله علي  
آغا يلفظ انفاسه الاخيرة واستعد معظم الرجال القادرين على حمل  
السلاح للقتال وتعال الصيحات في الاجواء وهرع السيبكيون الى  
خراب ديغور لمساعدة رئيسهم، جاؤوا من قرى مختلفة، من (يامان  
جاير وشاتيراوغلي وقراقول وسورخلي وقزلجه) دفاعاً عن شرفهم  
كيلا يدنس عار الهزيمة ذكرى الاجداد ويسود صفحة الجيل القادم  
ولكي لا يبدون في عيون النساء والاطفال ضعفاء ولتنظيم الاغاني عن  
مآثرهم البطولية بل وما مغزى حياة ابن الجبل في هذا الكون لو يسمع  
صهيل خيول الاعداء امام داره وتسمع بنات عشيرته صليل سيوف  
العدو ويقف ساكناً؟

تصاعد الغبار على الطرقات وارتفع نباح الكلاب ودوت اصوات  
سنانك الخيل وارتفعت في ظلام الليل صيحات الفرخ والدهشة عندما  
عرفوا بعضهم البعض وانت معنا ايها الجد علو.

- رد الجد قائلاً: هل أنا اسوأ من غيري يا بني؟

وكان شبح الموت مثل طير جارح اسود يحوم فوق الارض لقد كان الكردي يقاتل ضد ابناء جلدته وثارَت العشيرة ضد الاخرى والآن انبعث في الذاكرة العداوات القديمة التي ملأت القلوب بالحقد والثأر وسارع المقاتلون وهم على صهوات خيولهم للحاق بالعدو والقضاء عليه.

عند بزوغ الفجر تمركز المقاتلون من عشيرة هسنا على جانب قرية خراب ديغوار اما السيبكيون فقد شغلوا الجانب الآخر واخذت وحدة من الجنود الروس مكاناً لها بين الفريقين المتخاصمين بغية تهدئة العشائر الكردية التي فقدت صوابها نتيجة هذه النزاعات المستمرة، كان الفريقان ينتظران بفارغ الصبر قرب وقوع المعركة لأخذ الثأر وبدا ان اعطاء اشارة صغيرة كان يكفي لبدء القتال ولان تجري انهار من الدماء وتصبح قرية ديغور كعصفم أكول ولكن عندما كان الفرسان من عشيرة هسنا يترقبون بلهفة الاوامر بالهجوم على مواقع السيبكيين، جرى اجتماع رؤساء العشائر الايزيدية في دار اوسو وبحضور ضابط روسي وقد طلب هذا الضابط من رؤساء عشيرة هسنا التراجع عن موقفهم الطائش وتجنب اراقة دماء الابرياء من الناس وسمع من وراء الباب صوت جاوزو بك الجمهوري:

- سيدي الضابط! لاتعرفون طبع الانسان الكردي، فنحن نعيش حسب الاعراف والعادات القبلية الكردية فقد انتقلت عادة الأخذ بالثأر من جيل الى آخر وقد تكوّنت خلال قرون عديدة.

أما اليوم فقد دُّس شرفنا فقد قام احد افراد عشيرة سيبكا بقتل فتاة من عشيرتنا وخطف شقيقتها التي كانت مخطوبة وسيدفع عمر يك آغا

وابناؤه حياتهم ثمناً لما ارتكبوا من جرم شائن ولم تقطع هذه المسافة الطويلة عبثاً ونعود لادراجنا، وسأكون ابن زانية ان لم أثار من هؤلاء الاوغاد ولن نحيد عن قرارنا، هذا كل ما اريد قوله.

ساد الصمت برهة من الزمن، سمع الضابط الروسي بانتباه شديد كلما قاله رؤساء العشائر كلمة بكلمة فقد كان في الخمسين من عمره، هادىء الطبع، سريع الحركة وقد خطَّ الشيب فوديه، وكان له عينان زرقاوان كلون البحر متعبتان ووجهه مليئاً بالتجاعيد يدلان على حياته القاسية بعد ان اصغى الى الجميع من البداية حتى النهاية اطفأ سيجارته التي اوشكت على الانتهاء ونظر بأمعان الى جاوزو بك قائلاً:

- ايها المحترم، اريد ان اذكرك انه يوجد قانون واحد لجميع رعايا روسيا ليس بمقدورنا ان نقف مكتوفي الايدي ونشاهد كيف تقضون على بعضكم البعض، سوف لن اسمح باراقة الدماء! تذكروا سوف لن يجري ذلك.

- ولما لم تتدخل السلطات التركية في شؤوننا؟ ألم تكن هناك سلطات؟  
سأل احد اعضاء المجلس ان السيبكيين في العام الماضي تشابكوا مع الحيدرانيين حيث سقط رجال كثيرون دفاعاً عن شرفهم بل وقدمت السلطات في تركيا السلاح لاحدى العشائر، اما هنا فقد قاموا بخطف فتاة مخطوبة وقتلوا شقيقتها وعلينا ان نتحمل العار واين يحدث مثل هذا الامر؟ وتطير من عينيه شرر الغضب، ياسيدي الضابط بقدر ما يكون الكوردي نبيلاً، يكون بنفس القدر قاسياً وشديداً في لحظة غضب.

سوف نحل مشكلتنا بانفسنا سواءً أكان خيراً أم شراً، من الافضل عدم التدخل في شؤوننا.

كما كان بين المجتمعين المعلم الشهير الارمني اسرائيل ميرايان، الذي حضرها برفقة الضابط الروسي، فقد كان يحظى بأحترام الناس لعقله الراجح وشجاعته وكان ملماً بلغات عديدة، فقد كان يتكلم الكوردية بطلاقة، والتركية ويتحدث الروسية بشكل جيد.

نهض من مكانه بهدوء وطلب السماح له بالكلام ثم قال:

- اعضاء المجلس المحترمين! انا شخص غريب، لست سيبكيكياً ولا من عشيرة هسنا لكي ادافع عن طرف ضد طرف آخر وكلاهما عندي سيان، لذا اسمحوا لي ان اقول ما افكر به وما يجري في خاطري.

- تفضل بالحديث فنحن نسمعك، انحنى له بلباقة اوزوبك ابن فرحان آغا.

- ايها الاصدقاء، بدأ المعلم حديثه، اقدم اعتذاري مسبقاً في ما لو لم يعجبكم كلامي لقد ذكر الآن احد اعضاء المجلس الموقرين في حديثه تركيا لكنني لست متفقاً معه!.

- وما هو السبب؟ قاطعه جاوزو بك.

- مهلاً يا اخي ساقول كلشيء، لقد زرعت السلطات التركية بذور الشقاق بين قبائلكم وحاولت تبديد شمل شعبيكم ومنعه من الاتحاد، لكي لاتصبحوا اسيا دارض اجدادكم وآبائكم هذا ما حدث في الماضي مع السيبكيين والحيدريين، فعندما قام الاتراك بتسليح العشيرتين وبدهاء كما اعتادوا على ذلك، اشعلوا نار الفتنة بين العشيرتين، اما هم فقد اتخذوا موقفاً متفجعاً وهم يراقبون وبسرور حرب اقتتال الاخوة.

اما زعماء القبائل ودون ان يدركوا الامر قاموا بتسليح رجالهم، وأمر وهم بشن الغارات على القرى ونهب الماشية وبعد ان استنفذ الطرفان قواهما وسقط معظم الرجال القادرين على الحرب في المعركة ولم يبق سوى الشيوخ والنساء والاطفال، عندئذٍ تقدّم الاتراك واخضعوا بسهولة اراضي الكرد بالاسلحة و((بجد ونشاط))، وانت يا جاوزو بك ترغب في قتل الآلاف من الناس الابرياء من اجل فتاة واحدة، أليس كذلك؟ دوت كلمات المعلم المقنعة في جو ساكن وكان جميع اعضاء مجلس الشيوخ يسمعونه بأذان صاغية، وبدا ان كل كلمة من كلماته كانت تطرد بعيداً الشرر والغضب، حاول جاوزو بك عدم النظر الى المعلم، لكن عندما وقعت نظرتة صدفة عليه جالب بصره واصفرّ وجهه كظفل ارتكب ذنباً.

- فضلاً عن ذلك، اردف المعلم قائلاً، افلح الاتراك ايضاً في تأليبكم ضد الارمن الاصدقاء القدامى لآبائكم، اذكر عندما كنا نعيش في آلاشكير، الطرف الآخر من الحدود، كان الجنود الاتراك كثيراً ما يترددون علينا ويدعوننا الى اتخاذ الحيلة والحذر من الاكراد. وفي الوقت ذاته قاموا بتحذيرهم من بطش الارمن الذين - كما زعموا - يتربون اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم، وبعد كل ماجرى، تطالبون السلطات الروسية السماح لكم ان تدخلوا من جديد في قتال ونزاعات داخلية، عودوا الى رشدكم ايها المحترمون قبل فوات الاوان!.

- صمت المعلم، واخرج من جيبه منديلاً مسح به العرق الذي كان يتصبب من جيبيه.

- انا موافق تماماً مع رأي المعلم المحترم، قال ذلك الضابط الروسي، ملقياً بنظراته على كل من اوزوبگ وجاوزوبگ لقد جئت مع القوات الروسية لتجنب اراقة الدماء عودوا الى رشدكم ايها المحترمون!، وسينال عكيد آغا جزاءه حسب القانون، فقد أرسل ساديموف رئيساً لشرطة جماعته للبحث عن المجرم وسيلقي القبض عليه عاجلاً ام آجلاً وحيثُ لن يفلت من العقاب الشديد.

وساد ثانية صمت كصمت القبور وعندما استعاد الناس ذكريات السنوات الماضية التي قضوها في تركيا فقد وافقوا في اعماق انفسهم على ما قاله المعلم والضابط الروسي وفي الوقت ذاته كانت فكرة الثأر تقض مضاجعهم فمن سيماء وجوههم كان المرء يرى انه كان ثمة صراع داخلي شديد يجري في نفس كل واحد منهم، لكن عيونهم كانت تشع وتدل على ادراك الواقع.

كان لا بد من القول الفصل توجهت انظار الحاضرين نحو اوزوبگ وجاوزوبگ.

- مارأيك في هذا الامر ايها الوالد؟ توجه اوزوبگ الى رجل كهل أشيب الرأس كان جالساً بجنبه وكأنه يطلب منه اسداء نصيحة.

وقد بعث السؤال المفاجيء الذي طرحه البگ الارباك في نفس الشيخ بحيث بعد ان جمع افكاره بصورة بطيئة كما يجري مع الشيوخ ووضع مسبحته في جيبه رافعاً حاجبيه الكثيفتين وتكلم بهدوء:

- اخوتي، لا تعتقدوا أن العجوز قد فقد رشده أو انه لا يفهم عادات الثأر لقد رأيت خلال حياتي الطويلة كثيراً من المصائب والافراح والاتراح والحروب بين العشائر.

انا موافق على ما قاله عزيزنا اسرائيل فالاعمال المنافقة للسلطات التركية لم تنفعنا بل كانت كالعظم في الحلق، فقد نكتل الاتراك بنا بأيدي كندية انني اتوجه اليكما انت جاوزو بگ وانت اوزو بگ كوالد وأخ لا تعارضوا السلطات، فهذه الارض هي لقيصر روسيا فالسلطات الروسية تبين الطريق الصحيح لكي يتم كلشيء دون اراقة الدماء ودون ويلات.

فالله شاهد على ما اقول:

ان علي آغا سيحاسب امام السلطات لما اقترفه شقيقه الغادر من جرائم.

- انه قول حكيم، صاح الضابط الروسي.

- ليكن كما تشاؤون، قال اوزو بگ ونهض من مكانه مشيراً الى انهاء الاجتماع.

وفي المساء خيم السكون مجدداً على قرية خراب ديغور وكأن الخطر لم يكن يحرق بها منذ فترة قصيرة من جانب عشيرة هسنا الرهيبة.

\*\*\*

## إعتقال عكيد آغا

وما أن ملأ رئيس قسم الشرطة وساديموف بطونهما بما فيه الكفاية في دار عمريك آغا، حتى ودعا صاحب الدار المضياف و برفقة مجموعة من الجنود وتوجه كل واحد منهما إلى مركزه.

عادا بعد زيارة عمريك جذلين منشرحي الصدور: فالعجوز عمريك قلق على مصير ابنه، لذا لا بد من الحصول على هدايا ثمينة منه، فكرا في أعماق نفسهما.

وقد لاحت إمارات الإنشراح على وجه ساديموف بشكل آخر، فهذا الأخير كان يعرف جيداً أن الأكراد يمقتون كلمة (سيبيريا) وبدون تردد فهم جاهزون للإلقاء كل ما لديهم أمام قدميه شرط أن لا يلفظ هذه الكلمة المرعبة أمامهم.

وبينما كان ساديموف غارقاً في أحلامه اللذيذة، وعلى حين غرة، أطلق ضحكة مدوية، مما أثار الذعر لدى حراسه الذين ذهلوا من المفاجأة وإتسعت حدقات عيونهم مشدوهين من ضحكة رئيسهم المفاجئ. وعندما لمح ساديموف نظرات مرؤوسيه الخاطفة المتوجهة إليه، شد اللجام وتوقف وصار يشير بإصبعه قائلاً:

- أنظروا أرنبه!

وبينما نظر الحراس إلى حيث أشار سيدهم بذهول، أنسل ساديموف من وراء الحراس وأصبح أثراً بعد عين، أنفرجت شفتاه عن إبتسامة جدلة لنفسه منفرداً.

وكان لا يزال ساديموف في البعد، حين أبصر حشداً في فناء قسم الشرطة - (ها قد جاءني الصيد بنفسه) - فكر ساديموف في دخيلة نفسه هجز الحصان بكعبيه وأندفع كالصقر نحو فناء المبنى.

دنا منه مباشرة أحد الخفراء منتصباً أمامه بخضوع تام ثم بلغه:

- سيدي ساديموف، لقد عثرنا على تلك الفتاة المختطفة أنها هنا.

- جميل! قال ساديموف مسروراً وأندفع نحو الدائرة، كان المكان غاصاً بالبشر، فقد تجمع الناس بالقرب من دائرة الشرطة توافد الإيزيديون قاطبة إلى هنا بمن فيهم السيكيين من أصل ديلهر وجمال الدين كما هرع هنا الفلاحون من ديغور الأرمنية وإرتسنت على الوجوه إمارات الألم والذعر والإشمئزاز من جراء هذه الفعلة الشنيعة التي بسببها سادت البلبله والذعر والطينين في المنطقة منذ عدة أيام وعيون القرويين كانت تنظر شرراً وحنونهم غيظاً فقد غمرتهم رغبة عنيفة في معرفة المزيد من المعلومات الجديدة والدقيقة حول الحادث، فكل ما سمعوه حتى الآن لم يشف غليلهم وأرادوا التأكد من صحة وقوع هذا الحادث المروع لم يتذكر الناس طوال حياتهم حدثاً اعتقلوا فيه امرأة كردية وتم إستجوابها جبراً من قبل رجال غرباء ياللعار! كان من الأفضل لنا أن تبلعنا الأرض من

أن نرى ذلك! تمتم الحشد هامسين والشتائم المقذعة تدوي في  
سعار بحق مسيبي الجريمة:

- اللعنة على أصلك يا عكيد آغا! ولتحرم أمك من السعادة أيها اللعين  
الغادر! لقد دنست شرفنا وأصبت كرامتنا في الصميم وفضحتنا أمام  
الآخرين وأسأت إلى سمعتنا.

كان الفلاحون في الصف الأخير، واقفين على أطراف أصابعهم  
وأمتدت أعناقهم إلى الأمام وراحوا ينتظرون وبفارغ الصبر فتح الباب  
ليعلنوا على الملأ حقيقة الأمر سواء كان ذلك مفرحاً أم محزناً.

لكن السكون كان يخيم على ما وراء الباب سوى عدد من الخفراء،  
كانوا يمسكون ببواريدهم بشدة ويزرعون الأرض بخطى عسكرية  
منتظمة ثابتة أمام المبنى، رائحين ذاهبين، دون السماح للناس بالاقتراب  
من على بعد عشرة أمتار.

وفجأة، أنفتح الباب وبرز على عتبه عدد من الحراس، وراحوا  
يهمسون بشيء ما وبعد أن تعالت الضحكات المتتالية إعتلوا ظهور  
خيولهم وأنطلقوا ينهبون الأرض بإتجاه ما.

دبت الحركة في الحشد وراحوا يشيعون بنظراتهم الفرسان الذين  
باتوا بعيدين وراح صوت يدوي بين الجماهير المحتشدة:

- والآن سوف لن يفوت القصاص عائلة علي آغا، فقد حانت نهاية  
أسرته لقد توجه الجنود إلى خراب ديغور لإعتقاله، أنه سيدفع ثمن  
فعلته هذه.

- أقلق هذا الخبر الجميع ودبت الحركة في الحشد: راح الناس كالنحلة في طيرانها الربيعي يروحون جيئةً وذهاباً، يجتمعون ويتفرقون، يثيرون الضجيج والصراخ كما لو أنهم يحاولون أنقاذ أنفسهم من الفيضانات.

وعلى حين غرة وفي هذه اللحظة صرخ أحدهم قائلاً:

- أنظروا، ها أنهم يقودون عمر سمو والمسكين عطو...

أحاط بالمعتقلين من الطرفين الجندرية متأرجحين على أحصنتهم وهم يصرخون بين فنية وأخرى بوجه الحشد بغية إبعاد الناس عنهما.

كان يسير في المقدمة عمر مربوط اليدين وخلفه كان يسير عطو مجرداً أقدامه بصعوبة، سارا مطأطيء الرؤوس دون أن يرفعا عن الأرض عيونهما الحزينة.

كما جاء أحدهم بخبر مؤلم قائلاً: لقد أعتقل العجوز چاچان گالو لقد أنهال عليه الجندرية بالضرب حتى قارب الموت وفقد اقاربه الأمل في رؤيته حياً لم يكن أحداً يعرف سبب إعتقال هذا العجوز المحترم.

- ما هذا الذي يحدث؟- عبر الناس عن إستيائهم، - كيف لم يقطع أيادي هؤلاء الوحوش حتى الآن؟.

إزداد الناس سخطاً وتطايير الشرر من عيونهم وأنتابهم التذمر.

- مصاصو الدماء! لماذا إعتقلوا العجوز دون ذنب؟ قطاع الطرق!..

تمشى الحراس ذهاباً وأياباً بتبختر أمام الأبواب دون أي إكتراث بالحشد الغاضب مكتفياً بإلقاء نظرة إستخفاف وإستعلاء عليهم أحياناً.

ولكن فُتح الباب بهدوء وخرجت گوليزار.

تعالت هتافات الشفقة والحنان من الحشد عند خروج البنت التي علت وجهها علامات الذعر والإرتباك وتراقصت عيناها متسائلة: لماذا يسخرون منها بهذا الشكل؟ وفجأة إلتوت سحتها وندت عنها صرخة حادة ثم هوت على الأرض.

هرع إليها في الحال طبيب القسم وسار خلفه أحد الحراس وبيده كأس يفيض ماءً، أخذ الطبيب يجس نبضات قلبها ثم دعا أبويها وهدأ من روعها قائلاً:

- ليس هناك ما يدعو للخوف، أنه إغماء بسيط إحملوها إلى البيت.

راح الناس يعرضون عليهم مساعدتهم، فأحدهم أحضر عربة مشدودة بطقم ثيران ونقلوا گوليزار إلى العربة أحست گوليزار بإحتقان في حلقها فاقدة الوعي وأخيراً، فأن والديها أخذاً إبتتهما إلى خراب ديغور وقلبهما يعصرأن ألماً من شدة المصيبة.

وما أن أدلهم الظلام وأسدل بستاره الأسود على الجبال والمروج والبساتين والبيوت حتى طرق أحد الأشخاص باب علي آغا وهو ينظر حواليه بحذر كان ذلك الشخص من أحد الحراس وصديق قديم لعائلة عمريك وكان إسمه خاجو.

أن عمريك الذي كان يبتهل بالصلوات خلال كل هذه الأيام فرح بقدوم الضيف من قلبه وأمر النسوة بتجهيز المائدة، إلا أن خاجو رفض طلبه وقال بلهجة جادة:

- لتزدهر دارك يا آغا! وأشكرك على التقدير والاحترام، جئت إليك  
لعدة دقائق وقبل أن يحس أحد بقدمي، أرجوك أن تسمعني..

- كما تريد، لم يجبره عمريك آغا ثم أصاغ السمع.

- أن ما أريد قوله لك يا آغا، قال الحارس، أنك على علم بأن البوليس  
ووحدة كبيرة من الجنود يفتشون كل المنطقة بحثاً عن عكيد آغا  
وفي صباح هذا اليوم وفي طريقهم إلى سوسير إلتقوا بإمرأتين لقد  
جلس الأبالسة على يافوخهما وأدركتا فوراً عن يبحثن الجنود  
لذا فأنهما حلفتا البوليس بعدم الكشف عنهما حيث كان وجهيهما  
مغطى بحجاب، وراحتا تبلغان بأن عكيد آغا ومعه الفتاة المخطوفة  
يختبئان عند عجوز من قريتهم وهو چاچان گالو ثم أضافتا بأن الفتاة  
المخطوفة على فراش الموت، لا تأكل ولا تشرب، مكتفية بالبكاء  
على أختها المقتولة وعلى شرفها المدنس، وعليهم الإلتحاق بها  
وبسرعة قبل أن تنتحر.

وما أن أنتهوا من السماع إلى أحاديث هاتين المحتالتين حتى أندفعوا  
كالمجانين بإتجاه سوسير، وأخذوا يقتحمون دار العجوز چاچان گالو  
وقلبوا البيت رأساً على عقب دون أن يعثروا على عكيد آغا، لكنهم عثروا  
في زاوية مخفية من البيت على گوليزار المذعورة حتى الموت.

وأخبرت گوليزار ساديموف عن كل ما حدث، أما ما يخص كل من  
عمر وعطو فأنهما أخذتا كل المسؤولية على عاتقهما.

- أن حليب أمهما حلال، قال العجوز، سأكون لهما من الشاكرين.

- أما چاچان العجوز، البندق الصلب - عاود خاجو حديثه - لم يغير التعذيب من إعترافاته ولم يبح لهم بشيء، حيث إكتفى قائلاً: نعم، حل عكيد آغا علي ضيفاً، لكنني أجهل مكان وجوده الآن وتقول لإشاعات بأن چاچان قد مات تحت التعذيب الشديد.

- آه، فديته بنفسه! تأوه عمريك متحسراً ضاغطاً قبضتيه.

- إسمعني إلى الأخير، قال خاجو، قبيل المساء أرسلت فرقة خيالة إليسوسير التي طوقت القرية كاملة وفتشت جميع البيوت حيث لم يتركوا زاوية واحدة دون تفتيش وكانوا على وشك الخروج من القرية لولا هذا الكلب حميد، ياله من رجل تافه! لمح البئر، أزال الغطاء واذا بعكيد آغا يمسك بالحبل بصعوبة سحبوه من هناك وكتفوا يديه ورجليه ثم ألقوه في الزريبة وما أنا علمت بذلك ودون أن أنتظر نقله إلى ساديموف في قسم الشرطة، أنطلقت على جناح السرعة لتبلغك والآن فأن ما تبقى هو من شأنك يا آغا، عليك استخدام إمكانياتك في سبيل إنقاذ إبنك أن سيبيريا تنتظره وعندما نطق بكلمة (سيبيريا) إستبد به القلق خشية عليه وضرب الآغا صدره يائساً وهتف بصوت جهوري:

- آآه يا بني، أيها المسكين! لم هدمت داري؟ آآآه، لو كنت تعطي والدك المجال يموت مطمئن البال!.

دوى صوته أرجاء البيت هرعت العائلة والخدم وقد أنتابهم الفزع لكن العجوز طرد الجميع وأمرهم بعدم دخول أي شخص عليه، وبقي وحيداً مع مصيبته...

في وقت متأخر من مساء اليوم التالي، عاد عمريك برفقة علي آغا من ديغور الأرمنية. كان الجلوس الطويل على السرج قد ارهقهم جداً ولكن عيونهم كانت تبرق أملاً.

دلف الأب والابن المضافة، فحيا على المجلس المؤلف من الأقرباء ورؤساء القبائل الذين أنتظروا بفارغ الصبر منذ الصباح الباكر ثم أخذوا مكانهما في المجلس كان كل شخص منهم يبدي إستعداده وبرغبة جامحة لتقديم يد العون سيده ومساعدة ولده وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا مع كل واحد.

ألقي عمريك آغا على الحاضرين نظرة ترحاب ثم قال بهدوء:

- أيها المحترمون - رؤساء عشائر السيبكية! أرى في عيونكم كيف تنتظرون بفارغ الصبر السماع عن زيارتنا إلى ديغور.  
- عسى أن يكون خيراً، عبر الحاضرون عن شعورهم.

- إذن، إسمعوني إخوتي وأبنائي! لقد تحدثت في ديغور مع جميع المسؤولين ومع المحقق زاخاروف ومع النائب العام في القضاء كوناكوف ومع ساديموف جسست نبض الجميع وفهمت ما يريدون.

- بإعطاء كل واحد منهم في يده، أليس كذلك؟ أكمل فكرته او كيز ممو.  
- بالضبط هذا يا صديقي، رد عمريك آغا، أنهم حريصون على الرشوة كالذباب على العسل.

وتدخل في الحديث او كيز مرة أخرى:

- عمريك آغا، لقد إجتمعنا هنا ليقوم كل واحد وحسب إمكاناته بمد يد العون إليك في هذه الساعة العصبية وإعتبر أن عكيد آغا ليس فقط إبنك بل وإبننا جميعاً، مادام يجري في عروقنا الدماء سنقوم بالواجب على أكمل وجه، قل لنا يا عمريك آغا كم يلزم ونحن سنقوم بالواجب.

- كلامك صحيح يا او كيز! أيد هذا القرار عجوز غزا الشيب لحيته - كان يجلس جانب او كيز- هذا هو الحل الأمثل، يجب أنفاذ عكيد آغا والشابين الآخرين، يا عمريك ما سينطقه لسانك ستحصل عليه والله شاهد على ذلك، سوف لن نخرجك سندفع لهم ما يريدونه شرط إخلاء سبيل الشباب...

أخذ الحديث طابعاً جدياً، شارك الجميع في الحديث، حيث أبدى كل فرد منهم إستعداده للوقوف معه، مما حرك ذلك أحاسيسه وغطت دموع الفرح عينيه تأثراً بمشاعر أبناء قبيلته النبيلة وأخيراً، قال بصوته العجوز وقد غمره القلق والإضطراب ماسحاً دموعه بكمه الفضفاض:

- أبنائي، بارك الله فيكم وأتمنى لكم المجد والعزة وشكراً لأمهاتكم اللاتي أنجبن أبناء جديرين لعشيرة سيبكا! والآن وعندما تدعمون موقفني بحرارة وحماس، يبدو لي الأمر وأقسم لكم بالشيخ المقدس<sup>(1)</sup>، وكان إبنني عكيد موجود بين أهله في البيت ولم يحدق به أي خطر لقد قلتكم كل ما كنت أريد قوله وليس لدي ما أضيف... فالسلطات كالبالوعة تبتلع كل شيء وكلما تعطيها طلبت المزيد وأن

(1) مراجعة التوضيحات التسلسل (7)

لم تعطىها ستتقضى عليك كالدب وتخنقك ولكن المسألة لا تنحصر في السلطات لو حدها بل لابد من إيجاد سبيل إلى قلب عشيرة هسنا.

وإليكم ما قاله زاخاروف:

- رآغا، لأطلقت سراح عكيد حالاً إحتراماً لك إلا إن عشيرة هسنا أنتفضت مطالبة بإنزال العقوبة بحقه ووفق القانون فلو كان المجني عليه من أبناء عشيرتك لدعوته إلي وخوفته وحينئذٍ كان سيعود كل شيء إلى طبيعته ولكن لا تقلق سأعمل كل ما في وسعي ولكن يجب إقناع الفتاة بالتخلي عن أقوالها السابقة في المحكمة وهذا ما أكد لي بالضبط النائب العام والحاكم ومن المؤكد أن هؤلاء قد إنفقوا سابقاً على هذه الصيغة فيما بينهم وتوجهت من عندهم إلى ساديموف. وقد عهد هذا الأخير بأن لا أقلق مضيفاً بأن النائب العام والحاكم ينظران إلى أيديكم السخية، فعليكم (تزيد الدواليب) وما تبقى سأخذه على نفسي...

- لقد تحدثنا عن ذلك بما فيه الكفاية يا عمريك آغا - قال عمدة قرية قزلجه - فكل شيء واضح كالنهار سأتوجه حالاً إلى قريتي وأحاول أن أخذ من كل دار شيئاً ما، غنماً، نقوداً، أي شيء كان....

- لينعم الله عليك بالعافية! - قال بيرقاسو - فلو نجتمع من كل بيت سيحصل كثير!.

وهذا ما قرر أن يفعله رؤساء القبائل.

- والآن لابد من الإسراع أيها الأخوة - قال رئيس عشيرة جوخ رش،

وهو ينهض متثاقلاً من مكانه، ثم أضاف: مع الصباح لابد من أن يكون كل شيء هنا زد على ذلك يجب تحديد جزء منه لفرحان آغا وجاوزو بك وإعطاء شيء إلى أوسو من يمان جاير مضيقاً عينيه وأضاف مشكوكاً: لكنني أخاف من أن يرفض كل من فرحان آغا وجاوزو بك المصالحة وأن لا يقبلوا هدايانا....

- لا تقلق أيها المحترم، - قال بيرقاسو، بوسعنا إيجاد مفتاح إلى قلوبهم، فيينا رابطة دم وتاريخ مشترك سأذهب بنفسى مع الهدايا إلى عشيرة هسنا.

- لا حياة لنا في هذا العالم بدون عقلك الراجح يا بيرقاسو، قال عمريك آغا ثم توجه إلى الباقيين:

- أطال الله عمركم يا أقربائي؟ لن أخذ من وقتكم أكثر من هذا لكنه راودتني فكرة الآن، يجب إرسال امرأة ما معكم أن عشيرة هسنا قد لا تستقبل الرجال لكنها لن تفعل ذلك مع النسوة أو على الأقل خذوا معكم مندبلاً نسائياً احمر أما الباقيون فأرجو أن يكونوا عندي غداً مساءً لابد من الإسراع في ملاقاتة المسؤولين الروس وكذلك في إقناع ابنة أوسو بتغيير إعتراقاتها.

- ماذا عليها أن تقول في المحكمة؟ توجه إليه بالسؤال، فجأة، اوكيز ممو.

- ماذا؟ إرتبك عمريك آغا أعتقد أن ذلك يجب أن يتم بالاتفاق مع فرحان آغا هرباً من الخلافات الجانبية فأنهم إذا ما وافقوا على المصالحة فليس صعباً عليهم إقناع الفتاة بالعدول عن رأيها وأخيراً فأن فرحان آغا سيتمكن من الضغط على والدها.

- أما أنا فأفكر على النحو التالي، راح او كيز يعرض فكرته بحكمته المعهودة، علينا بالتحدث مع أوسو شخصياً ليقوم هو بدوره بإقناع إبنته وإجبارها على أن تقول: بأنها هربت مع عكيد أنما بمحض إرادتها ولحبها له ولا داعي للتحدث مع فرحان آغا بهذا الخصوص بتاتاً قد يعقد ذلك المسألة أكثر.

- أستحلفك بقبر والدك أن تسكت! لا تكدرنا وتثبط هممتنا! قاطعه بيرقاسو ممتعضاً، ليس أنت الذي ستذهب إلى فرحان آغا بل نحن، ولا تقلق فبدون نصائحك سنجد السبيل لرضوخ الفتاة وكما سنجبرها على أن تقول: بأنها رأت شخصياً كيف اصطدمت شقيقتها بالحجر وتهشم رأسها وبهذا الشكل لم يقتل أحد شقيقتها...

- آآه، أيها الأب المقدس، لن يصدق أحد من الناس هراءك بهذه البساطة، قال او كيز، وأنها سوف لن تقول ذلك بأي شكل من الأشكال سوف لن تدنس ذكرى شقيقتها...

- لا تنسى أيها المصلح! هب بيرقاسو واقفاً كالمجنون على قدميه، تذكر مع من تتحدث! ليس أنت من سيحل المشكلة! وفيما لو رفضوا ذلك، سنفكر بطريقة أخرى ومن الأفضل أن تعلن لنا ماذا حملت إلينا وما تبقى فأنها من مهماتنا.

غطت وجه او كيز بقع قرمزية ووصل من الحقد إلى درجة الغليان لكنه تصرف بحكمة. لقد أدرك تمام الإدراك بأن مشاكسة رجل دين قد تلحق به مزيداً من الضرر لذا لاذ بالصمت، محاولاً السيطرة على الإضطراب الذي إستحوذ على نفسه عابساً.

وما أن أنتهوا من مناقشة جميع المسائل حتى نهض الحاضرون وراحوا يودعون عمريك وعلي آغا، متمنين النجاح لبعضهم البعض ثم تفرقوا واحداً بعد آخر إلى قريته بعد أن خرج الجميع، رمق عمريك آغا ابنه بدلال وقال بغبطة وحبور:

- لا تتعذب يا بني! لن يمر إسبوع واحد حتى يكون أخوك عكيد في البيت لن أكون عمريك آغا أن لم أطلق سراح إبني، ليس لي أحد سواكما ومن أجلكما فأني مستعد على مواجهة النمر... أما بير قاسو فماهر جداً أوقف او كيز هذا عند حده كما يجب.

- هذه ليست بمشكلة، ولكن هل تفكر كيف تتفق مع ساديموف؟ يلتهم كذئب جائع، فمهما أعطيته يطلب المزيد.

- آه يا بني! أن سند المرء عشيرته والآن فأن ساديموف لا يخيف كثيراً، سنعطيه شيئاً ليسكت.

- فديتك بنفسي يا أبي! لا حدود لذكائك أجاب علي آغا مرتبكاً.

- لا قدر الله يا بني! من الأفضل أن أكون ضحية أمام أقدامك، قال العجوز عمريك آغا بشعور مرهف، فأنتم أملتي وسعادتي! وأنت لا تكتئب يا بني فالمصيبة ضيف قد يمر على كل واحد لكن من الأفضل للمرء أن يموت من أن يلطخ إسمه وشرفه ثم رفع عينيه إلى فتحة الهواء <sup>(1)</sup> حيث أبصر من خلالها نجوماً خافتة شاحبة ترصع السماء، ثم صمت العجوز عمريك...

---

(1) گولك: كلمة كوردية وهي عبارة عن فتحة صغيرة كانت تترك في اعالي الجدران لتنتقية جو الغرفة.

حان موسم الترحال ونصبت عشيرة هسنا خيمها على سفح جبل سيناك قسمت القبائل والعشائر فيما بينها المراعي الصيفية وتعالى في الهواء من سفوح الجبال ثغاء الغنم وخوار البقر وصهيل الخيول وعواء الكلاب الكسولة الذئبية وتناهى إلى الأسماع صوت الناي الرائع أمتلأت الجبال العارية بأصوات الناس أسرع السواقي الجبلية إلى الأسفل في حمحمة جنونية مشكلة تياراً قوياً واحداً إزدأنت سفوح الجبال بسجاد بهيج من الأعشاب الزاهرة يبهج العيون بروعته أما هواء الجبل! فكان نقياً صافياً، نسيماً عالياً، كما لو أنه تمضمض من ينبوع ماء جبل سيناك...

بنت العصافير أعشاشها في كل مكان بين الأعشاب على المروج الجبلية العالية، فخطوة واحدة طائشة قد تتسبب في قتل افراخ غير مفقوسة كان في هذه اللوحة الرائعة شيء اسطوري يوحي بالمرء بالدخول في جو شاعري: فجمال الطبيعة الخلافة الرائعة الخضرة، صادق بتغريد الطيور الشادية، وشقشقة العصافير وزير الصرّار.

وراحت الجداول لتحطم مجنونة وتتعالى القهقهات المرحّة الصاخبة من الفتيات الكورديات اللاتي أرتدين أجمل ثيابهن فزادتهن جمالاً، كما لوأنهن أخذن من الألوان الزاهية الربيعية التي أكتستها الجبال.

وفي المساء.. وعلى سفوح الجبال، زحف الليل من السهب ببطئ فأسبغ العتمة ألواناً قاتمة وكانت نسمة عليلة خفيفة تموج أعشاب المرج بتكاسل وتحرك الأزهار بخفيف في السهب والنعناع يعقب برائحته الفواحة في الممرات الجبلية وكان الرجال يجلسون قرب النار المشتعلة هنا وهناك أمام الخيم في حين راح المسنون يسردون وبحماس تاريخ

الأبطال الذين لم يهابوا الموت وأصغى السامعون هذه القصص بشعور مليء بالفخر والإعجاب.. وفي أحد الأطراف علا صوت الطبل والمزمار مترافقاً مع الأصوات الرقيقة للفتيات اللواتي شكلن بأهازيجهن جوقة غنائية، كان الغناء عذباً حزيناً أما الشباب والشابات قد أنغمسوا في حلقة رقص واحدة متلامسة فيها أكتافهم.

أما الشيوخ فقد راحوا يتفرجون على الرقص بعيون نارية ملتهبة حزينة وإستعادوا في ذاكرتهم تلك الأيام التي لن تنكفى ولن تعود في حين أنغمس البعض الآخر منهم، وبين قهقهات الأولاد الذين لا يعرفون الراحة، في حلقة الرقص يتمايلون على أقدامهم الهزيلة دون أية لباقة.

آآه، كم هي رائعة أمسيات الصيف الجبلية إلى درجة لا توصف، ففي كل مكان يسود الضجيج والضوضاء، ويتعالى في الهواء صوت الأغاني والرقص واللهو وقهقهات الأطفال المرححة الصاخبة.

ولكن مهلاً، الهدوء أنه يطرق السمع من جهة الزريبة، الأنغام السحرية، للراعي الشاب إسمع جيداً، كيف يغني هذا الشاب العاشق بحسرة وشوق إلى الحبيبة أنه يحاول أن يسحر حبيبته المنشودة بسهم صاعق ويرغم المروج والجبال على البكاء بفتور لذيذ فأغنيته تدخل الحزن والكآبة إلى القلوب، من هي يا ترى تلك الفتاة التي من أجلها أمسى حزيناً؟، وهل تعلم يا ترى تلك الفتاة أن هذه الأغنية مهداة إليها؟ تصارحها بأنها أصبحت في هذا المساء مبتغاة لقلب شاب حزين ينشد برقة وكآبة أحياناً، وأحياناً أخرى تختلط أغنيته بالكباء:

يا جميلتي، يا زهرتي،

أن قلبي معك  
كالزهور على سفوح الجبال،  
آآه، لو كنت أعرف،  
لمن ستكون عيناك الجميلتان،  
وخصرك الرفيع كالحور  
آآه، لو كنت أعرف  
لحسدته..

ففي إحدى الأمسيات البديعة الدافئة، إجتمع حشد غفير من رؤساء  
ووجهاء العشائر، وكان بينهم رسل من عشيرة السبيكية وهم كل من  
بيرقاسو وسينجو وكرو وذلك في خيام رئيس عشيرة هسنا فرحان آغا  
المليئة بدخان السجائر، حيث كانت تقرر فيها عادة مصير أبناء العشيرة  
وتستقبل الضيوف الكبار وتحتضن إجتماعات مجلس العشيرة.

في جو مليء بالبرودة والتوتر، رحب أبناء عشيرة هسنا بالضيوف  
بتكلف الأنظار تتوجه نحو رئيسهم فرحان آغا، الذي بدأ حديثه بوقار  
وعزة نفس:

- رؤساء القبائل المحترمين! يا رجال عشيرة هسنا الأماجد! أنني لا  
أنوي إثارة مشاعركم وأنا أتحدث عن تلك الحادثة الحزينة التي  
جرت مع ابن عشيرتنا، هذا المسكين أوسو فأنتم على إطلاع جيد  
بما حدث لكننا سنناقش أمر آخر، فعلينا أن نحسم هذا الموضوع  
أما بالموافقة على شروط السلام المطروحة علينا من قبل عشيرة  
السبيكية أو بالرفض.

دبت الفوضى والتذمر في أبناء عشيرة هسنا جنّ جنونهم غيظاً، لكن فرحان آغا أسكتهم بأشارة من يده.

- أنني أعني سبب تدمركم هذا وأشاطركم المصيبة لكن علينا أن نتصرف بحكمة أننا لا نستطيع بإراقة الدماء وبالعداوة إعادة إبنة أوسو المقتولة ولا غسل وصمة العار عن الثانية علينا أن نفكر بشيء آخر: أننا لسنا في تركيا التي كانت سلطاتها تثير بذور الخلاف في مثل هذه الحالات فالروس سوف لن يسمحو لنا بمحاربة بعضنا البعض لهذا السبب، اقترح مصالحة السيكيين.

- لا وألف لا، لا يمكن القبول بشروط السيكيين! - قاطعه جاوزو بگ بحدّة - أن ما حدث كان بمثابة وصمة عار وإهانة لعائتي وطعن لرجولة إبني فأنت مخير يا فرحان آغا أما أنا فأرفض هذه المصالحة الغادرة الذليلة.

وهنا هاجت العاصفة.

هدأهم فرحان آغا بصعوبة نكس بيرقاسو رأسه مغلقاً عينيه منتظراً عودة الهدوء وما أن حلت اللحظة المناسبة، حتى شد قبضته ماداً إلى الأمام، وأخفض رأسه بشكل أكثر وحنى جسمه الثقيل بصعوبة ثم أنتصب مستنداً بقوة على يديه وبدأ يتضرع وهو يبكي تقريباً:

- إحترموا شيبتي يا جاوزو بك المحترم! قطعت مسافة طويلة لأبلغكم رجاء عشيرة سييكا التي حملتني بهدايا ثمينة للتخفيف عن آلامكم أنت وغيرك من الأشخاص ترفضون المصالحة وترغبون الأخذ بالثأر لكنك تعني جيداً يا جاوزو بگ ماذا يعني هذا، أنه يعني العنف والمجزرة وسفك دماء الأبرياء! هل تريد ذلك يا جاوزو بگ؟.

أصغى جاوزو بگ، الذي كان جالساً إلى جانب فرحان آغا، كلمة بير قاسو مطأطئ الرأس بارماً شاربه الكثيفة بأصابع مرتجفة وأبعد ناظريه جانباً بسرعة.

مسح بير قاسو وجهه المتصبب عرفاً ثم أخذ وضعاً مريحاً في جلسته، بعده أخذ اوزو بگ الحديث:

- أيها المحترمون! إصغوا إلي! تحدث اوزو بصوت جهوري وأرتمت على وجهه إمارات الألم والكآبة، لقد إرتكب عكيد آغا جريمة مروعة وسيثأر الرب منه ومن ذريته نعم أن بير قاسو على حق، أن عداوة القبائل تحصدنا كمرض الطاعون فكر ملياً يا جاوزو بگ! إصغ إلى صوت العقل لقد أعطى السيكيون الإعتبار لشرفنا وجاؤوا إلينا بأنفسهم رافعين راية السلام، فمن غير المعقول ردهم بخيبة أمل على أعقابهم لقد داهمت المصيبة دار أوسو وما علينا إلا أن نفكر معاً بطريقة تخفف من خلالها عنه المصيبة.

- كلام عاقل أيها البگ، أيده بير قاسو، ولكنني أرى هنا أوسو عادل يا فرحان آغا؟.

- لا تقلق يا بيري! إترك هذه المسألة على عاتقنا، سنتحدث إليه بأنفسنا، رد عليه فرحان آغا.

- معذرة يا فرحان آغا، لكن عمريك آغا أمرني شخصياً بالتحدث مع أوسو، قال بير قاسو بهدوء تام.

- ياكاشان! نادا فرحان آغا أحد الشباب قائلاً له إذهب إلى الزريبة وأخبر أوسو بالحضور حالاً.

- والآن، ما قرارك الأخير يا جاوزو بگ؟ راح يسأله بير قاسو مدركاً أن الجو تغير إيجابياً، لصالح السيكين.

- داهية أنت يا بير قاسو فأنت تدرك جيداً بأنني لا أخرج عن قرار العشرة، متمم جاوزو بگ.

- لينعم الله عليك بالعافية وليحفظ فيك الوداعة! هتف بير قاسو منتصراً.

- نظر إليه جاوزو بگ متكدرًا ولكن لم يرد بأي شيء.

- إختوتي أبناء عشيرة هسنا، أيها المحترمون فرحان آغا واوزو بگ وجاوزو بگ! بدأ بير قاسو حديثه بمكر ليحلب حليب أمهاتكم عليكم بالنعف! وأشكركم باسم عمريك آغا وباسم جميع القبيلة سوف لن ننسى أبداً نبلكم وطيبة قلبكم ولولا المصيبة التي ألحقت بأوسو لطلبت من فرحان آغا إستدعاء المطربين بغية توطيد صلحنا بأغان حول شجاعة ودهاء شعبنا.

- دع إلو يقص علينا حكاية ما ريثما يأتي أوسو، أشار فرحان آغا على أحد الجالسين.

- أنا خادمك المطيع يا آغانا، أبدى إلو عن إستعداده، ثم سأل: ما رأيكم بحكاية عشيرة أليك!

- نعم، نعم! أعطى الآغا موافقته، تحدث عن هذه القصة بالذات، إتخذ وضعاً مريحاً في جلسته وأنشأ يصغي:

- أدار إلو بين أصابعه مسبحة وتنهد بحسرة ثم قال:

- كان ياماكان في قديم الزمان، كان يتبع قضاء كاسور التابعة لموش

ثمان وثلاثون قرية من قرى الأكراد الإيزيدية وكان رئيس هذه القرى مجتمعة شخصاً اسمه كوتو.

وذات مرة في الشتاء وصل أحد الماللي برفقة شخصين من أتباعه القرية التي عاش فيها كوتو بغية إدخالهم في الإسلام، وفي الطريق قال الملا لزميله:

- أن هؤلاء اليزيد الكفار شعب عنيد ولا يرغبون بشكل من الأشكال العودة إلى طريق التقي ويرفضون الدين الإسلامي الحنيف، لكننا قد ننجح في هذه المرة بعون الله في إعادتهم إلى طريق الحق.

لكنهم ما أن أمضوا يوماً يومين في القرية، حتى تأكدوا من أن محاولاتهم باءت بالفشل، حينئذٍ تطاير الشرر من عيونهم وأنهالوا باللعنات على خبز وملح كوتو دب التذمر بين سكان القرية، وكانوا سيقتلون الملا وأتباعه لولا تدخل كوتو الذي منعهم عن خرق عادات الضيافة وأخلي سبيلهم.

وهل تعرفون بما رد هذا الملا الكافر على حسن ضيافة كوتو له؟ لقد أخفى الملا في داره القرآن بعد أن دون فيه شيئاً ما وفي الربيع عشر ابن أخ كوتو على هذا القرآن وقرر بيعه في بتليس لأحداً لأتراك أطرق مفكراً لبعض الحين ثم شد الرحال وفي بتليس عرج الشاب على المسجد وعرض القرآن على كبير الماللي أخذ الملا القرآن العتيق بين يديه وراح يقلب صفحاته إلى أن عثر على شيء ما كان مدوناً فيه والقوا القبض حالاً على الشاب المسكين وبدا بأن ذلك القدر قد كتب فيه ما يلي:

إلى السلطات التركية، نحيطكم علماً بأن اليزيد في منطقة كاسور

ينون في هذه الليلة قتلي وقتل إثنين من أتباعي خدم الله المخلصين. كانت السلطات التركية منذ زمن بعيد تبحث عن مبرر ضد الايزيديين لكنهم لم يجدوا اللحظة المناسبة للبدء بالمجزرة الدموية وفجأة جاءت هذه اللحظة وانيطت هذه العملية القذرة بالهيئة الدينية العليا بعد أن حصل المسلمون الساخطون على موافقة ملائيم توجهوا نحو كاسور وبأيديهم البنادق والفؤوس والمناجل والعصي لقد إقتحموا البيوت وأبيد الجميع صغاراً وكباراً وسويت كاسور مع الأرض وهكذا، فقد دمرت في يوم واحد قبيلة كبيرة وقوية، وبهذه الكلمات الحزينة أكمل إلو قصته.

تنهد الحاضرون بحزن حاول أحدهم أن يوجه سؤالاً إلى إلو حول شيء ما وهنا فتح باب الخيمة ودخل أوسو عادل فأنقطع الحديث.

- السلام على هذا البيت والخير للحاضرين، سلم أوسو على الحاضرين بصوت خافت.

- أهلاً بك وسهلاً، تفضل إجلس بجانبني، رحب به فرحان آغا أجمل ترحيب، أخي أوسو، رأيت بأم عينيك، كم فارس أرسلته عندما علمتُ بمصيبتك وأقسم بشرفي لولا الروس، لدوي نسيم حزين الآن مكان خراب ديغور ولتحول إلى خراب ولسوي مقاتلي ملاجئ علي آغا مع الأرض لم يجرؤ أحد أن يدنس كرامة قبيلتنا، قال ذلك فرحان آغا بإسلوب خاص ثم ألقى نظرة على السيبكيين - ولكن وفي هذه اللحظة يجلسون أمامك الآن كل من المحترمين: بير قاسو وكرو وسينجو - رُسل عمريك آغا وحمل هؤلاء معهم

مندياً نساءياً للرأس بغية التأثير على موقفنا المتشدد ويطلبون مني مساعدتهم في إطلاق سراح شبابهم، وكما لهم عندك، يا عزيزي أوسو، رجاء وحيد، هو أن تنسى ما حدث وتغفر ذنوب عكيد آغا، ولا يتورعون هؤلاء الناس عن تقديم هدايا ثمينة لتخفف عنك عبء المصيبة التي أمت بك.

صديقي أوسو لقد إرتكب هؤلاء شيئاً فظيماً ولكن لا يجوز النظر إلى الأمور نظرة ساذجة فكر يا أوسو جيداً ودون تسرع أنا أعرفك كانسان أصيل ولطيف، من هنا فأني لا أشك من أنك ستتخذ القرار السليم وسوف لن تخيب ظننا بك يا أوسو وتصور، أن قرار آخر غير هذا سيؤدي إلى نشوب حرب بيننا، وسيضيف دم إبتك إلى دماء المئات بل إلالوف من الأبرياء...

- أفهمك يا آغا، تفوه أوسو بهذه الكلمات بصعوبة، والحزن والغيرة يسحقانه، وما الذي تنصحنني أن أفعله يا آغا؟.

- على گوليزار التراجع عن إعتراقاتها السابقة.

- وماذا يجب أن تقول؟

- عليها أن تقول بأنها هربت مع عكيد آغا عن طيب خاطر، قال فرحان آغا وتابع بنظرات ثاقبة وجه أوسو.

- والناس يا آغا؟ قال أوسو شاعراً بتشنج في حلقة، أفهم من ذلك، بأن عليها أن تشهر بنفسها؟ هذا ما افهمه يا آغا!

- أخي أوسو، رد عليه فرحان آغا بوقار وفي نفس الوقت بلهجة

مضطربة بارماً شاربه بحركة مألوفة هل من الممكن أن تضع شرك  
فوق كرامة وسمعة كل العشيرة؟ يفهم من كلامك بأنني لا أفهم شيئاً  
من الحياة عندما أطرح إقتراحي هذا؟..

- سيدي معاذ الله، أقبل الأرض تحت قدمك، قال أوسو ذلك  
بهدوء، مدركاً بأنه لا فائدة من الجدال، أرجو المعذرة للجرأة  
في الإستفسار... أن المصيبة سلبت عقلي متى كان بمقدوري  
معارضتك فأنت الأدرى يا أغا...

- بارك الله بك يا أوسو قال بير قاسو أنني سعيد ومغتبط بهذه المصالحة.  
- نعم، نعم قال أوسو بطيبة ثم تساءل كما لو أفاق تواء من نومه:- وماذا  
ستقول عن أختها المقتولة؟.

- ماذا دهاك في حقيقة الأمر!- تدخل في الحديث غاضباً أحد  
المقربين للأغا- وما الذي لا يمكن فهمه هنا؟ دع گوليزار تقول بأن  
گافاز طاردتهم وإصطدمت بصخرة أو أنها سقطت في الهاوية وأن  
ما أصاب كرامة جاوزو بگ ليس بأقل مما أصابك وعلى الرغم من  
ذلك فقد وافق الرجل على المصالحة فلماذا إذن تخييه؟.

- لا بأس سأقنع إبنتي، ساد حزن أكبر على صوت أوسو، سأنقل إليها  
كل شيء كلمة كلمة..

- نعم يا عزيزي أوسو، حاول أن تقنعها لقد أثبت الناس الذي أسأؤوا  
إليك بأنهم أناس طيبون، فقد أحضروا لك هدية قيمة، قال ذلك  
فرحان أغا بإسلوب مقنع وتوجه إلى شاب إسمه كاشان، يا بني خذ  
تلك الماشية المتتقة إلى قطع أوسو.

- سمعاً وطاعة يا آغا وخرج الشاب مباشرة من الخيام مهرولاً.

- بارك الله فيك يا فرحان آغا،- قال ذلك بيرقاسو وهو ينهض من مكانه، والآن أسمحوا لنا بالعودة فأن عمريك آغا ينتظر عودتنا بفارغ من الصبر.

- لا أستطيع منعكم من السفر أيها الأب المقدس،رد عليه فرحان آغا، وبلغ عمريك بأنه فور إطلاق سراح عكيد سنحتفل بزواجه ونرد الجميل بالجميل سوف لن نصبح عرقلة أمام إتحاد قلوب العاشقين، بدا فرحان آغا مسروراً من كرمه الزائد وغمز لأوسو الذي بدا عليه الشحوب وإبتسم الجميع.

- بالطبع يا آغا! قال كرو وسينجو بصوت واحد وبحضوركم تزدهر الأفراح... المهم أن يعود عكيد آغا بسلام إلى البيت حيثنذ أطلب ما تشاء من الهدايا يا آغا! نحن جنة وأنت السكين ولتقطع القطعة التي يجذبها قلبك لن تنسى عشيرة سيبكا فضائك ولن تُخزيك... ثم أنحنى رسل عشيرة سيبكا أمام أبناءعشيرة هسنا، أمتطوا صهوات جيادهم وأنطلقوا نحو خراب ديغور حاملين معهم أخباراً سارة إلى عشيرتهم.

كان الوقت متأخراً، لذا أمضى أوسو عادل ليلته عند قريبه البعيد فاقو وفي الصباح ومع إنبلاج الفجر نهض أوسو، غسل وجهه، أخذ عصاه ولما أعد العدة للرحيل أوقفه فاقو:

- مهلاً، لقد نسيت الهدية.

- أية هدية؟ هتف أوسو مكتئباً.

- تلك التي أختارها لك صاحب القلب الطيب والعقل الراجح فرحان  
آغا، بيديه الكريمتين من بين قطع كامل أقتادوه إلينا السبكيون، رد  
عليه فاقو وقد بان عليه الحزن والغضب ثم راح ينادي كتته، زري،  
إبنتي، إقتادي إلى هنا تلك الماشية.

كانت (الهدية) عبارة عن خمسة رؤوس من الأغنام: خروفان  
وعنزتان وكبش واحد.

- يرى فرحان آغا بأن هذا يكفي لكي تنسى مصيبتك، أما ما تبقى فإنه  
سيضم إلى قطيعه الذي لا يعد ولا يحصى! نعم، لقد قرر آغانا  
الحكيم، بثمان بنخس، دم كافاز وشرف گوليزار! واصل فاقو حديثه  
مستنكراً.

- إحتقن الدم في وجه أوسو وأظلمت الدنيا في عينيه وهو يتذكر نصائح  
فرحان آغا وفي لحظة غضب مد المسكين يده إلى مقبض الخنجر.  
- لقد بعت، بعت أيها الآغا دم وشرف بناتي للأعداء، تنهد أوسو  
بحسرة وتملكته الرغبة في رمي نفسه على الأرض وفي إطلاق  
صرخة ونتف شعره وراحت يده تضغط بشكل أكثر على مقبض  
الخنجر.

- لا تجن يا أوسو عد إلى رشدك، قال فاقو بشعور مرهف، هل تريد  
أن تعرض جميع أفراد عائلتنا إلى الدمار؟ لا تنس أن فرحان آغا من  
أولئك الناس، الذين يقتلون ولا يغمزون عيونهم أن اليد التي ليس  
بأمكانك أن تعضها يجب أن تقبلها.

أنكمش المسكين أوسو على نفسه وبات يشبه عجوزاً هرم، كما لو  
صبوا عليه الماء البارد.

- اللعنة عليك أيها الفقير؟ صرخ أوسو، يا إلهي؟ كيف يسخر الجميع  
مني! ياله من يوم تعيس عندما ولدتني أمي! ما الذي يجب أن أفعله  
الآن؟ أليس من الأفضل أن أموت؟.

- أمر واقع يا أخي، لقد رسمت الأقدار لنا، نحن الفقراء طريقاً واحدة  
وعلينا المضي فيها حتى الممات بجميع مصاعبها فكن رجلاً أما  
هؤلاء الأغوات فجميعهم من طينة واحدة.

إقتاد فاقو أمامه الغنم وراح يربت على كتف أوسو وسارا ببطء باتجاه  
نعب بئر مار حيث كانت تنصب خيام أوسو الصيفية في الطريق كان فاقو  
يتحدث عن شيء ما لكن أوسو الذي كان مستغرقاً في التفكير لم يكن  
يسمع شيئاً لقد قطعت المصيبة نياط قلبه وسار مطاطئ الرأس وقلما كان  
يرفع بصره إلى السماء إلا وهو يهمهم متمماً أما مبتهلاً أو لاعناً.

سار أوسو وقد إستجمع قبضتيه غضباً، ودون أن يرفع بصره عن  
الأرض وهزج بين حين وآخر كما هو العادة المألوفة محاولاً إيقاف  
وتهدئة أغنامه التي كانت تسير أمامه. وقبل الوصول إلى النبع ودع  
فاقو قريبه أوسو وقفل راجعاً إلى البيت وما أن بقي أوسو لوحده حتى  
فقد السيطرة على نفسه وأنفجر بالبكاء صامتاً، حيث شعر بتلذذ مر في  
ذلك. وخيم السكون على المنطقة لدرجة شعر فيها بكل شيء يموت  
فيه رويداً رويداً وجلس أوسو على حجر وشعر بأن كل شيء توقف من  
حوله وجمدت في إذنيه طيات السكون، كان أوسو، بينه وبين نفسه يشعر

بشيء من الخجل وعدم الإرتياح، لدى تذكره ماذا سيقول لزوجته ولإبنته  
غوليزار: ((لا، أنه لن يبيع شرفه مقابل قروش))، قال ذلك بصوت خافت  
ونظر بإتجاه القرية حيث بدت الأقسام العليا للخيام من هنا.

تجمعت الماشية التي أنهكها عناء الطريق متزاحمة على العشب فور  
ما أحست بأن أحداً لم يعد يهم بأمرها أما أوسو فقد تجمد في مكانه  
ولم يعرف كم من الوقت أمضاه جالساً بهذا الشكل، إلى أن لفت إنتباهه  
وميض البرق فقد أخذت الأمطار تهطل، وتطلع أوسو صامتاً إلى السماء  
متسائلاً.

تلبدت السحب وهدر الرعد وأومض البرق ببريق يخطف الأبصار  
ونزلت السماء بمطر لاذع وبارد فاهتزت الأرض من الرعد المدوي  
الجبار وراحت الجداول والشقوق الجبلية تحمحم مجنونة في إنحدار  
مشكلة سيولاً جارفة غسلت كل شيء في طريقها.

تبلل أوسو من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ومضى أوسو في الطريق  
تحت المطر لم يكن يهمه الآن أقوال الجيران وإقتاد الغنم التي تجمعت  
في كومة عبر المروج بإتجاه خيمته.

- يا إلهي فديتك بعيني، ما هذا الذي حدث لك! أن وجهك شاحب  
كشحوب الموتى، هتفت زوجة أوسو.

- إسكتي! قال أوسو بلا رغبة منه ثم أضاف: إذهبي وسوقي الماشية إلى  
الزريبة بدت على وجه المرأة المسكينة سيماء الحيرة، لكنها إدراكاً  
منها بطباع زوجها الخشن، إكتفت بسؤالها الوحيد هذا خرجت  
بصمت وسارت تحت المطر بغية إقتياد الماشية إلى الحظيرة ثم

أندفعت مسرعة إلى الخيام والماء يقطر من ثوبها، إقتربت بصمت إلى زوجها وبدأت تنتزع منه حذائه وملابسه المبللة، أحست بأنه حدث مكروه، لكنها لم تضايق زوجها بتطفلها متنظرة أن يروي لهم كل شيء بمحض إرادته.

وسكتت غوليزار، حيث أنتقل إليها خوف الأم أية مصيبة هذه تحل بهم مجدداً، ألا يكفي ما حصل؟ لقد عاقبهم الرب ولكن لأي سبب؟. تسرب الماء من خلال قماش الخيام المبللة وتساقط الماء في رتابة على الأرض كان الجو بارداً.

حاولت غوليزار عبثاً أن تشعل النار، حيث كانت العيدان رطبة، تجمدت غوليزار رعباً. وهنا دوى صوت أوسو:

- هل دبرت أمر الغنم؟.

- نعم، ولكن لمن هذه الأغنام؟ تساءلت زوجته مترددة.

- فقد وهبني الرب فتاة، حملني مسؤوليتها طوال حياتي كلها، قال أوسو وتجهم عابساً، وألقى نظرة ساخطة على غوليزار الجالسة.

- وهل أنت في كامل قواك العقلية أيها العجوز؟ تدخلت الزوجة لصالح إبتها، ماذا حدث؟.

- أمرنا الآغا، كي تقوم غوليزار بتغيير أقوالها.

- كيف؟

- عليها أن تقول أنها فرت مع ابن الكلب هذا عن طيب خاطر.

- و.... اذا!! زعقت زوجة أوسو صارخة وهي لم تصدق إذنيها.
- أرسل علي آغا ووالده رجاله وبحوزتهم هدايا ثمينة إلى فرحان آغا وقد تصالحووا وبغية إقناعي فقد قدموا لي زوجين من الغنم.
- آه، الآن فهمت من أين هذه الأغنام! ضحكت والدة گوليزار بسخرية، وكيف سننظر في عيون الناس؟.
- آه يا اوسو لا حياة لك بعد الآن، لماذا تحمل الشوارب، أليس من الأفضل لك أن تموت من أن تتحمل هذه المذلة؟ وبدأت تضرب رأسها بعنف.

راحت گوليزار التي تجمدت رعباً في الزاوية ترمق والدها بعيون خائفة صوّب والدها نظرات تتطأير منها الشرر إلى گوليزار، أن نظرة والدها الصارمة والساخطة أيقظت في ذاكرتها فجأة الحادث المروع الذي حلّ بها في الجبال، لم تجرح سعادتها بذلك القدر مثلما جرحتها نظرة والدها الغاضبة هذه، التي قرأت فيها بوضوح: 'كان من الأفضل أن تموت'! لم تستطع المسكينة حتى أن ترثي لحالتها.

توقف المطر، إلا أن قطرات ثقيلة هوت كالرصاص على الأرض لفترة طويلة، خارقة جدار الصمت الثقيل الذي ساد على خيمة اوسو عادل.

\*\*\*

## كوليزار

غدت الأمسيات اللطيفة التي كانت تقضيها كوليزار في طي النسيان وشعرت بأن كل شيء توقف من حولها ففي الصباح عندما كانت تنزل إلى النبع لجلب الماء، لم تكن تستعجل في العودة إلى البيت كانت تجلس طويلاً على الأرض الرطبة المغطاة بالندى تستسلم للأفكار الحزينة.

كانت نظرات والدها الثاقبة تمزق فؤادها لدرجة لم يكن إهتمام وإعتناء وحنان أمها يدخل الدفء إلى قلبها المعذب وراحت تلوم نفسها لأنها هي السبب في قتل شقيقتها وإهانة أقربائها.

والآن، تنتظرها عقوبة جديدة أنها المحكمة! عليها أن تتحدث أمام حشد غفير من الناس عن العار الذي قضى على مستقبلها وشوه سمعتها الطيبة كانت تُقلق كوليزار طوال الوقت فكرة وحيدة وهي أنه عليها وبأمر من فرحان آغا وعلي آغا الرهيبيين، أن تتحمل مسؤولية ما حدث.

تملكتها الرغبة في الإنتحار لكنها إفتقرت القوة والشجاعة وكانت تشفق على والدتها المسكينة والشيء الوحيد الذي كان يخفف من آلامها هو الأمل في عدم دعوتها إلى المحكمة وأن يتم كل شيء بدونها، لكن أملها هذا ذهب أدراج الرياح.

في ذات مرة، حضر خادم فرحان آغا مُبلِغاً بضرورة السفر إلى قارص، أين ستبدأ المحاكمة خلال يومين ثم تفضل جاوزو بك شخصياً.

- أوسو، - توجه بكلامه الى والد گوليزار الذي تجهم عابساً، - أن مافات مات ولكل إنسان قدر خاص به يحدده الرب كلي أمل بأنك لم تنس إتفاقنا بصدد گوليزار... لكنه وما أن إلتقت نظراته بنظرات زوجة أوسو الصارمة والملیئة لوماً، حتى لاذ بالصمت وأنصرف دون أن ينبس بكلمة.

لم يغمض لعائلة أوسو جفن في هذه الليلة، حيث كان على گوليزار ووالدها السفر إلى قارص في الصباح الباكر.

راحت زيني - هكذا كانت تُدعى زوجة أوسو - تجهز حاجيات السفر الضرورية فقد أحضرت لهم شيئاً من خبز الساج والجبن وإبريقاً صغيراً من اللبن الرائب وبعض الحاجيات الضرورية الأخرى.

كان سفر گوليزار ووالدها يشكل رثاءً كبيراً لها، بكت بصمت فخلال شهر واحد فقدت كل شيء.. قتلت حبيبتها كفافاز أما الكبيرة، صاحبة الحسن والجمال، گوليزار، تاج رأس أمها، فقد دُنس شرفها، وحرمت من السعادة مرة وإلى الأبد...

ومما زاد من قلق زيني الآن هو هذه المحكمة اللعينة، أين ستقف طفلتها الحبيبة أمام السلطات الصارمة سيما أنه تم شراء ذممها بذهب علي آغا...

لقد هربوا من خراب ديغور أملاً في أيجاد الدعم من عشيرتهم، إلا

أن هذا الأمل ذهب أدراج الرياح بعد عملية المصالحة التي جرت بين فرحان آغا وعمريك.

رفعت زيني رأسها لتلقي نظرة على إبنتها وزوجها واذ بـغوليزار تذرف دموعاً، عندئذ فقدت الأم السيطرة على نفسها والتوت ألماً سحنة وجهها المبلل بالدموع وصاحت بصوت عال:  
- إبنتي، إبنتي! - تأوهت بحسرة.

أما أوسو فقد أسرج حصانه بصمت ولما أعد العدة للرحيل، رنت زيني بعينين دامعتين إلى السماء وبدا لها أن هناك إلهاً لكنه جمدت في إذنيها طيات السكون ولم تر سوى بقايا نجوم متألقة ترصع السماء...  
رأت غوليزار في قفص إلاتهام كلاً من عكيد آغا وعمرو وعطو إنتقت نظراتها للحظة من الزمن بنظرة عكيد سرت قشعريرة في جسمها وإستحوذت عليها رجفة وراحت تنظر حوالها مرتبكة أيقظها من الذهول صوت الحاكم:

- المتهم عكيد آغا، هل تعترف بأنك تتحمل المسؤولية في الخطف القسري للفتاة غوليزار ابنة أوسو عادل وفي مقتل شقيقتها؟  
نهض عكيد آغا:

- كلا، لقد فرت غوليزار معي عن طيب خاطر لقد إنتفتت مسبقاً معها على كل شيء فقبل الخطف بمدة طويلة إتفقنا أنا وـغوليزار على تحديد اليوم ومكان اللقاء من أين كان علينا أن نتجه الى بشكليس.  
وجه الحاكم السؤال نفسه الى كل من عمر وعطو وكلاهما أكدا كلام عكيد آغا.

وجه الحاكم السؤال مجدداً إلى عكيد:

- المتهم عكيد آغا- لقد أكدتم في المرة الأولى بأنكم إختطفتم الفتاة گوليزار وقتلتم شقيقتها كإفازو الآن تنكرون أقوالكم السابقة بأنفسكم ففي أي مرة كنتم صادقين مع أنفسكم؟.

- الآن يا سيدي! أنتابني في المرة الأولى شعور بالقلق من أنهم وفي كل الأحوال، لن يصدقوني، لذا قررت إعتبار نفسي مسؤولاً عن كل ما حدث لإبعاد الشبهة عن زملائي وعن گوليزار ولكن، مادام رفاقي موجودين الآن في رهن الإعتقال ومادامت گوليزار تقف الآن أمام المحكمة فأجد من الضروري قول الحقيقة.

ضحك الحاكم بسخرية.

- وماذا تقولين أنت يا گوليزار إبنة أوسو عادل؟.

تجمدت گوليزار في مكانها رعباً سرت برودة في يديها ورجليها وإحتقن وجهها بالدم وأغرورقت عيناها بالدموع كانت تريد أن تبتلعها الأرض خجلاً توجهت إليها أنظار الجميع.

- سيدي، بلعت دموعها وتكلمت بصوت لا يكاد يسمع، أتوسل إليكم دعوني إذهب إلى البيت أن هذا المكان لا يليق بي أن هذا من شؤون الرجال، إرحموني أيها السيد!... إتركوني!...

- گوليزار المعذبة! علينا الإستماع إلى أقوالكم لتتمكن ومن خلال أقوالكم النطق بالحق حاولي أن تهدئي من روعك وتملكي نفسك أخبري المحكمة بكل شيء كما حدث.

- سكتت گوليزار مما أثار ذلك من غضب الحاكم.
- گوليزار المعذبة! قال الحاكم بهلجة غاضبة، هل من الصحيح بأنك هربت مع المتهم عگيد عن سابق اصرار؟.
- نعم! سادت لهجة الاستسلام والخضوع على حديث گوليزار التي سلمت أمرها للباري.
- إذن كنت تعشقين عگيد آغا ولهذا قررت الهروب معه؟.
- ماذا؟ قالت گوليزار وكأنها رجعت إلى وعيها تماماً.
- أعاد الحاكم عليها سؤاله.
- نظرت گوليزار بعيون مليئة بالخوف إلى الحاكم قائلة: 'ماذا يريد هؤلاء الناس مني؟'. ألم يكفيهم ما ألم بي من مصائب؟ وراحت تتوسل من جديد:
- سيدي إترك سبيلي! لأجل الرب دعوني إذهب!.
- عليك الإجابة بدقة على سؤالتي،- قال الحاكم محتدأً،- هل كنت على علاقة حب مع عگيد آغا وهل كان بينكما إتفاق مسبق على الخطف؟.
- نكست گوليزار رأسها، مزق الكذب قلبها وعلى حين غرة رفعت رأسها ونظرت مباشرة في عين الحاكم.
- لم يعشق قلبي أبداً عگيد آغا قالت ذلك بصوت واضح.
- تجمد الحاضرون في أماكنهم.
- إخبارينا بالتفاصيل كل شيء كيف حدث توجه إليها الحاكم مجدداً.

نظرت گوليزار إلى عگيد ثم إلى الحاكم ثم إلى المحلفين وكان يدور في داخلها صراع حاد.

وبعد ذلك راحت تتحدث عن تصميم.

- حدث ذلك بعد خطبتي، عندما أصبحت خطيبة ابن جاوزو بگ ففي ذات مرة وفي بداية الربيع جاءتنا شبتوخ گولي وأخبرتني بأن عگيد آغا وقع في حبي منذ زمن بعيد ويشعر بو عكة وإعتلت صحته وهو يلازم الفراش من يوم خطبتي.

أنتابني شعور بالغضب وأخبرت شبتوخ بأن يقطع عگيد آغا أمله مني لأنني مخطوبة لابن جاوزو بگ وأنه سيتم زواجنا قريباً جداً، فمن الأفضل له أن ينسى أمري وأن لا يحاول وضع حجر عثرة في طريق سعادتني لكن شبتوخ لم تهدأ وقالت: بأن عگيد آغا يرغب فقط في اللقاء معي شخصياً ليقول لي عدة كلمات ليخفف من آلامه خفت قليلاً وأستحوذت على فكرة بأنه أن لم ألتق به فالله وحده يعلم ماذا يكن في صدره، فقد يلجأ إلى القوة ويأتينا ليلاً ويخطفوني بالقوة غصباً عن الوالد ومن ناحية ثانية، والله يشهد على ما أقول، أشفقت عليه، من أين لي أنا الغبية البلهاء أن أعرف بأنه كانت تحوم فوقني سحابة سوداء؟.

مضى بعض من الوقت، وكنت قد نسيت حديثي مع شبتوخ وموافقتي الطائشة لها وذات مرة وعند إنبلاج الفجر توجهت مع شقيقتي إلى منطقة وجار الدب لحصد العشب، وهنا ظهر عگيد آغا مع عمر وعطو أنتاب كإفاز خوف شديد، أما أنا وإنتهاكاً لعاداتنا بعدم التحدث مع الرجال صرخت عليه:

- قل، ما هي حاجتك؟ ماذا تريد أن تقول لي؟ وفي هذه اللحظة حدق إلي كالمجنون قائلاً:

- ليس عندي ما أقوله لك، جئت لأخطفك عزيزتي غوليزار التي لا تقدر بثمان عندئذ أخذت حجراً من الأرض وصرخت مدعورة:  
(حاول فقط أن تلمسني، يا كافر، سأهشم رأسك! أتريد أن تخرج عن عادات آبائنا وأجدادنا!)، وعلى حين غرة أنقض علي كالصقر ووضعني على ظهر جواده وما أن رأته شقيقتي المسكينة كافاز ذلك حتى راحت تصرخ منادية الناس للنجدة وما أن أفلتت من بين أيدي المجرمين الآخرين حتى أنطلقت مسرعة بإتجاهي وهنا أقبل الشخصان نحوها مرة أخرى وأمسكت كافاز عندئذ بركبة حصان أحدهما، لكنهما أرخيا العنان لحيادهما وأندفعا كالصقر وجروا جسد كافاز كالجيل على الأرض وراءهم، مصطدماً بالأحجار لم أر أكثر من هذا ولا اعلم ماذا حدث بعد ذلك.

هنا صمتت غوليزار برهة من الزمن جف حلقها وأحست كيف أن نبضات قلبها قد إشتدت وكان قلبها يكاد يندفع من صدرها نظرت غوليزار إلى وجه الحاكم الذي بدا لها قلقاً ثم أجالت ببصرها نحو عكيد آغا الذي كان جالساً ثم أضافت:

- هذا ما حدث أيها السيد. لو فكرت مسبقاً بالهروب معه لما أخذت معي شقيقتي ولما تسببت في موتها، قلت ما عندي... ثم بكت غوليزار بصوت مرتفع.

بعد ذلك إستمعت المحكمة إلى كلمة المدعي العام وبعد كلمته هذه أنصرف المحلفون وهم غير راضون على هذا المنعطف المفاجئ...

أمضى كل من زيني وأوسو وقتها حتى منتصف الليل بجانب فراش  
غوليزار التي كانت في حالة من الهذيان، بللوا شفيتها الياستين بالماء  
البارد، دلكوا يديها وقدميها الجامدتين. وفي منتصف الليل هدأت  
المسكينة وفتحت عينيها، فرأت فوق رأسها الوالد والوالدة.

- أبي... أبي، راحت تنادي والدها ماداً إليه بيديها وهي تنفجر منتحبة  
وتنهمر دموعها كالمطر على وجنتيها، أبي، لم أستطع أن أقول غير  
هذا... فعندما كان الحاكم يسألني كنت أرمق نظراتك، المعذرة يا أبي،  
المعذرة، لكنني لم أتمكن من تشويه سمعتي ولم أرغب في الحاق  
وصمة العار إلى عائلتنا.. آه، أبي، كان من الأفضل أن أموت.

وما أن شربت جرعة ماء حتى أغمضت عينيها من جديد.

- لينتقل إلي الآمك يا إبنتي، تنهد أوسو حاسباً دموعه بصعوبة، فديتك  
بنفسي يا إبنتي! لقد تصرفت كما يجب أيتها الغزالة من الأفضل أن  
يموت الإنسان من أن يدنس شرفه.

- أبي، أنا سعيدة، بأنك لا تستنكر فعلتي فالناس أشرار إلى حد  
أنهم يسترسلون في الأحاديث الفارغة والله وحده يعلم عن ماذا  
يتحدثون... أمسكت غوليزار بيد والدها وقربتها إليها ببطء وراحت  
تطبع قبلة على يديه.

صدر حكم المحكمة وبناءً على أقول غوليزار بالحكم عشر سنوات  
على كل من عكيد آغا وعمر وعطو كما قررت المحكمة ان يتم قضاء  
فترة العقوبة في سيبيريا، صدم قرار المحكمة عمريك آغا سيما وانه كان  
مطمئناً لصدور الحكم لصالح ابنه خاصة بعدما قدم الرشوة للحكام

ولكن اقوال گوليزار غيرت توقعاته كما ان القضاء الروسي ليس كالقضاء التركي كما يظن.

جاءت الناس من كل حذب و صوب لمواساة ودعم عائلة عمريك آغا ومساعدته مادياً ومعنوياً وقامت العائلة والاهالي بتجهيز واعداد مستلزمات السفر والمؤن والحاجيات وكذلك جمع النقود والذهب للرجال الثلاث، حتى ان اگشان زوجة عطو قدمت قطعها الذهبية الوحيدة لزوجها.

وكانت سيبيريا تمثل رعباً وخوفاً للاهالي والناس وكان مجرد ذكرها يعطى انطباع على الموت والفناء في اصقاعها بسبب البرودة القارصة وانتاب الثلاثة المحكومين خوف و حزن شديد لهذا القرار و مستقبلهم في الحياة الصعبة والقاسية التي تنتظرهم في سيبيريا التي كانوا يسمعون عنها الكثير من الحكايات المرعبة والقاسية.

بعد النفي ساد الصمت والهدوء في كل قرى السيبكيين ولم تقم فيها الاعراس ولم يعد يسمع فيها الأغاني وفهقهة الشباب، رجع الناس الى أعمالهم بهدوء، المصيبة لم يكن هنالك أية وسيلة اتصال او اي عنوان لكي يرسلون عگيد اغا ورفاقه عليه ليخفف ذلك من فاجعتهم، انقطعت بهم كل السبل، لم يكونوا يتقنوا لا الروسية ولا الأرمنية، اللغة الوحيدة التي كانوا يتقنونها كانت التركية، بالاضافة الى لغتهم الام لم يعرفوا شيئاً عن سيبيريا - كم تبعد؟ اين هي؟ - سوى رهبتها.

كان دوائهم الوحيد الصبر والتفائل، الايزيدين يقولون بيت الله بني بالصبر وكان يعتمدون على الأحلام في التعرف على احوال ذويهم

في المنفى، كما ان علي آغا كان يناجي القمر للاستفسار عن أخيه وفي احدى الأيام اخبرهم راعي القرية تيمور تاوات بأنه رأى عكيد اغا في الحلم وتحدثا مع بعضهما، وقال كان عكيد يرتدي ملابس رثة ولحيته كانت طويلة.

اجابه پير قاسو حلمك فيه علامات الخير ويدل على انه حي ولكنه في وضع صعب، فرح علي آغا وكافاً الراعي برأس من الغنم وأمر النسوة بإعداد الخبز الحار و توزيعه على الأهالي، وقال سأقدم ثورين كقرايين لو رجع عكيد إلينا، كما سأقدم للراعي (مهر الخيل) كهدية، كانوا يؤدون الصلاة ويقدمون القرايين في سبيل الفرج وكان يسألون الكواچك<sup>(1)</sup> والعرفان العجر عن الرجال الثلاثة.

مرة قالت العجوز (شبتوخ گلی) في احدى رؤاها: فليطمئن علي آغا، ان اخاه حي وسليم ومرتاح البال، يعمل لنفسه وتعلم اللغة الروسية ايضا، الناس تفائلت بتلك الرؤى وقالوا الروسية تعني الرحمة، اما أعداء علي آغا كانوا فرحين ويقولون ان المنفيين لابد وانهم أصبحوا فرائس لدببة سييريا.

مضي الربيع والخريف، ثم حان موعد الصيام، صاموا اياماً خاصة من اجل خلاص عكيد اغا ورفاقه، في صوم أيزيد<sup>(2)</sup> ومن بعدها في صيام خدر ناقي، حان بعدها موعد طقس خبزة الكات<sup>(3)</sup>، فقامت خاتي أم علي

- (1) شريحة من رجال الدين لهم معرفة بالغيب والقضايا الدينية
- (2) العيد الكبير للايزيدية ويحتفل به جميع الايزيدية يصادف في منتصف كانون الاول يستمر لمدة ثلاث ايام وبعدها يكون العيد يوم الجمعة وهو عيد قديم جداً يمثل الفترة التي يتغير فيها مدة النهار والخروج من عتمه الشتاء.
- (3) يقابل عيد البيلندا او (خبزة الخولير) في العراق وهو من الاعياد التي يحتفل بها الايزيدية بطقوس دينية ذكرت في الرواية.

آغا بنفسها بعجن هذه الخبزة ووضعت فيها المواد السبعة: الطحين، الملح، الماء، السكر، الزيت، الكشمش (الزبيب من دون البذور)، (المشمش)، ثم وضعت الخرزة فيها وخبزوها في التنور في اليوم التالي قام علي آغا بقطع خبزة الكات وقسمها على أفراد البيت بدءاً من كبير العائلة وأمه ومن ثم قطعة خاصة بثور الحرائة، وحرمت البنات من ذلك لأنهم يعتقدون بأن الخرزة لو أصبحت من نصيبهم فأنهم سينقلون البركة من بيوت آبائهم آلى بيوت أزواجهن بعد الزواج.

صرخت ام علي آغا (خاتى) وأين حصة إبنى عكيد؟

قال علي آغا وهذه حصة او قطعة اخي عكيد.

كان عدد القطع أربعة عشر وكانت المفاجئة سارة جداً كون الخرزة كانت موجودة في قطعة عكيد آغا، رقصت الام فرحاً فقد ولد ذلك عندهم يقيناً ان ابنهم لازال على قيد الحياة ولا بد ان يرجع يوماً ما الى أهله ، اما أهل ديغور كلهم علموا بذلك وفرحوا وقدموا التهاني والتمنيات لهم وكتقليد ايضاً ذهبت الام خاتى كالمسولة لسبعة بيوت وما جمعته اعطته لأحد فقراء القرية وبعثت بالخبز الحار لسبعة بيوت.

مضت ستان واكثر ولا اخبار عن عكيد آغا ورفاقه، البعض نسوا الرجال المنفيين واخرين فقدوا الأمل فيهم وبهم، فقط الام لم تفقد الأمل وكانت تقول سوف لن اموت الى ان التقى بأبني وكانت تغني أغاني الحسرة والاشتياق والالام والغربة عليه وتعاتب ابنها علي آغا كونه لم يفعل شيئاً لأخيه عكيد

\*\*\*

## حكاية شباب

مرّت الفصول الأربعة في سلسلة رتيبة مضية لا نهاية لها شب أطفال الأمس وأقتنوا أموالاً وأصبحوا أصحاب أسر وعائلات ومنهم من غادر الحياة إلا أن الحزن لم يُفارق وجوه من يراقب الطريق دوماً، من كان ينتظر بقلب مؤلم عودة قريب من الغربية مثل هؤلاء خبأ الوميض في عيونهم ولم يكن شيء يدخل البهجة إلى قلوبهم لا زرقة السماء الصافية ولا صوت خرير المياه والجداول المتدفقة ولا جمال الربيع ورائحته الفواحة.

كان الربيع قصيراً في ذلك العام فبدأ من أواسط آذار سالت سيول المياه، فخلال يوم واحد ذابت الثلوج وتعدت الأرض في السهب وأخضرت المروج والجبال خلسة ومن الأرض أبعثت موجات من البخار الدافئ، في حين حمل النسيم العليل، من السهوب الرائحة الفواحة من الأشجار الخضراء وطيوب الأرض التي تخلصت من عبئها الثلجي منذ وقت قريب.

كانت السماء تغطس في البحر وقبل أن تغيب راحت تلقي نظرة الوداع على القرية وأطلت من ظلال الأشجار والبيوت والناس، غاصت جذوع الأشجار في لون أحمر والنحلات الطنانة البرية تتزاحم عائدة من الحقول ومئات الطيور تشقشق معاً في أداء أغنية رنانة.

وفي أمسية من هذه الأمسيات دخل قرية علي آغا شخص قادم من سيبريا وقد صادف ذلك اليوم طقس زيارة القبور فسأل هذا الشخص عن بيت عمريك آغا فاجابوه بأن عمريك اغا قد مات ولكن ارشدوه الى بيت ابنه علي آغا، طرق الشاب باب علي آغا وتراءى من خلال منظره بوضوح أنه قطع مسافات واسعة فحذاؤه المغبر كاد أن يتمزق وملابسه مجعلكة بشكل كبير ونما على وجهه شعر خشن قصير.

لكن الضيف ضيف الله وصاحب الدار مضطر إلى إستقباله بسرور وترحاب بالغين الإستقبال أولاً والسؤال ثانياً، هكذا يقول المثل وقد تصرف علي آغا كما يجب أن يتصرف صاحب الدار مع ضيوفه ودون أن يبدي تطفلاً، دعا ضيفه إلى مائدة الطعام، وفتح الضيف باب الحديث من تلقاء نفسه قائلاً:

- علي آغا، توجه إليه الضيف قائلاً: لقد جئتك نبأ سار، بارك الله في دارك!..

- أنا مسرور جداً بقدمك إلينا، رد عليه علي آغا مضطرباً ولكن بجدارة ووضع يده على عينيه.

- أن شقيقك عكيد آغا حي وبصحة جيدة ويعث إليك بتحياته.

- سعدت الدماء إلى رأس علي آغا وأحس بغصة حادة تتوقف في حلقه من شدة الفرح ثم دنا من الضيف الغريب وأحتضنه وقبله في جبينه.

- اطال الله عمرك! لقد جئتنا بخبر مفرح فمنذ عشر سنوات والمصيبة

كالسحاب خيمت على دارنا لكنك قمت بتبديدها اليوم. ما إسمك  
يا أخي؟

- إسمي شباب - رد الغريب.

- تحدث يا شباب، هدى من روعي.

- أمسك يا آغا فعلى هذه الورقة مسجل عنوان عكيد قدم شباب إليه  
الورقة وطلب مني عكيد آغا أن ألتقي بكم وأبلغكم بأن لا تحملوا  
همه، لقد تزوج في سيبريا وله أربعة أولاد.

- مهلاً، قاطعه علي، تقول بأنه قد تزوج؟ هل من امرأة من دين آخر؟  
قال علي ونظر ضيفه بإرتياب.

- أحلف لك بالله يا علي آغا لولا هذه المرأة الروسية، لمات شقيقك  
في سيبريا اللعينة. لقد قضيت هناك فقط خمس سنوات ولكن  
إعتبر بأنني قضيت نصف عمري أن عكيد آغا يجب أن يشكر القدر  
لأنه إلتقى بهذه المرأة اللطيفة.

- تأثر علي آغا بكلام الضيف وبدا أنه إقتنع في دخيلة نفسه بزواج أخيه  
الصغير من امرأة من ديانة أخرى، منتهكاً بذلك عادات وتقاليد  
الديانة الإيزيدية<sup>(1)</sup>.

وبالرغم من ذلك، لم يرغب أن يصدق بأن امرأة من دم آخر ستدخل  
دار عمريك بولات.

(1) الديانة الإيزيدية ديانة مغلقة وغير تبشيرية يمنع فيها الزواج من الديانات الأخرى  
وبخلاف ذلك يعتبر المتزوج (رجل / امرأة) من غير الديانة الإيزيدية خارجاً عن  
الديانة ولا يعود إليها (المقدم).

- كما أنه طلب مني أن أعطيك علبة النشوق<sup>(1)</sup> هذه، حاول شباباب إلهاء علي عن أفكاره المؤلمة.

كانت العلبة هي نفسها التي أهداها علي الي عكيد عند مغادرته إلى سيبريا أمثلت عيونه بالدموع وأخذ يتأوه شوقاً وحيناً إلى الذكريات الماضية وإستحوذت عليه رغبة جامحة في رؤية أخيه وإحتضانه لدرجة إعتصر قلبه ألماً، عليه أن يسافر إلى سيبريا مهما كلف الأمر، برقت في رأسه هذه الفكرة على حين غرة وسيطرت على كل كيانه، لقد قرر السفر.

- ألم تتمكن من قراءة عنوانه لي؟ توجه علي آغا الي شباباب فأنا لا أجد القراءة.

- محافظة أيركوتسك - منطقة نيثرنة اودينسك - مدينة تولون، - قرأ شباباب العنوان بالمقاطع.

حاول علي آغا أن يتذكر الكلمات الغريبة ذات النطق العجيب بالنسبة لسمعه ولكن قرار السفر كان يشغل كل باله.

أن الأيام التي قضاها شباباب في دار علي آغا كرس كلها للحديث عن سيبريا وعن عكيدو أراد علي آغا أن يعرف الكثير عن تلك المنطقة الغامضة أين يجب أن يسافر إليها، وتمكن بإصراره من حفظ أسماء المدن وبعض الكلمات الروسية التي علمها آياه شباباب. فالطريق الطويل الذي أنتظره عبر كل روسيا أفزعته من جهة وخلق لديه الرغبة في السفر من جهة أخرى، حتى أنه لم يتمكن من تصور كبير مساحة روسيا في ذهنه.

(1) علبة يوضع فيها التبغ ويستنشق بصورة مباشرة وهي عادة كان يارسها البعض من اهلنا سابقاً.

فكر علي آغا أن يأخذ معه شخصاً يرافقه في الطريق، لكن من؟ كان يجب أن يلم الشخص المطلوب باللغة الروسية، وراح يشاور زوجته في هذا الأمر.

ولكن ماذا بإمكانني أن أنصحك؟ - تنهدت الزوجة - بالنسبة لعشيرتنا ليس هناك من يعرف اللغة بيننا بإمكانك أن تأخذ أحداً من عشيرة هسنا، من أگباران على سبيل المثال، أنهم يعيشون هنا منذ أمد طويل ومن المحتمل أنهم يعرفون اللغة الروسية وأنهم من أبناء ديننا ولن يرفضوا طلبك اطمأن قلب علي فلقد أعطته زوجته فكرة صحيحة.

في تلك الأمسية إجتمع حشد كبير من الناس في مضافة علي آغا وأنهمك الشيوخ الذين خط الشيب رؤوسهم بهدوء في حديث حول الأعمال اليومية، حول الزرع، حول إقتراب فترة الترحال مع الأغنام، ثم دار الحديث حول عگيد.

أنتظر علي آغا هذه اللحظة وأخذ الحديث قائلاً:

- أيها الشيوخ المحترمون، رعاكم الله وأشكركم...أريد أن أبلغكم أيها المحترمون بأنني قررت السفر إلى سيبيريا للقاء به.

- ليتحقق حلمك يا علي آغا، قال أحد الشيوخ ممسداً شاربه.

- هناك مشكلة أيها المحترمون، لوح علي آغا بيديه ليس هناك رفيق الطريق الذي يعرف اللغة.

- نعم، نعم، هذا صحيح، وافق الشيوخ.

- لسوء الحظ، ليس بيننا من يتكلم اللغة الروسية وبدون اللغة لن يذهب المرء بعيداً، قال آخر تاركاً بين يديه مسبخته بإتزان.

- ما رأيكم، أليس هناك من يتكلم الروسية بين سكان أگباران؟ سأل علي آغا وأجال بصره في الحاضرين متسائلاً.

- لحظة؟ هتف فجأة مسروراً أحد الشباب الذي كان يقف بالقرب من الباب فلديهم شخص يعرف اللغة ويقطن هذا الشخص قرية بوشت أو كما يسمونه بتسمية أخرى كارفان ساراسمه قناة ابن سادو نادرسمعت بأن قناة كان يدرس في مدرسة جاموش فان ويقال بأنه يتكلم الروسية بفصاحة لدرجة قد تثير أعجاب الروس.

- لم ينس علي آغا بكلمة بل استدعى شايبين رشيقيين وأمرهما بالسفر إلى بوشت مع الفجر و جلب قناة معهم بالتأكيد وأمرهما أن يخبراه بأن جميع التكاليف يدفعها الآغا من ماله كما أن الآغا سيكافئه بسخاء.

على أثر ذلك أنصرف الجميع إلى بيوتهم، أما الرسولان فقد راحا يحضران أنفسهما للطريق، تنفيذاً لأوامر رئيسهم.

\*\*\*

## سيبيريا

أعدوا العدة للرحيل وأنتهت النسوة من تحضير الزاد بسرعة فقد وضعن في كيس متين مصنوع من جلد الخروف الطعام بكميات كبيرة: قاورما - لحم مطبوخ مسكوب بالدهن، الجبن المعطر، الزبدة الملفوفة بخبز الساج - بإختصار كل ما تنتجه القرية.

وضعه بكثرة حتى لا يحتاج المسافرون إلى الطعام في طريقهم ولن يذهب عن بالهن اللباس الدافئ جوارب صوفية طويلة حتى الركب، قمصان وملابس داخلية وفي مكان مخفي وتحت بطانة سترة علي آغا وإبن أخته جندي أو سو خاطت النسوة جيوباً لإخفاء النقود فيها، كل شيء كان جاهزاً، كانوا ينتظرون الصباح للبدء بالسفر بعون الله.

أمر علي آغا بالإعتناء بالخيول، عند حلول المساء راح الخدم يطعمون الجياد ويسقونها حتى الشبع وقبيل الفجر نظفوها جيداً وغسلوها في النهر ومسحوها بقمماش جاف ثم أسرجوها.

كان الطريق أمامهم طويلاً وشاقاً، فكان عليهم أن يعبروا قرية سوسنز<sup>(1)</sup>

---

(1) احدى القرى في تركيا تقع في منطقة قارص وتعني بالتركية (بدون او عدم وجود الماء) وتعد مسقط رأس (عرب شمو) الذي كان واحداً من المفكرين الايزيديين في الاتحاد السوفيتي وله دور كبير في تعزيز الثقافة والفكر الكردي في منطقة القفقاس (المقدم).

ومن ثم المرور بكل من كوليران وبازار جوخقرية تابعة لسكان عشيرة جمال الدين ومن هناك السفر إلى تاكنال ومن ثم إلى بوليخ ومن هناك فقط يقود الدرب إلى قارص حيث سيركبون هناك القطار الذي سيتوجه بهم مسرعاً كالبرق إلى جهة نائية غريبة.

قدم لهم الخدم ثلاثة أحصنة مسرجة وما أن أنتهوا من مراسم التوديع، حتى ألقوا نظرة أخيرة على القرية ثم همزوا أحصنتهم بأعقاب أحذيتهم شُيعت النسوة اللاتي وضعن أيديهن على صدورهن، من فوق سطوح منازلهن، بنظراتهن المسافرين طويلاً.

سار في المقدمة فارس يعتمر قبعة مدينة الرأس وخلفه سار الفارسان الآخران وعلى مسافة لا يستهان بها أنضم إليهم في طرف القرية ثلاثة فرسان آخرون كان على هؤلاء مرافقتهم حتى محطة القطار وإعادة الأحصنة كان الفجر قد أنبج تماماً عندما سلم المسافرون أحصنتهم إلى المرافقين وودعهم وركبوا القطار...

تولون بلدة صغيرة ذات ابنية خشبية من طابق واحد كان القليل من المارة يتوقف ليتفرج على الزي الغريب للرجال الثلاثة، الذين كانوا يلتفتون حواليتهم في حيرة وإرتباك.

بحث علي آغا وزملائه عن البيت الذي يسكن فيه عكيدو على أثر بحث طويل أرشدتهم أحد الطيبين إلى البيت المنشود.

طرقوا الباب، أنفتح الباب بهدوء وإذ بفتاة صغيرة ذات جدائل مشعثة تطل برأسها من الباب بوجل، ثم ظهرت امرأة ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر ساد صمت محرّج للحظة وأخيراً رفع قناة عينيه بتردد وسألها بصعوبة:

- لقد قدمنا من مكان بعيد ونريد أن نلتقي بعكيد؟

- نعم، نعم، بالطبع تفضلوا أنه ليس موجوداً الآن، ولكن لا داعي للقلق، سرعان ما سيكون في البيت.

كانت غرفة متواضعة لكنها مرتبة دافئة ومريحة أول ما لفت إنتباه علي آغا وجود الأطفال صبي وطفلتان أما الرابع كان لا يزال صغيراً جداً في أرجوحته ثم وقع بصره على صورة رجل مقدام وعلى رأسه غطاء من الفرو أطال علي النظر في التقاسيم المألوفة لديه هل هذا عكيد؟ سأله علي آغا.  
- أو مأت المرأة برأسها صامتة علامة الموافقة.

وسرعان ما ظهر عكيد بنفسه، ألقى بنفسه في حضن أخيه صارخاً.

إلتصق الأطفال بأهمهم، نظروا على كل ما يجري بذعر وعدم إدراك إختلط الحزن والسرور على وجوه الأخوة غطى علي وجهه بيديه ثم أنخرط في البكاء بأعلى صوته. وبعد ذلك، عندما تبدد إضطراب اللحظة الأولى، راح عكيد يسأل ضيوفه بلهفة وشوق عن ديغور وعن الأقرباء والجيران كانت كل الأخبار بالنسبة إليه ممتعة وجديرة بالاستماع.

- إسمع يا أخي، قاطعه فجأة علي آغا، من تكون هذه المرأة؟ لقد أخبرونا هنا بأنها زوجة رجل اسمه ليتكين.

- نظر عكيد الى أخيه مرتبكاً أما الثاني فكان ينتظر منه الجواب.

- لا وجود بعد الآن لليتكين - قال عكيد بصوت خافت.

- أفهم أنها من دين آخر لم يكمل علي حديثه فقد جمد لسانه في فمه وأحس بغصة حادة تتوقف في حلقه.

- نعم يا أخي نعم! - هتف عكيد - أنها زوجتي، وهؤلاء أولادي ماداً  
يده إلى الأمام كما لو أنه يطلب الاعتذار.

ساد صمت كئيب على البيت.

إرتسمت على ثغر آنا إبتسامة طبيعية ودعت الضيوف إلى مائدة  
الطعام هرع قناة إلى مساعدتها ثم أخذ يدعو زميله جندي بغمزة عين  
الذي أخذ مكانه على المائدة، طالباً منه أن يحذو حذوهشكرت آنا  
بعينيها الضيوف الشباب ثم جلبت لنفسها كرسيّاً وجلست معهم على  
المائدة لكنها لاحظت فجأة كيف يرنو إليها علي آغا معاتباً، تجمدت في  
مكانها رعباً والصحن في يديها.

- المعذرة يا سيدة البيت، قال قناة مضطرباً، لكن حسب عادات آبائنا لا  
تجلس النساء مع الرجال على مائدة واحدة.

- هكذا إذن! ردت آنا دون زعل، لم اكن أعرف ذلك، فعندنا لا يجلسون  
على مائدة الطعام بدون ربة البيت، تمتت آنا والقمت بنظرة على  
عكيد ثم نهضت من على المائدة.

- أعجب جندي بتواضع آنا ومد يده إلى صحن اللحم الذي كان يبيعث  
من البخار، أخذ قطعة ثم رجעה فوراً وعيناه تبرقان هلعاً.

- أخي قناة ما نوع هذا اللحم؟ سأله بريبة.

أيعقل أن يكون هذا لحم خنزير<sup>(1)</sup>؟ فكر قناة في دخيلة نفسه ثم توجه  
بسؤاله إلى آنا:

(1) يحرم الايزيدية اكل لحم الخنزير.

- يا سيدة، أنه يريد معرفة نوع هذا اللحم؟

- لحم عادي، قالت أنا بلهجة ساذجة، أنه لحم خنزير كلوا بصحة.

علا الإصفرار وجه قناة وراح يلقي نظرة على وجه جندي الذي كان ينتظر الجواب بقلق بالغ.

فهم هذا الأخير كل شيء هكذا دون شرح ونهض من مكانه متجهاً الى المغسلة وراح يغسل يديه محتدماً.  
فقدت أنا صوابها تماماً.

- معذرة أيتها المحترمة، قال قناة بحيرة، أن هذا اللحم حرام عندنا من الأفضل أن ترفعيه من على الطاولة.

- إتركوه جانباً على الطاولة، أنه لا يؤدي وأخيراً إستشاطت المسكينة غضباً.

- دنت أنا من الطاولة وأخذت صحن اللحم التعميس إلى المطبخ وعند الباب إستدارت أنا وتوجهت إلى قناة تسأله بوجل:

- هل أجلب لكم الشاي؟

- نعم، من فضلك!

أتت بالسماور ووضعتها على الطاولة راح الضيوف يرشفون الشاي بصمت وما أنفرغ الضيوف من تناول العشاء حتى أخذت أنا تفرش لهم طاقم النوم فوضعت لحافاً أزرق<sup>(1)</sup> لعلي آغا فأثار ذلك حفيظته.

(1) لا يجبذ الايزيدية ارتداء ملابس باللون الأزرق لكونه لون السماء حيث يتواجد فيها الالهة والملائكة لذلك فهو لون مقدس ولا يرتدونه تقديساً وتبجيلاً للالهة والملائكة (المقدم).

حتى الصباح لم ينطبق جفن علي آغا، فقد عذبتة فكرة واحدة وهي أن شقيقه دنس إسم عائلة بولات المجيدة، ماذا سيقول للناس؟ وكيف سينظر عكيد في عيون سكان ديغور؟ من الطبيعي، أدرك علي آغا أنه لم يكن أمام عكيد خيار آخر، لقد عاداه القدر منذ أن أرسلوه إلى سيبيريا اللعينة هذه أما الآن فقد حلت مصيبة جديدة بإسرة عمريك بولات قاطبة أهلکه العار والعيب وفي وجه الصباح غفا بعد أن إستبد به القلق طوال الليل.

ومع الخيوط الأولى للفجر وقف كل من جندي وقناة على قدميهما، بعد أن إغتسلا راحا يبتهلان بالدعاء للرب، ثم تناولا فطورهما وأنتظرا إستيقاظ علي آغا.

دخل عكيد وعندما رأي ضيوفه وقد إستفاقوا من النوم عرض عليهم النزول إلى البلد برفقة إبنه فيديا ابديا كل من قناة وجندي سرورهما وبعد مدة قصيرة إستيقظ علي آغا أيضا من نومه، وتذكر مباشرة حديث الليلة الماضية مع أخيه وإستشاط غضباً.

- ولكن لماذا، لماذا فعلت هذا؟ تتمم علي مضطرباً موجهاً بكلامه إلى عكيد لقد ألحقت العار بعائلتنا مرة وإلى الأبد ولكن ماذا سيقول الآن عنا الناس يا عكيد؟ فلنا أعداء يتربصون بنا وينتظرون أحدنا حتى يخطئ.

حينئذٍ رفع عكيد عينيه إلى أخيه قائلاً:

- فديتك بنفسي يا علي! أن كلامك صحيح، ولكن هذا الكلام لشخص يغمره الدفء والحب ويحيط به الإهتمام والإعتناء، هذا الكلام لشخص لا يعرف معنى الجوع الذي يقبض القلب ويخبل

العقل، ولشخص لم يعاني من البرد القارس الذي يوقف الدم هذا ناهيك عن الأمراض والمصائب الأخرى، فقطعة خبز كانت تعتبر حلماً كنت أرتدي ملابس رثة، مات الكثيرون هنا، وكنت أيضاً قاب قوسين أو أدنى من الموت وأنا أنقذتني من ذلك، وقدمت لي الطعام والشراب فلولاها يا أخي، لما كنا نلتقي معاً الآن لقد إرتبطت بها بكل فؤادي فلدينا أطفال يا علي وكبقية الناس عائلتنا واطفالنا عزيزة علينا. أيعقل أن لا يكون في قلبك مثقال من الشفقة لكي تسامحني على فعلي هذا؟ سكت علي ورفع نظراته إلى أخيه الصغير ورأى هذا الأخير فيهم الدموع الحارة.

مضت ستان طويلتان وعلي آغا يتذكر سفرته إلى سيبيريا كحلم غريب ودون كلل أو ملل كان علي آغا وإبن أخته جندي يتحدثان باستمرار لسكان قرية ديغور حول سيبيريا وعن عكيد وحول أرض روسيا الشاسعة العملاقة وعن عادات الروس لقد أثار حديثهم الكثير من دهشة وأنفعال الناس، حيث أبدوا إعجابهم ببعض الأشياء وعبروا عن إستيائهم بأخرى.

وبعد عودة علي آغاتوات مراسلات حميمة بين ديغور وتولون أصبحت الرسالة حديث أهل ديغور، لقد بات هذا الشكل من الإتصالات موضوع مناقشات مطولة لأهل ديغور وقد أكد الجميع أنها وسيلة مريحة جداً.

أثار نبأ زواج عكيد من امرأة غربية في البداية بلبلة في القرية، ولم يمض إلا بعض من الوقت حتى أصبحت لديهم هذه المسألة أمراً مألوفاً وتبددت الهالة التي كانت قد رسمت حولها الأفاويل.

ومضت الأيام والأسابيع والشهور وأقبل خريف عام 1907، أخذ الفلاحون يجهزون أنفسهم لإستقبال الشتاء الجبلي الطويل القارس فمنهم من جهز العشب اليابس ومنهم من حمل قمحه إلى الطاحون ومنهم من سافر إلى مدينة قارص، لشراء الصابون والكاز وعلب الكبريت، ولبيع الصوف والزبدة والقريشة في السوق وفي القرية حان وقت العرائس.

وفي يوم من أيام الخريف، جاءنا من ديغور الأرمنية، المعلم فاغان مينايجا وقف المعلم حصانه المغطى برغوة العرق أمام باب علي آغا وسلم اللجام إلى الخادم الذي أسرع نحوه ومن ثم توجه إلى علي آغا بالكلمات التالية:

- هدية منك يا آغا! سيعود أخوك عكيد.

- أنا مسرور بلقياك رد علي بهدوء مخفياً إضطرابه، إختر من بين أحصنتي الحصان الذي يعجبك والآن متع مسامعي بتفاصيل هذا النبأ الطيب.

- لتبق دارك عامرة بالولائم والأفراح يا آغا شكره المعلم، أن عكيد آغا في تبليس الآن فقد ارسل من هناك رسالة عاجلة وسيكون عندك خلال الأيام القليلة القادمة.

ركض الخدم ودبت الحركة بين الأقرباء راحت ديغور تستعد لإستقبال عكيد آغا علا صوت الطبل والمزمار في كل المنطقة وشرع الشبان والفتيات بالرقص والغناء وتشابكت الأيدي وتلامست الأكتاف أما الفرسان فقد أخذوا يعرضون في الميدان ألعابهم الفروسية مظهرين

لعشيقاتهم الحذاقة والشجاعة التي تثير لديهن الدهشة والإعجاب عزف المزمارة أغنية الفرسان، وهاجت الدماء في العروق وحتى وقت متأخر من الليل تواصل الرقص والفرح في القرية وما أن خيم الظلام حتى تفرق الجميع إلى بيوتهم وفي الصباح تجددت الإحتفالات فقد تحرك رهط من الفرسان برفقة المطربين بإتجاه الماء الأسود<sup>(1)</sup> توجهوا إلى محطة آلاكا مستقبليين الضيف العزيز.

وفي الطريق أنضم إليهم ممثلون عن عشائر دلهور وجمال الدين<sup>(2)</sup> إحتشد جمع غفير من الناس في المحطة لدرجة لم يكن هناك منفذ لسقوط تفاحة على الأرض وتوقف القطار بهدوء.

خرج عكيد وأنا والأولاد من العربة ووقعوا مباشرة في أحضان الحشد الكبير وسط هتافات من التهليل والإبتهاج علت وجوههم الفرحة والإبتسام وسط هذا الإستقبال الرسمي، فقد بدا لهم كل ذلك ما يشبه الحلم الكبير.

قدموا عربة بشأن أنا والأولاد وأمتطى الفرسان على صهوات جيادهم وتحرك القطار المزين بحلة العيد الذي إستقبل خصيصاً عكيد آغا.

وفي الطريق دوى صوت إطلاق الرصاص في الهواء من البواريد وغرد المزمارة بهدوء لحن أغنية شرانياً أما الفرسان الممشوقون على جيادهم فقد بدأوا بالصرخ يمارسون الألعاب الفروسية.

- (1) الماء الأسود يطلق على احد الانهر المائية الصغيرة في منطقة سرحد في تركيا حيث منطقة سكن وتواجد الايزيديين فيها قبل الهجرة والهروب منها.
- (2) احدى العشائر الكردية المسلمة التي سكنت في تركيا

وعلى مشارف بادجان لأحظوا مجموعة فرسان وفي أيديهم يرفرف مع الريح علم قبيلة كان يكانوا يتقربون على نغم الموسيقى وما أن توحدوا حتى تابعوا المسير معاً ومن جديد دوى صوت إطلاق النار الجماعي من البنادق وعزف المطربون.

في حين راح عدد من الفرسان يطلقون الأنة لجيادهم، مبلغين إقتراب الضيوف الذين طالما أنتظروهم بفارغ من الصبر. خرجت لإستقبالهم القرية عن بكرة أبيها وكان يسير في المقدمة او كيز الذي هتف قائلاً:

- أهنتك يا علي آغا بعودة أخيك لتعم السعادة والفرح دارك دوماً فأنتم جميعاً ضيوف في اليوم وغداً في بركة الله.

كانت موائد الطعام عامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب المتوفر في دار او كيز وفي الزوايا كان يشوي لحم الخرفان الطازج بالشيش على الفحم حمل الشباب الضيوف خاشلام<sup>(1)</sup> والشراب البارد ثم قدموا لهم الشاي والقهوة المعطرة.

وفي الصباح وعندما أعد الضيوف العدة للرحيل تحدث او كيز قائلاً:  
- أيها الأخوة أبناء ديغور! أيها السادة علي آغا وعكيد آغا! لا حدود لسعادتي اليوم أهنتك مرة أخرى يا علي آغا لتذهب سنوات الإنتظار الحزينة بدون رجعة!.

- لك الشناء يا أو كيز، تعالت الأصوات من كل لإطراف.

- فاليوم، عاود او كيز حديثه، يوم سعيد بالنسبة لعشيرة سيبكا أن عزيزنا

(1) خاشلام: أكلة شعبية من اللحم.

عگید آغا تزوج من أجنبية وعاد برفقة زوجته وأولاده إلى ذويه،  
فزوجته من دين آخر لكنني لا أحكم عليه ولا ألومه على ذلك، بل  
على العكس من ذلك أن قلبي يأمرني أن أصبح له اخاً آخر وياً<sup>(1)</sup>.

- أطال الله عمرك يا اوكيز هتف أحد الضيوف.

- وكأخ له فأني أهدي إلى عروستنا أنا وأخي عگید عشرة رؤوس من  
الغنم وحصاناً.

فغر الجميع أفواههم عجباً، لم يكن اوكيز من أولئك الأثرياء فكيف له  
هذا السخاء الكريم وتوجه أنظار الجميع إلى عگید آغا، ماذا سيكون رده؟.

- ليعم النجاح والسرور دارك يا اوكيز، - رد عگید، أن زوجتي  
وأولادي يقبلون يدك لا تكفيني الكلمات لأعبر لك عن شكري  
بما أنك مددت إلي يد الأخوة في هذه اللحظة الحاسمة بالنسبة لي،  
فأعرف، أنني سأكون على مستوى هذه الأخوة وسيأتي ذاك اليوم  
الذي سأتمكن فيه من أن أرد جميلك هذا بشكل لائق يا اوكيز.  
والآن أسمح لنا أن نغادر دارك المضيافة.

بعد أن ودعوا صاحب الدار بدأ علي آغا وعگید آغا مع عائلته  
والفرسان المرافقين بالإنطلاق نحو ديغور.

\*\*\*

---

(1) من عادات الإنيزيدية أن العريس يكون له اخ آخرة والعروس أيضاً لها أخت آخرة  
ممكن أن يكون من طبقة الشيوخ او البيرة حسب اختيار الشخص وموافقة الطرف  
الآخر ومهمته الاخ الآخرة بأنه يساعد الشخص في الإرشاد الديني له في هذه  
الدنيا ويشفع له او يساعده في الآخرة (المقدم).

## أنا كارتاشوفا

في الصباح الباكر ومع شروق الشمس بدأ الخدم يخبزون خبز الساج أمام دار علي آغا كان الجميع لا يزالون نائمين في الدار سوى أنا التي كانت تقف وحيدة على عتبة الباب وأنشأت تنظر بحزن وكآبة إلى الجبال وما أن وقعت عليها أنظار الخدم حتى علت وجوههم إبتسامة حائرة بلهاء ثم خفضوا رؤوسهم.

ها قد مضى عدة أيام على وجود أنا مع الأطفال في ديغورلم يمض وقت طويل على اليوم الذي غادرت فيه أنا تولون في حين بدأ لها ذلك دهرًا كاملاً.

تملكت أنا الرغبة في التعود وبأقصى سرعة على الحياة الجديدة والغريبة عليها، التعود على عادات ولغة هؤلاء الناس كانت تدرك جيداً بأنها ستلاقي صعوبات هنا وستحن إلى سيبيريا وستشتاق لأصدقائها ومعارفها وإلى الحياة المألوفة لديها وصقيع سيبيريا العزيزة على قلبها.. وبينما كانت أنا غارقة في تفكير عميق شدها شخص من طرف ثوبها، وإذ بأبنها الحبيب فيديا يقف بجانبها ويمتغ ناظريه بكلب ضخم أشعث يهز ذيله بحفاوة سرت أنا لمزاج إبنها الجيد وأخذت تمسد رأسه برقة أحبت أنا إبنها بليوننة وكان يطيب لها أن يبدي الغرباء عن إعجابهم بجمال وذكاء إبنها ويكيلون له المديح.

أنتابت أنا رغبة جامحة في أن تحظى بأعجاب أسرة علي آغا والسكان المحليين فعلى سبيل المثال، لاحظت أنا بأن نساء المنطقة يضعن فوق رؤوسهن غطاء فراحت هي أيضا تضع على رأسها الغطاء وبدأت تخط الملابس لاطفال المدرسة الايزيديين وتزودهم بالكتب.

قرأت أنا في عيون عكيد ثناءً صامتاً لقد كانت ماهرة في كل شيء وأبدت عن إستعدادها في أن تحمل على أكتافها أي عمل كان في البيت، مهما كان والشيء الوحيد الذي أقلقها هو التعود على الوضع غير المؤلف.

- المهم أن أتحمل! قالت أنا بصوت مسموع.

رفع فيديا عينيه السوداوتين الناريتين إلى أمه.

- مامي، همس الصبي بصوت خفيض.

- فيديكا، ولدي العزيز، قالت أنا واضعة وجهها على صدر الولد وهي تمسده شعره الكستنائي الناعم.

أما الطفل فإرتدى متعلقاً برقبة أمه بيديه الصغيرتين في حين تالألات عيناه من تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين شاعراً بالمتعة وهو يكرر بإستمرار:

- ماما.. مامي.. ماما..

لقد توقف الزمن بالنسبة لهما للحظة حيث لم يحسا بشيء.

مضى تشرين الأول خيم ضباب خريفي بارد على الأراضي الجرداء محذراً بقدم شتاء طويل صامت.

إعتادت أنا شيئاً فشيئاً على الظروف الجديدة فقد تعود سمعها على الحديث الكردي وتعلمت كذلك عشرات الكلمات. ذهب طفلاها فيديا ونورا إلى مدرسة خاصة بأطفال النبلاء في ديغور الأرمينية وكما كان في تولون، فقد درس فيديا أيضا هنا برغبة كبيرة مما أثار إمكاناته الخارقة دهشة المعلمين فرحت أنا بنجاحات إبنها وكرست الكثير من وقتها لدراسته ولم يكن يقلقها سوى أمر واحد وهو عدم رغبة فيديا في دراسة مادة القانون الالهي.

ففي ذات مرة عاد فيديا من المدرسة مبكراً.

- لماذا جئت هكذا مبكراً اليوم هل حدث سوء يا بني؟ سألته أنا.

- لن أحضر درس القانون الإلهي.

- لماذا؟ سألته أمه مدعورة.

- لكنني لست مسيحياً، رد فيديا بسداجة.

- إذن من أنت؟ إرتعبت أنا.

- أنا مثل أبي..

ما أن سمع عكيد رده هذا حتى إرتمى عليه حاملاً إبنه بشدة بين أحضانه أما أنا التي إستغربت كلام إبنها السليط فقد غرزت ناظريها في عيني زوجها ثم أنخرطت في البكاء غيظاً.

وهنا ألقى الإبن بنفسه إليها منهالاً عليها بالقبلات.

- ملعون، هتف عكيد، لا يريد أن يزعل أحداً.

بعد أن رمق عكيد زوجته وإبنة بدلال خرج بعد أن تركهما لوحدهما أنتابه شعور دافئ وهادئ، فأبنة لم يخيب الأمل المعقودة عليه فعندما يكبر سيصبح سنداً لوالده، لم يشك عكيد في ذلك.

مضى الزمن وأقبل عيد الإيزيدية المقدس لكن لم يتخط أحد لا من تيرك<sup>(1)</sup> ولا من الشيوخ عتبة دارعلي آغا بسبب تواجد امرأة من ديانة أخرى في البيت.

عض علي آغا بغضب على شفته وشد من قبضته إذن لا بد من إنتظار المصائب، فاذا أشاح الشيوخ بوجوههم عن داره، فأن هذا لن يجلب له خيراً.

ساد بيت علي آغا في هذه الأيام جو خائق لقد تعذبت أنا وتألمت من النظرة المتحفظة لأخي زوجها، لكن ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟.

بالإضافة إلى ذلك فقد إجتاح نبأ حول قدوم الكفلة (القوالين)<sup>(2)</sup> إلى ديغور وذات مرة طار على وجه السرعة الى القرية وعلى حصان أسود رسول من طرفهم وإسمه حسيناًوقف حصانه في وسط القرية وأعلن بأن خدم الأله (الكفلة- القوالين) على وشك القدوم إلى ديغور وأنهم يحملون معهم صورة يافا<sup>(3)</sup> المقدس ثم إختفى الرسول.

هاجت القرية وتهللت وإرتدى الجميع صغاراً وكباراً ملابس العيد وتماوجت حشود الشعب وراحوا ينتظرون قدوم الكفلة (القوالين).

(1) تيرك: يقصد بها الاييار مفردها پير وهي طبقة دينية في الايزيدية.

(2) مراجعة التوضيحات التسلسل (3)

(3) مراجعة التوضيحات التسلسل (4).

قررت أسرة علي آغا المشاركة في هذه المناسبة، أن الكفلة (القوالين) نادراً ما كانوا يترددون على ديغور.

أنحدر تيار جارف من الناس على وجه السرعة إلى أسفل الجبل مستقبليين الكفلة (القوالين) المقدسين، مبتهلين بالتراتيل الدينية بأصوات رنانة ومنغمسين في رقصات نشطة تعبيراً عن تلاوة الطقوس الدينية.

أن صوت ألحان الموسيقى السحرية فتن الشعب وبدا ذلك له كما لو أن الملائكة نزلوا من السماء، وهم يحمدون الرب من خلال تراتيلهم الدينية هذه، سعى كل واحد منهم الوصول قبل غيره إلى الكافال (القوال) ليأخذ قبل آخرين في يده يافا المقدسة ولينعم ببركتهم.

وقف علي آغا في مقدمة الجميع وخلفه كان عكيد آغا وأقربائهم وبعد الانتهاء من مراسيم الإستقبال التقليدية، تقدم علي آغا نحو الخرج الذي يحمل الطاؤوس إلا أن أحد القوالين بأسم (رجو) إعترض سبيله.

جفل الحشد ونظر الشعب بأستغراب شديد إلى الكافال (القوال) ماذا سيحدث بعد ذلك؟ دعا الكافال (القوال) إليه كما لو أنه لم يحدث شيئاً، شخص من حاشية علي آغا كان ذلك الشخص هو عمر سمو.

- يا بني، توجه إليه الكافال (القوال)، بينما كنت تتعذب في بلد الكفار اللعين، كنا هنا نبتهل لك بالدعاء دوماً الحمد لله، فقد عدت حياً وصحتك على ما يرام ولم تتغير كما فعل غيرك، لم يتطرق إلى إسم عكيد، إقترب يا بني، إلتصق براعي دياتنا بافي، وضع الخرج على كتفك!

وكما هي العادة، أنحنى عمر وقبل صورة بافي وبعد أن وضع على كتفه الخرج الذي كان فيها صورة راعي الديانة توجه نحو القرية تجددت الإحتفالات وسار جميع الشعب من خلفهم وسط إبتهالات لطقوس جديدة للكفلة (للقوالين).

كانت هذه المرة الأولى، عندما أشاح القديسون وجوههم عن دار بولانكان الموت أهون من هذا الرفض!.

تحدث الكثيرون من أن القوالين أنهالوا باللعنات على دار علي آغا وعلى أن بيته ستتحول إلى خرائب للبومة وعلى أن عائلته لا محالة ستنقرض لقد تهرب الناس من لعنات القوالين، لذا عملوا المستحيل من أجل إرضائهم وعدم إثارة سخطهم، فحملوا إليهم هدايا ثمينة وذبحوا القرابين، بغية حماية بيوتهم من لعناتهم وإتقاء موسمهم من شر البرد وحيواناتهم من البلاء والوباء.

في ذلك الوقت تحول دار أمر سمو إلى محج حيث عرض بافي في الصدارة ووضعت إلى جانبها قصعة (كأس) من الماء المقدس<sup>(1)</sup> إلتصق الفلاحون واحداً تلو الآخر إلى بافي بإجلال تاركين عند قدميه هداياهم فما أن كان ينتهي كل واحد من عملية إدخال أصابعه في الماء المقدس يرش بها نفسه وأولاده حتى ينحني مرة أخرى متوجهاً إلى داره بقلب مفرح.

(1) يجلب القوالين معهم اثناء رحلة الطاووس كمي من المياه المقدسة التي عمد فيها هذا الرمز المقدس من مياه معبد لالش المقدس في العراق ومن عين(ماء زمزم وعين ماء كافي سبي - العين البيضاء) المباركتين التي تمثل مياه مقدسة ومباركة في الديانة الإيزيدية حيث يشترط ان يعمد فيها الفرد الإيزيدي.

كما أن علي آغا وعكيد آغا حضرا إنحناءً لبافي وما أنحاولا وضع هديتهما حتى عرض سبيلهما في هذه المرة كافال (القوال) دودو.

- يا علي آغا وعكيد آغا، توجه إليهما القوال برزانه، أن بافي المقدس لا يحتاج إلى هداياكم.

أن كلمات الكافال (القوال) هذه كالخرز المنظوم في الخبط، إجتاحت جميع القرى الإيزيدية، أنهال بعضهم باللعنات على عكيد آغا الذي أثار سخط الكفلة (القوالين) وكان هناك قسم آخر أشفقوا عليه من قلوبهم، أحد هؤلاء كان أوكيز ممو.

ففي ذات مرة، وصل أوكيز إلى ديغور وما أن رآه الناس حتى فتحوا له الطريق، أما الشيوخ فقد إقترحوا عليه الجلوس في الصدارة بجانب الكفال (القوال) دودو.

كان الناس يعرفون الطباع الصارمة لأوكيز الذي لم يتوان عن قول الحقيقة في وجه الآخرين وعلى أثر مراسيم إلاستقبال والترحاب دار الحديث على أنه من الاثم أن يتعلم الايزيدي ويتزوج من امرأة من دين آخر ويرتدي لباساً أزرق.

كما تطرقوا إلى مواضيع أخرى بقدر ما أمكن رجال الدين من الحديث كان من بين الحاضرين أيضا بير قاسو الذي ساد عليه القلق منتظراً أي مقلب من طرف اوكيز الجريء لم يكن تخوفاته عبثاً، فقد طلب اوكيز كلمة.

- أيها القديسون! هل بإمكانني مشاركتكم في الحديث، بدأ اوكيز حديثه متوجهاً إلى الكفلة (القوالين).

- نسمعك أيها المحترم، رد الكفلة (القوالين) معاً.
- أن قدومكم إلينا يدخل السرور إلى قلوبنا، تابع أو كيز حديثه بنماقة، -  
 أن رعاة الديانة الإيزيدية المقدسة ضيوف محبذون لدينا..
- لتكن دوماً عبداً مطيعاً للإله! قال كافال (قوال) دودوكلنا أذان صاغية.
- أيها القديسون! أنحنى أو كيز بأجلال للكفلة، منتهزاً حضوركم، أريد  
 أن أوجه بسؤال إلى بير قاسو لو سمحتم بالطبع؟.
- أوماً الجميع برؤوسهم يانتباه دلالة الموافقة.
- أجبني أنت يا بير قاسو أمام الرب، أي مصير ينتظر هذا الشعب؟ أشار  
 او كيز بيده إلى الحاضرين، لم نسمع منك سوى الكلام عن الحرام  
 والذنوب ولكن ماذا سيحصل في المستقبل؟.
- سرت في جسم بير قاسو قشعريرة، محاولاً النهوض من مكانه إلا أن  
 الكافال (القوال) رجو غزر ناظريه السوداوين كالليل محدقاً في عيني  
 بير قاسو داعياً الأخير إلى الالتزام بأهداب الصمت.
- هل هذا كل ما لديك؟ سأله قوال رجو محاولاً نظره من بير قاسو إلى  
 او كيز.
- كلا، ليس كل شيء، رد او كيز بهدوء أيها القديسون! لقد شاهدتم  
 الكثير في حياتكم وليس أنا الذي يجب أن أعلمكم وليس عبثاً أن  
 يقال (ثعلب متجول أفضل من أسد نائم) لقد أنتظرنا قدومكم بفارغ  
 الصبر وكان الناس يقولون: سيأتونا الكفلة (القوالون) لينورون، من  
 فضلكم، إشرحوا لي لماذا يمنع علينا الزواج من الغرباء في حين  
 يسمح بذلك عند الشعوب الأخرى.

فلنأخذ على سبيل المثال الأتراك، لقد بذلوا الغالي والرخيص من أجل إدخالنا الاسلام وأعطوا الإعتبار لكل الوسائل الممكنة لإنجاح هذه المهمة بما فيها الزواج من كردية علماً، أنهم يطيعون نبيهم محمد (ص) ليس أقل منا نحن الايزيديين ماذا تقولون في هذا الصدد أيها القديسون والأذكياء؟.

أصغى الحاضرون إلى أوكيز بانتباه شديد.

- كما تعلمون، تابع اوكيز، عاد عزيزنا عكيد آغا من المنفى من سيبيريا البعيدة وجلب معه من هناك امرأة محترمة، رفع أوكيز رأسه فجأة، فهذه المرأة المحترمة وبينما كان عكيد آغا يتعذب ألماً ويعاني من الفقر المدقع، أهده السعادة والحياة وأنقذته من الموت المحتم وأعادته سالماً إلينا، أنها أم لأربعة أطفال، أيعقل يا عزيزي بير قاسو بأنه لا يمكن إيجاد مكان لهذه المرأة الطيبة في ديننا؟.

- لا يسمح الرب بأبرام عقد الزواج من امرأة من دين غريب، رد بيرقاسو بإستياء، ولا يوجد مكان لهذه الروسية في ديننا.

- إذا كان الأمر على هذه الشاكلة فأحترار بأية كلمات أستطيع أن أعبر عن رأيي تجاه ديانة لا تستطيع إيجاد مكان صغير لامرأة واحدة، قال اوكيز ذلك بهدوء وأجال بصره في الجميع ثم خرج.

لاقت أنا صعوبة في الاندماج بالقرية رغم رغبتها في ذلك ولكن تصرف الاهالي معها وشعورها كغريبة في مجتمعهم وسلوك رجال الدين تجاهها ونشر الدعايات عليها جعلها تشعر بالاغتراب في القرية وكان شعور الاشتياق الى سيبيريا حاضراً في مخيلتها دائماً، كما ان تصرفات

عكيد آغا وتغيره تجاهها ورغبة اهله في تزويجه من امرأة ايزيدية تدعى (بلگيزة حسو) جعلها تقرر الرحيل الى سييريا وترك القرية، وبالفعل اعدت امتعتها وسافرت الى سييريا مع اطفالها، وهناك عانت آنا ضرراً شديداً وصعبة وانقطعت المراسلات بينها وبين عكيد آغا وتوفيت بعد ذلك واوصت بأن تدفن رسائل عكيد آغا في قبرها.

وصل خبر وفاتها الى عكيد آغا فاعلن الحزن في بيت علي آغا ورفع العلم على بيتهم كدلالة على الحزن وتأثر عكيد بذلك جداً وبدء يفكر بأطفاله فقرر شد الرحال الى سييريا للاطمئنان عليهم وعند وصوله الى سييريا كان اطفاله الاربعة في حالة سيئة فقد عانوا الفقر والجوع والمرض فأعادهم معه الى خراب ديغور وزار قبل عودته قبر زوجته آنا في تولون وبكى عليها بكاءً مريئاً، بعد عودته الى القرية تزوج عكيد آغا من امرأة ايزيدية فاعتنت بأولاده الاربعة وغمرتهم بالحب والحنان.

انخرط فيديا ابن عكيد آغا بعد عودته في التنظيمات البلشفية واصبح عضواً سرياً فيها وكان يقوم بتوعيه الناس من اجل اقناعهم بأفكاره الشيوعية الثورية الهادفة الى تحرير الشعوب من الظلم والاضطهاد والفقر والقضاء على الحكم القيصري الفاسد، واخبر احد اهالي القرية علي آغا بسلوك ابن اخيه فيديا والذي قام بدوره بأبلاغ ابيه عكيد آغا عن ذلك ونبهه الى خطورة ما يفعله فيديا ودعاه الى تنبيهه للعدول عن هذه النشاطات، في احدى الايام ناقش عكيد آغا الامر مع فيديا ولكن الاخير كان ثورياً مثقفاً فناقش اياه بتقاشات فكرية وفلسفية هادفة ومقنعة، فأدرك عكيد آغا اصرار ولده وايمانه بهذه الافكار وعدم قدرته على تركها.

و ذات يوم وصل خبر الى ابناء القرية بأن السلطات تبحث عن فيديا الشاب الثوري فأخبروه بذلك واقنعوه في الاختباء والسفر وعدم الرجوع الى القرية فقرر فيديا بعدها العودة الى سيبيريا التي سيصبح فيها قومسياراً بعد نجاح الثورة.

قرأت نورة بأهتمام ما كتبه إستناداً إلى أحاديث العجوز چاويش وبين تارة وأخرى تعلقو فمها إبتسامة حزينة، بم كانت تفكر يا ترى؟ أية ذكريات أثارَت لديها هذه الكتابات؟ غرزت نورة ناظريها محدقة في عيني، كما لو أنها قرأت أفكارِي ثم قالت:

- أفكر بوالدتي.. كم كانت امرأة شجاعة! وكم كانت قوية شخصيتها، وكم كانت قوية، لديها روح الأصالة والإرادة، بحيث أنها هاجرت حياة مرتبة ومألوفة وتوجهت مع أربعة أطفال إلى إقليم بعيد وغامض!..

حتى أنها إفترقت عن والدنا عكيد آغا بكل جرأة وشرف دون أن تذرف دموعاً ودون خصام لقد حاولت مطولاً وبصبر التفاعل مع الواقع الجديد ولكن عبثاً. أما ما يخلصنا نحن الأطفال فقد كان صعباً علينا ومراً فراق الوالد وترك ديغور الحبيبة وخاصة مفارقة أختينا باسو الذي بقي عند الوالد.

قفلنا عاتدين إلى سيبيريا كانت هناك ممتعة أيضاً بالنسبة لنا نحن الأولاد، إلا أنه كان ينتابنا أحياناً شعور حزين، عندما كنا نرى والدتنا وقد طغت عليها حالة من الضياع فعلى ما يبدو أنها تأثرت من تفتيت العائلة، لكنها سرعان ما نفضت عنها الحزن وعادت إليها الحيوية والسرور

مجدداً وحاولت تسليتنا دوماً، خاصة أن نجاحات فيديا أدخلت البهجة إلى قلبها.

ففي هذا الوقت بدأت أشعاره تنشر في المجلات السبيرية أتذكر كيف كنا نقرأ أشعاره مفتخرين وهذه إحدى قصائده التي تحمل عنوان (عودة لذكرياتي) إسمع يا كمال:

صفحات رزينة ساكنة،

مجهولة كالعبودية في قلب الصفحات،

أمواج أرجوانية متدحرجة

تترك جانباً ليعاني الكآبة

صباحاً في ضباب أرجواني،

ومع فجر مبكر خجول

أتوكل على البهجة المأخوذة

ليتنفوه القلب (بالأحزان!)

عند قيظ الجنوب الحار،

سأخذ ناراً لروحي،

ليغلي في صدري بركاناً

ويعذبني!

عند الأمواج البحرية العالية الهائجة،

مقاتل مع صخر أبدي،

سأردد أغنيتي القديمة

مع أصوات صخرية!

عند حفيف الأدغال المتموجة

عند زهور أيار الربيعية،

سأتناول عطوراً متدفقة

أهوى أحلاماً قصيرة..

صفحات رزينة داعرة،

مجهولة كالعبودية، قلب الصفحات،

كنز لكون كامل،

سأسلم السلطة للشاعر!..

آه، فيديا، فيريك.. نطقت نورة بصورت خافت!.. لقد تمكن من أن يفعل الكثير خلال حياته القصيرة!.. إختطفه الموت مبكراً كان بإمكانه أن يفعل الأكثر لو بقي حياً ولو لعشر سنوات أخرى.

ساد حزن عميق على كلمات نورة لقد ركزت ناظرها عند باقة ورد موضوعة في أناء للزهور مسحت دموعها خفية ثم أسندت برأسها إلى ظهر الكرسي وأصابها الشحوب.

- هل تشعرين بسوء يا نورة؟ تقدمتُ نحوها.

- كلاً.. لا شيء.. ردت نورة، وهي تحتجب بيديها مثلما يحفظ المرء  
عينيه من الضوء الباهت ثم بدت عنها إبتسامة حزينة وقالت: توتر  
بسيط في الأعصاب..

- لو سمحت فأنا ذاهب..

- نعم، نعم، لقد أخذت من وقتك الكثير يا كمال، ردت نورة بسرعة،  
كما لو أنها ندمت على ردها السريع ثم أضافت:

- أنني أشعر بغبطة كبيرة بقدمك يا كمال، فأنت الانسان الوحيد الذي  
أتمكن أن أشاركه آلامي. شكراً لكم!.

- شكراً لك أنت يا نورة، ثم أتابني شيء من الإرتباك ولم أعرف ماذا  
أقول.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا كمال!

\*\*\*

## عام 1918

جاءت ثورة أكتوبر في روسيا ببداية عصر جديد، فقد حظي الملايين من الكادحين والمضطهدين بحريتهم وبحقهم في الحياة الحرة السعيدة وترددت في الدولة المترامية الأطراف صدى إطلاقات الطراد البلشفي (أفرورا) وفي أرمينيا كان الطاشناق<sup>(1)</sup> المتوحشون الفاقدون صوابهم يمارسون جرائم فظيعة.

وفي منطقة قارص عاث الأتراك خراباً ودماراً وفيهذا الوضع الصعب واجه الكرد - الإيزيديون مسألة حيوية جداً وهي كيف يمكن إجتناّب النار والسيف التركي.

وفي إجتماع رؤساء العشائر إتخذ قرار بالإنّتقال إلى عمق أرمينيا للمشاركة جنباً إلى جنب مع الشعب الأرمني في النضال ضد الأتراك الغادرين.

وإضافة إلى ما حل بهم من مصائب، فقد تكررت غارات قطاع الطرق على القرية وإختفى الناس في الجبال مذعورين يائسين هارين من قارص إلى جاموش فان وسط أرمينيا حيث كانت هادئة نسبياً.

(1) هو مختصر للاتحاد الثوري الارمني حزب سياسي اشتراكي ارمني

أقبل ربيع عام 1918 خفية، وكانت اللقالق تشق الهواء بأجنحتها عائدة من المناطق الدافئة، وسرب الزراير تضحج بصخب دون كلل أو ملل، فقد دنا موسم البذار الربيعي، إلا أن ذلك كان آخر ما يشغل بال الناس وكان الجميع يستعدون بنفسهم للهروب من قارص.

شدوا بسرعة الثيران وحملوا عرباتهم شيئاً من المؤن الضرورية، وأخذت العربات تصر شاكية وتعالى في الهواء خوار البقر المربوطة خلف العربات، وسادت الفوضى في كل مكان وتناهى إلى الإسماع بكاء الأطفال وأنين المرضى، والويل لمن كانت تغوص عرباتهم في الوحل أو تتحطم عجلا تم فالناس الذين إستحوذ عليهم الرعب بشكل جنوني لم يكون يباليون بمصائب الآخرين ولا يابهون لأي شيء لا يمس حياتهم المتشردة إتجهت القوافل برتل غير منسق نحو طومرى وإلكياز.

كانت الحياة صعبة وصعبة جداً بالنسبة للمسكينة أكشان زوجة المرحوم عطو الذي سرعان ما توفي على أثر عودته من سيبيريا.

كانت تحمل على كتفيها طفلين فعلى الرغم من جميع المصائب التي ألمت بها فأنها أنتظرت بفارغ الصبر حتى تكبر أولادها على أمل أن تشعر بشيء من الهدوء والطمأنينة في آخر عمرها.

لم تتأثر أكشان بهذه الدرجة لا بموت زوجها ولا بالمصائب والفقر مجتمعة مثلما تأثرت الآن وهي ترى نفسها وحيدة دون أن يمد إليها أحد يد المساعدة في هذه اللحظة الصعبة.

فقدت أكشان كلياً السيطرة على نفسها بين هذا الحشد الصاخب ووسط ضجيج وصراخ الهارين من أرض الأباء إلى مناطق غريبة

عبروا قريتي قزلجة وضه لي المدمرتين بفعل الحريق، ومع شروق الشمس بلغوا الماء الأسود، كان الصباح رائعاً جداً فقد أغرقت الشمس بأشعتها الجبال والسهوب والحقول الخضراء الطرية المغطاة بالندى وعلى قاع الثغور وخرير الجداول التي كانت تنعكس فيها الشمس الصباحية اللطيفة ومع ذلك لاح على وجوه الأطفال الحزن والتعب والعذاب في حين ساد على وجوه الرجال والنساء والأباء والأمهات إلكفهرار والقلق.

قطعت أكشان الطريق كله سيراً على الأقدام، محافظة على راحة أطفالها الذين كانوا ينامون في عربة هشة لم يغمض لها جفن طوال ثلاثة أيام بلياليها، وأنظفأ شعاع المرح والأمل في عينيها السوداوتين الثاقبتين. لقد أنهك النوم والجوع الناس لذا فأنهم قرروا الاخلاذ إلى قليل من الراحة على الماء الأسود وفجأة، إرتطمت الطلقات بالأرض بعنف، مشيرة عموداً كثيفاً من الغبار وتناهى إلى السمع صراخات النجدة: (أنقذوا أنفسكم! الأتراك!).

وبحركة لا إرادية، حملت أكشان أولادها وألقت بنفسها وراء الحشد في تيار الماء الأسود العنيف وفي وسط النهر خارت قواها وأنهارت وأعترها الوهن وشعرت بالماء البارد يلذع جسمها وفتنانها المعلق برجليها عرقل مسيرها.

هتف الجميع صارخاً بذعر، تعالت في الهواء صرخة امرأة داعية إلى الإشفاق عليها وعلى مقربة منها كان أحدهم يبكي بصوت مرتفع وفجأة سمعت أكشان صرخة إبتتها الصغيرة وهي تبكي، لم تكن أكشان تعرف

سبب بكائها، أهو بفعل الخوف أم الألم، كان الصراخ في الماء فظيماً ومرعباً لدرجة هزتها من الأعماق وأنقبض قلبها وتقلصت عضلاتها وراحت تجرجر أقدامها في الماء بصعوبة، مجتازة تيار الماء الأسود العنيف إلى أن بلغت أخيراً الضفة الأخرى.

كانت أكشان تقف على قدميها بصعوبة بالغة وقد إستحوذ عليها الإرتعاش والرعب وهي تضم أطفالها إلى صدرها لم يمض وقت طويل حتى إمتلأت الضفة بالناس المنهوكين والمعذبين.

أقبل الليل وأكفهر الظلام الحالك لدرجة لم يكن يرى أحداً لآخر وحمل الهواء البارد الضباب الأسود الثقيل فوق الجبال والوديان وفجأة تناهى إلى الأسماع صوت حزين ورقيق غير طبيعي لأمراة تقنع طفلها وتهدهه كما لو يهدأ الطفل نفسه بنفسه: (آه، آ، آ... آ... آ...).

وفي الصباح الباكر جداً ودون أن تنتظر أكشان الآخرين، حملت أطفالها وسلكت دربها البعيد وحيدة، كان الفجر الربيعي المبكر والبارد يرنو من خلال الضباب الخفيف وعلى الأرض الصامتة وبجانب الجبال الصارمة، وبدون كلل أو ملل أندفعت إلى الأمام إمراة متوسطة العمر وتملكتها رغبة واحدة وشعور واحد، وهو أنقاذ أطفالها من كل المخاطر..

مضت عدة أيام على وصول قافلة اللاجئين بقيادة علي آغا إلى جاموش فان الكبيرة أخذت القرية بأجمعها على عاتقها مسؤولية الاعتناء بهم لم تبق أسرة واحدة إلا ودعت إليها بعضاً من هؤلاء المساكين، كما أن أكشان المعذبة، دبرت لها مأوى ومأكلاً.

وفي هذه الأثناء، كانت الحملة التركية ترتكب الفظائع على مشارف طومرى متقدمة صوب جاموش فان الكبيرة، حلقت أسراب الطيور الجارحة فوقهم جالبة إلى قلب الناس الرعب الشديد.

هاجت القبائل الإيزيدية كالماء المغلي في المرجل فقد راح جانكير آغا ويوسف بكرئيساً أكبر عشيرتين وهما زوكري وهسنان يزجان بمقاتليهم وجنباً إلى جنب مع المقاتلين الأرمن في معركة ضارية مع القوات التركية في سهل سردار باد بشجاعة فائقة.

في حين أنتظر رجال عشيرة سيبكا أمراً من رئيسهم على آغا للمشاركة في هذه المعركة. لكن علي آغا إلتمز الصمت، عندئذ فإن أوكيز العجوزو المحارب القديم اوكيز ممو ودون أن يخاف من إثارة سخط علي آغا توجه إليه بالكلمات التالية:

- علي آغا، لا بد من عمل شيء في الأيام القليلة القادمة سيكون الأتراك هنا، ولا يليق بنا نحن السيبكيون أن نقف مكتوفي الأيدي أن قبائل كثيرة زجت بمقاتليها ضد الترك، يجب أن نفكر بالنساء والشيوخ والأطفال، يجب الانتقال إلى أكباران مادام الوضع هادئاً هناك، أن لم نفعل هذا، سوف لن نلاقي الرحمة والشفقة من الأتراك.

بدا أن علي آغا وفي هذا الجو المضطرب والمعقد، فقد إمكانية الإستماع إلى صوت العقل أنهى علي آغا الإستماع إلى اوكيز العجوز الشايب مقطباً حاجبيه، أما اوكيز فكان ينتظر منه الجواب وحيثئذ تحدث علي آغا:

- كلا يا اوكيز! لا أستطيع حمل الذنوب، فالناس غير قادرين على

الوقوف على أقدامهم حيث أضناهم التعب والأنهك، وفي الطريق سنصبح طعاماً للذئاب والغربان، تقترح علينا بالانتقال إلى أكباران ولكن ما الفائدة؟ فبعد يومين سيلاحقونا الأتراك هناك أيضا وحينئذ إلى أين؟ ما الفرق أين نموت سواء أكان في جاموش فأناً وفي أكباران؟ كلا يا اوكيز سنبقى هنا، ربما يشفق الرب علينا..

لم يبق لدى اوكيز شيء سوى أن يسكت أدرك أو كيز بأنه لا جدوى من مناقشة علي آغا.

- إسمع ما فكرت القيام به، واصل علي آغا، يجب إرسال وفود السلام إلى الأتراك. وعيناه تبرقان أملاً فقراره هذا أدخل الطمأنينة إلى قلبه، أرسل خادماً وراء ابنه البكر جندي، بعد قليل من الوقت ظهر جندي في الباب ألقى علي آغا نظرة عابسة على ولده.

- أدخل يا بني! مشيراً إليه بالجلوس إلى جانبه، - أننا نمر بمرحلة معقدة يا بني! وأريد أن أكلفك بمهمة صعبة.

نظر الفتى إلى والده وأنحنى له بحماس.

- إسمعك يا أبي!

- خذ معك يا بني، إثنين من المقاتلين وتوجه إلى معسكر العدو الباشا التركي وبلغه بأن علي آغا ومقاتلي عشيرة سيبكا وهنا اغلق علي آغاعينه وإلتوت سحتته من العار المؤلم والألم، سوف لن يرفعوا السلاح في وجه الأتراك، لكن عليهم إعطاء وعد بعدم التعرض لعشيرة سيبكا.

سرت قشعريرة في جسم جندي من هذه الكلمات ومد يده إلى والده:  
- يا الله يا أبي عن إذنك..

- إذهب يا بني ونفذ ما أمرتك به، قال علي آغا ذلك صارماً مشيراً له  
الباب.

خرج جندي.

في مساء اليوم التالي، كان رسل علي آغا يجلسون أمام محمود باشا  
الغادر والمرعب.

- ما الذي دفع إلينا رسل علي آغا الماجد؟ سأله محمود باشا بسخرية.

عض جندي على نواجذه بقوة، كان مستعداً أن يلقي بنفسه على  
القائد العسكري التركي التافه ويقطعه إرباً إرباً ولكن هل كان بإمكانه أن  
يرفض أوامر أبيه؟.

لكن المقاتل المتهمك نكس رأسه بحزن ثم نقل إلى الباشا كلام  
والده.

أصغى إليه إلقائد العسكري بإنتباه ثم طلب من خدمه أن يقدموا  
القهوة إلى الضيوف الشباب.

- بلغوا علي آغا أفضل تمنياتي، لم يقل ذلك فوراً، متنقلاً بنظراته  
الماكرة من ضيف إلى آخر، أن الحكومة الإسلامية عاملت الكرد  
دوماً بلطف وأخبروه بأنه ليس هناك ما يدعو للقلق، سوف لن  
نمس شعرة من رؤوس السيبكيين، أعاهدكم أنا محمود باشا وما  
يخص المكافأة سأحدث بنفسني إلى علي آغا، فخلال يومين فقط

سيكون عساكري الأماجد في جاموش فان الكبيرة وبلغوا رئيسكم  
ليجهز نفسه لمراسم الاستقبال. ثم جهز الخدم أحصنة الرسل.

عاد الرسل بصمت إلى جاموش فان الكبيرة وأدرك كل واحد منهم  
من أن محمود باشا الغادر خالف ضميره عندما أعطاهم وعداً بعدم  
التعرض إليهم، لكنه تصرف بهذا الشكل لمنع عشيرة سيبكا من الإتحاد  
مع رجال جانگيز آغا ويوسف بك<sup>(1)</sup>.

هطل المطر وأصبح الطريق المار بين الجبال سالك بصعوبة وصل  
الرسل إلى جاموش فان الكبيرة منهوكي القوى، مبللين حتى العظم  
وعابسين بسبب الأفكار القاتلة.

أنتظر علي آغا ورؤساء القبائل بفارغ الصبر عودتهم أبلغهم جندي ما  
دار بينهم وبين محمود باشا ثم أخذ الكلمة علي آغا.

- أيها المحترمون! توجه علي آغا إلى الجميع لقد حمل إبنني نبأ ساراً  
أن الله لن يحرمنا من رحمته فليس هناك ما يخوفنا بعد الآن، سأبقى  
هنا ولكن فيما إذا رغب أحد منكم في السفر فلن أعترض سبيله.  
نهض اوکيز ممو قائلاً:

علي آغا عد إلى رشدك! إذا جاءنا الأتراك فلا مناص من المصائب  
أيعقل أنك قد نسيت وحشيتهم وصدقت محمود باشا الماكر أنه يسخر  
منالم نهرب إلى الأراضي الروسية لنموت بخنوع لا داعي من أن تتحمل  
الذنوب، سوف لن يرحموا أحداً فمادام لدينا متسع من الوقت فيجب  
(1) إحدى القادة الايزيديين الذين شاركوا مع الارمن في معارك ضد الدولة العثمانية.

علينا الإنتقال إلى أکباران، لا تزعل مني أنا العجوز يا علي آغا، لكنني لن أترك عائلي فريسة للأتراك وسيذهب معنا جميع سكان يامان جاير وقره بوغاز وكونداخ ساز، سأترككم وقلبي ينزف دماً، فإذا لم نتمكن نحن أبناء عشيرة واحدة من الإتفاق، فماذا نقول عن شعبنا بكامله؟ » أن مصيبة شعبنا تكمن في تشتتنا وعدم ثقة ببعضنا البعض». تنفس اوکيز الصعداء ونقل نظراته بكآبة على جميع الحاضرين دون أن يقول كلمة واحدة ثم خرج.

ساد صمت ثقيل على الغرفة بعد خروجه لقد فهم كل واحد من الحاضرين بأن اوکيز محق في كلامه وإستحوذ عليهم الرعب لدى تذكّرهم لحياتهم في تركيا، وأنتظروا ماذا سيقول علي آغا.

أعجب العجوز بشجاعة حديث اوکيز لكنه لزم الصمت عابساً ولو عرف المرء أي صراع كان يدور في داخله! لكنه درس الوضع من جميع النواحي، إقتنع مرة أخرى، أو بالأحرى اقنع نفسه بأن قراره المتخذ هو القرار الوحيد الصائب والقادر على حماية العشيرة من الموت وفي الوقت ذاته، فإنه أحس بمرارة الذل أمام الحاضرين هنا من رؤساء العشائر، هؤلاء الذين وثقوا به وسلموا إليه حياتهم وحياتة أقربائهم، لكنه شعر بعد كلمة اوکيز أن لم يكن منهزماً فمكسور الخاطر.

أنصرف رؤساء العشائر في حين بقي علي آغا لوحده مطولاً مفكراً بوضعه الذي لا يحسد عليه.

وماذا لو لم يف الأتراك بوعدهم فعلاً؟ ماذا سيحدث عندئذ؟ إرتعش من هذه الفكرة ودعا إليه عكيد آغا وكذلك نورة التي كانت بالغة أنذاك.

- عكيد، عليك بالرحيل مع الأطفال، جهزوا أنفسكم يجب ترك جاموش فان في ضوء النهار أن قلبي يعتصر ألماً.

- سنرحل معاً يا أخي أو سنبقى معك لم يكن صوت عكيد حازماً.

- لا لا،! لن أخرج وعدي، لا تخف عليّ، إرحلوا يا أخي إرحلوا، هكذا سأكون أكثر طمأننة سألحق بكم فيما بعد.

أنقبض قلب عكيد في هذه اللحظة المرة والمؤلمة، تقدم وحضن أخاه الكبير.

لم يأخذ التحضير منهم وقتاً طويلاً فبعد ساعة واحدة فقط غادر عكيد آغا مع الأطفال وعدد من أبناء العشيرة مع عائلاتهم جاموش فان الكبيرة، أما أولئك الذين مثل علي آغا فقد وثقوا بالأتراك وبقوا مع رؤسهم.

كان الوقت هو تلك الساعة الحالكة الهادئة قبل بزوغ الفجر عندما إختفى الشهر القمري من السماء، أما النجمة الصباحية الصافية فلم تطلع بعد، بينما كانت الطبيعة وكأنها منهوكة غارقة في سبات عميق، أما الناس فكانوا في مثل هذه الساعة، يستلذون بأحلام لذيذة ملء عيونهم وفي هذه الساعة الحالكة الهادئة قبل بزوغ الفجر بالذات دخل عساكر الأتراك جاموش فان الكبيرة.

أن قرية كيشما كيشيل الواقعة في وادي إلكياز إمتلأت بالعساكر الأتراك الذين داسوا ودنسوا كل المقدرات لقد تحول أحجار الصنم<sup>(1)</sup>

(1) احجار الصنم: يوضع على قبور الموتى من الاكراد الايزيديين انصاب وشواهد حجرية: صورة الكباش، الحصان، مهد الاطفال وفق من يرقد في القبر- راعي، محارب، طفل... الخ وهي كدليل ذكرة او وفاء ومحبة للمتوفي.

فوق قبور جاموش فان وكونداخ سوز إلى هدف لرمي البواريد من قبل العساكر للتسلية، قتلوهم أحياء والآن يعاركونهم وهم موتى مدنسين التماثيل المقدسة لموتاهم.

جلس علي آغا وحيداً في غرفته ذاهلاً عن كل ما رآه، كانت عيناه المنتفختان نصف مغلقتين وإلتوت سحنته سخطاً وأحس في صدره بوجع مؤلم وفي رأسه ساد ظلام حالك أكثر حلكة من ما حوله كما لو أنه في ليلة إخترقتها الشرارات الأخيرة للزوبعة وسخط علي آغا على نفسه وبقي خجولاً من نفسه فالأتراك خدعوه بقسوة، كان يجب أن يدرك ذلك، لكنه أفلت الفرصة من يده فقد أصبح الوقت متأخراً.. متأخراً فلن يعود الماضي وما تبقى من الأحياء المساكين الذين أولوا الثقة برئيسهم فقد راحو ينهالون باللعنات على كل عائلته.

أما أكشان التي أطبقت بشدة على أسنانها وأخفت دموعها فقد إحتضنت أطفالها وكانت أكشان تعيد الذاكرة الى اينجوزاك اليابسة عشب بري في الجبال فقد خيطة في كمامة بلوزة إبنها الممزقة بعض القروش الذي لمتها بصعوبة طوال سنين عديدة، كما أنها خبأت من باب الإحتياط في ثنايا الحزام العريض للخنجر العتيق للمرحوم عطو وأنتقل شعور الخوف والقلق إلى الأطفال حيث أنهم لم يقطعوا نظرتهم عن الباب.

ساد على القرية صمت مهدد فالشعور بوقوع الشر جعل الناس يلزمون بيوتهم وأنتظروا بذعر تطور الأحداث.

وبين فينة وأخرى عكر صفو الهدوء الشتائم المقذعة للعساكر

وصهيل الخيول وصرير العجلات وكذلك نباح الكلاب المدعورة ومن جديد ساد صمت مطبق أدخل الخوف بشكل أكثر إلى قلوب الناس وزاد من تيقظهم.

وقف القمر في المحاق مائل في السماء، لم يغمض جفن لأحد في القرية، لزم الناس بيوتهم بصمت يصغون بأنتباه للتأكد هل هناك من صراخ الذعر وأصوات البكاء من الجيران، كان الأتراك يقومون ليلاً بأعمال العنف بضراوة أكثر.

في هذه الليلة (تحدث) محمود باشا مع علي آغا.

- ها قد إلتقينا يا علي آغا، قال محمود باشا، لقد أنتقلتم أنذاك بمهارة إلى الروس لكنكم لم توقعون أيها الكردي واليوم بل الآن ستدفع لي عن دماء عساكرنا الأماجد الذين قتلوا على الحدود بأيديكم.

سكت محمود باشا وصارت عيناه مدورتين كعيني البومة الكبيرة وكان يفهم من عينيه أنه لم يشبع بعد من دماء الناس الأبرياء.

- إجلبوا ابنه إلى هنا، صرخ على العساكر دفعوا جندي إلى الغرفة.

- إبنك شاب جريء يا علي لم يخف من البقاء هنا وعمل عين العقل، سنضحى به بالذات قرباناً على عساكرنا وستفعل ذلك أنت بأيديك.

في هذه اللحظة رفع جندي يده بشكل واسع وحاد وضرب الباشا من بين عينيه مرت برهة من الزمن على الذهول العام حيث كان محمود باشا مستلقياً على ظهره بدون حركة على الأرض وبطنه الكبير البارز يتدلى على كل جسمه، هجم العساكر المتوحشون على جندي ولووا يديه وضرب أحدهم علي آغا وأوقعه أرضاً.

- لا تقتلوهم! صرخ محمود باشا على العساكر، لم يحن بعد ساعة موتهم.  
- قام هؤلاء السفاحون بأسناد الأب والإبن إلى الجدار.  
- كلا يا علي آغا، سوف لن يتخلص إبنك بهذه السهولة، ابدووا!  
- أوماً برأسه إلى عساكره وإتخذ وضعاً مريحاً في جلسته على اللباد  
متكاً بمرفقه على الوسادة.

رمى العساكر جندي على الأرض وبدؤوا يضربونه بأحذيتهم وبكل  
ما وقع تحت أيديهم، عذبه وبعد أن أطفأ الشعاع من عينيه، نظر علي آغا  
على كل ما حدث بصمت وكالمجنون تماماً.

وفي الصباح، وبأمر من الباشا أخرج العساكر علي آغا إلى فناء الدار  
ووضعوا بين أصابعه شموع مشتعلة وتحت قهقهات وهلهلة، أداروه في  
كل القرية حرقت نقط الشموع يديه وفحّم أصابعه لكنه لم يكن يشعر  
بشيء، لم يشعر حتى بالخنجر المغروز في ظهره بين الإضلاع.

أنتشر نبأ التنكيل بعلي آغا على بيوت جاموش فان، أنتحبت النسوة  
بصمت وضغط الرجال بشدة على نواجذهم وبكوا بصمت ودون دموع  
على رؤسهم وإختلط السخط واليأس مع الرعب والخوف والشفقة  
تجاه أولئك الذين إستشهدوا بيد العدو وتجاه أنفسهم المهددون بالقتل.

ما أن أقبل الليل حتى إجتمع الرجال خلسة عن عيون العساكر الترك  
في أحد البيوت وكانوا يأملون أيجاد منفذ لهم لله رب من جاموش فان،  
لكنهم رغبوا قبل كل شيء في التخفيف من همومهم بمشاطرة هذه  
الالأم والقلق فيما بينهم.

أوشكت الشمس على المغيب لكنها كانت لا تزال تبدو من ما وراء الأشجار على شكل قرص أحمر كبير، وأمتد الظل الكثيف على طوال البيوت بشكل حاد وسيطر قلق مبهم على الطبيعة كاملة.

لقد عذبهم الشعور بالضعف أكثر من خوفهم من الأتراك، لكن ماذا كان بإمكان بضعة عشرات من الرجال المجردون من السلاح أن يفعلوا؟ ومعهم زوجاتهم وأطفالهم! وليس من المعقول تركهم فريسة للأتراك، كان عدد العساكر لا يُحصى، علاوة على أنهم كانوا مدججين بالسلاح.

مضت أيام وليال كثيرة منذ أن تمكنت الحملة التركية من الإستيلاء على جاموش فان الكبيرة وعلى كل إلكياز، فقد الناس رشدهم وهم يشعرون بالوحدة ولا أحد لهم سوى الرب إستمرت حياتهم بلا أمل وفي عذاب منتظرين قتلاً وإهانات جديدة، كانوا غالباً ما يتذكرون اوكيز ممو الحكيم لم يصغوا إليه حينئذٍ إحتراماً وإخلاصاً لرئيسهم.

أن عزة النفس لدى الجبلين أحدث لديهم السخط على حالة الضعف أمام الأتراك، فكانوا يرتجفون حقداً عند سماعهم أخباراً عن فظائع جديدة للأتراك، وكيف أنهم وبدون تمييز ووحشية يمزقون المئات من الأبرياء نساءً وشيوخاً وأطفالاً.

كانوا يشعرون بالذل ففي الوقت الذي أنتفضت جميع القبائل في وجه الأتراك، فإنهم لم يفعلوا شيئاً بسبب خطأ علي آغا المقتول.

إضطر الناس العزّل إلى إلتزام بيوتهم بصمت حيث تحملوا ووحشية الأتراك وفي الصباح كان هناك ضحايا جدد، عشرة قتلى وعدد غفير من المشوهين بمن فيهم النساء والشيوخ والأطفال.

ساد الصمت بعض الحين على القرية كصمت القبور، ما عدا سماع  
بكاء أقرباء المقتولين ومئات المشوهين بين فينة وأخرى.

وبكت أكشان التي لا سلوان لها وفتفت شعرها، بكت كما تبكي كل  
أم، لقد فقدت إبنها، لم يشفق الأتراك على إبنها الحبيب من لحمها ودمها  
وكالذئبة الجريحة راحت تضرب رأسها بالجدران موجهة باللعنات على  
عائلة علي آغا الذي تسبب في تدمير القبيلة.

بدت الشيخوخة على أكشان بوجنتيها الداكنتين التي أخذت تحتضن  
إبنها ممددة يديها المرتجفتين شعره الأسود المتجدد وفي زاوية الغرفة  
جلست باريشان الصغيرة وعلى وجهها الصغير علامات الذعر والإرتباك  
وفي عينيها الدموع.

وفي وقت متأخر من الليل خرجت أكشان إلى الجبال لتسلم جسم  
إبنها التراب الرطب ورجعت خفية إلى القرية.

تمددت أكشان في هذه الليلة بملابسها وحرصاً منها على عدم  
إستيقاط باريشان النائمة تقدمت شيئاً فشيئاً وبهدوء إلى الباب لمعرفة ما  
إذا كان هناك أصوات لعساكر الترك المتجولين في القرية، جمدت إذنيها  
طيات السكون.

وعند إنبلاج الفجر وبينما كانت القرية لا تزال مظلمة كالححة الأفق  
الذي قد أغبر من الشعاعات الأولى للشفق، خرجت أكشان من القرية  
حاملة علي يديها إبتها الصغيرة.

لقد خلقت أحداث الشهور الأخيرة لدى أكشان شعوراً مقلقاً مضطرباً

فلم تعد تعرف الخوف كانت قلقة فقط على إبنتها على الانسانة الوحيدة التي بقيت حية من أقرباءها في هذا العالم. ومن أجلها كانت مستعدة أن تتحمل جميع مصائب الدهر، أن حبها الجرم لإبنتها قد شد من قلبها، لذا فأن أكشان لم تكن تحس بالكآبة والتعب.

أندفعت أكشان إلى الأمام دون تعب، بهذه الأرض الجريحة والمروية بالدم، إلى أن أشرقت شمس يوم غامض بالنسبة لمصيرها...

لم تكن أكشان تعرف لكنها أحسّت بقلبها الأمومي بأن هناك وراء الجبال حيث أشرقت الشمس اللطيفة تُبنى حياة حرة وجديرة في قرى أرمنية كثيرة، لكن أكشان كانت تعرف جيداً:

أن عليها السير نحو الشمس المشرقة التي جذبتها بشدة إلى نفسها...  
السير ثم السير!... إلى الشمس!... إلى الربيع!... إلى الحرية!...

أرادت أكشان النظر فقط إلى الأمام باتجاه الشمس الضاحكة، لكنها ما أن تذكرت البقية القليلة الباقية من أبناء عشيرتها الذين بقوا على قيد الحياة أثر الحملة الوحشية للعسكر التركي، حتى إلتفتت خلفها لا إرادياً نظرت وأمتلاً قلبها فرحاً:

حيث رأت كيف يسير خلفها ومن كل الجهات وبشكل أنفرادي ومزدوج السيبكيون الذين ساروا بحذر لكن دون خوف وبنثقة، أنهم ساروا مثل أكشان وإبنتها إلى الشمس إلى الربيع، إلى الحرية.

\*\*\*

## فيودور وأولغا

تركتُ مدينة يريفان مضطراً لبعض الوقت لضرورة العمل، وما أن عدتُ إليها ثانية حتى علمتُ أن نورة كانت في موسكو حيث حلّت ضيفة على أولغا أرملة فيودور ليتكين وتوجهتُ على عجل من أمري إلى نورة حيث هزني النبأ كنتُ أنتظر بفارغ الصبر الاستماع إليه او عما تعرف نورة من جديد عن أخيها فيودور (فيديا، فيريك) وبالطبع عن أولغا، وفعلاً، تقاسمت نورة معي مشاعرها مسرورة...

قبيل حدوث ثورة شباط عام 1917 بفترة قصيرة، تم طرد فيودور ليتكين من المدرسة الثانوية في أيركوتسك لنشاطاته وفعالياته بين التلاميذ داعياً أيّاهم إلى التمرد، وراح يسأل نفسه: ما العمل بعد الآن؟ فبعد موت والدته في تولون بفترة قصيرة بقيت شقيقته نورة وبريشان لوحدهما فيتولون، أما والده عكيد آغا فقد كان يعيش في ديغور البعيدة في القفقاس، أما هو كما يقال، لا هنا ولا هناك ما العمل؟..

لكن فيودور لم يكن من أولئك الذين يستسلمون للكآبة والخمول بسبب تقلبات الدهر، فرداً على فصله من مدرسة أيركوتسك، راح يكتب أشعاراً ساخطاً ضد الحكم الإستبدادي القيصري:

وهكذا، فأنا مدان

لقولٍ مشرفٍ صريح،  
لنداءٍ ثوري البؤساء.  
علقت مشنقتي  
دعهم يفعلون هذا...  
دعهم يعلقون مشنقتي،  
لكنكم أيها الجلادون، قامعوا الحرية،  
لن تطفئوا النار بالحديد!  
تقتلونني  
لكنكم عميان! ليس صراخي هذا  
بل أنه صراخ الشعب!  
تخفقونني، ولكن، روسيا؟  
هل ستبقون مخنقين في أقيية التعذيب الأبدية؟  
أم بالكرباج والسوط الفظيع  
تحلمون بهذا الحلم المتغطرس  
وتجبرون الحقيقة على السكوت؟

لكن، وبالرغم من كل ما حدث ومهما عذبتة الحياة فأن فيودور كان  
يحب أن يدرس!.. يدرس، يوسع معارفه، يكتمل نضوجاً ويعمل!..  
وإلا فإنه لا يستطيع الحياة.. هكذا يأمره قلبه!. وبما أن الطرق أمامه

كانت مسدودة في أيركوتسك، فأن فيودور ينتقل إلى ينيسييسك البلدة  
السييرية النائبة في أعماق التايغا بهدف متابعة الدراسة.

وتذكر بهذا الصدد قول ليرمنتوف ((بعيداً عن أنظارهم التي ترى كل  
شيء)) وبعيداً ((عن آذانهم التي تسمع كل شيء)).

بدأت ينيسييسك في البداية مملّة بالنسبة لفيودور، لكن أنطباعاته  
الأولية كانت مخادعة. وهنا أيضاً وفي هذه المدينة النائبة أقلق الناس  
نفس المشاكل التي كان يعاني منها أبناء جلدتهم في المدن الكبرى  
وسرعان ما تعرّف فيودور على رفاق له في الفكر وصادق الشباب ذوي  
الفكر التقدمي.

ففي ذات مرة ذهب فيودور إلى المسرح برفقة صديق له من المدرسة  
وفي الردهة إستقبلتهم امرأة جميلة شابة، حيث توجه زميله إليها أما  
فيودور فقد أتتبه الخجل فجأة وتأخر عنه، كان هناك شيء خاص في  
هذه الفتاة الجميلة أقلق فيودور وأربكه، توجه فيودور إليهما بطلب من  
رفيقه ومحاولاً السيطرة على نفسه.

- تعارفوا بعضكم على البعض، هذه أولغا سيميونوفنا، قال زميله  
وهذا رفيقي في الدراسة، لم يمض على إقامته في ينيسييسك سوى  
فترة قصيرة، وجوده جديد هنا إبتسمت أولغا سيميونوفنا بترحاب  
ومدّت يدها إلى فيودور.

- أولغا، قالت ذلك بصوت خافت.

وشعر فيودور بأنه يعرفها منذ أمد بعيد...

دار الحديث بينهم عن المسرحية المرتقبة وعن الدراسة في المدرسة وعن الأحداث السياسية الأخيرة في روسيا وفي سيبيريا وكذلك عن جميع الأمور الإعتيادية البسيطة. إتخذ الحديث طابعاً إعتيادياً كما يحدث عادة في صالة المسرح قبل بدء المسرحية، أنه حديث عابروبالرغم من طبيعة الحديث السطحية، فقد تمكنت أولغا من ملاحظة الآراء الحاذقة لفيودور والذي لا يناسب صغر سنه قطعاً، أعجبها هذا الطالب الرشيق ذو اللون الأسمر والشعر الأسود المُجعد البرونزي ووجهه بلطف الدعوة إلى الصديق الجديد لزيارة بيتها.

وبدءاً من تلك الأمسية وفيودور يحنّ بشكل غريب إلى أولغا محاولاً إستغلال جميع الحجج للإلتقاء بها، إستقبلته أولغا دائماً بحفاوة وترحاب مما زاد من إرتباطه بها.

وبالرغم من أن أولغا كانت أنذاك أما لطفلين ومن الطبيعي كانت أكبر منه سنّاً فأنهما تعاملتا مع بعضهما البعض كأبناء جيل واحد، ويبدو أن سبب ذلك كان فيودور أكبر عقلاً من سنه.

نما إلتباط المُتبادل بين فيودور وأولغا يوماً بعد يوم وسرعان ما شعرا قبل أن يدركا بأنهما لا يستطيعان العيش أحدهما بدون الآخر، حيث أن إعترافهما بالحب المتبادل جرى من خلال الحديث كشيء مفهوم وواضح...

في أيار من عام 1917 يغادر فيودور ليتكين نينسيسك مرة وإلى الأبد، حيث قرر إلتحاق بجامعة تومسك لكنه قبل ذلك، كان عليه أن يأخذ شقيقته نورة وبريشان الموجودتان في تولون إلى أبيه عكيد آغا

في ديغور، وفي نفس الوقت كان عليه مرافقة أولغا المريضة جداً إلى كراسنويارسك.

بعد أن نقل أولغا إلى كراسنويارسك ووضعها في المشفى غادر فيودور إلى تولون وكان يكتب إليها من هناك تقريباً كل يوم كان فيدور في رسائله طليقاً ومعبراً إلى أولغا:

- ((كلما فرّقت الأيام بيني وبين حبيبتي الأولى والأخيرة أولغا، إزداد حبي لها وأصبح الفراق مستحيلاً عزيزتي وحبيبتي الغالية! لقد أدركت فقط الآن، وبعد أن تفارقنا طوال الصيف خاصة أنه لا يزال أمامنا شهران طويلان مملاّن من الفراق، بأن آخر يوم من حياتك سيكون آخر يومي، وأن أنفاسك الأخيرة ستكون أنفاسي الأخيرة، أنني الآن في تولون، جالس أمام الطاولة وعليه مصباح صغير ضعيف النور، لكنني بأفكاري واحساسي وقلبي الكئيب، لست هنا، بل على بعد من هنا أنا معك! كم يصعب علي الكتابة، فالكلمة كالشمع الشاحب مهما تصنعيه يبقى دائماً شمعاً جافاً لكنك ستفهمين وستشعرين بلهفتي وحزني معذرة، إذا كانت رسالتي حزينة ولا أخفي عليك أن قلبي يحترق ناراً أما أنت فلا تقلقي بسببي ولا تضجري وتذكري بأن هذين الشهرين الأسودين من الفراق سيمران وسنكون معاً من جديد)).

أوصل فيودور كلاً من نورة وباريشان إلى الوالد ومكث هناك إسبوعين ومن ديغور كتب مراراً إلى أولغا فقد سلاها وأهدئها في رسائله وقوي فيها العامل النفسي وعندما كان يفتقر إلى عامل الوقت والإمكانات في كتابة الرسائل المفصلة، كان يكتفي بمراسلات مختصرة:

«سأكون قريباً ولا أستطيع التصرف عكس ذلك فالحياة بدونك هي الموت بذاته...»

يسافر فيودور إلى تومسك بنية الالتحاق بكلية الحقوق في الجامعة وهناك يتعرف فيودور على بريايكوف وعلى غيره من البلاشفة.

وتنضج الثورة في روسيا وفي 26 تشرين الأول 1917 يحصل بلاشفة تومسك على معلومات حول ثورة أكتوبر، وتتشكل لجنة ثورية مؤقتة في المدينة وبدأت تصدر مجلة للبلاشفة «عمال سيبيريا» ويدخل ليتكين ضمن هيئة التحرير، وسرعان ما يتم إنتخابه عضو اللجنة التنفيذية لمجلس المدينة (سوفيات نواب الشعب)، ثم يتم تعيينه قوميساراً عن قسم النشر.

أن أنهماكه في النضال الثوري حتى العظم لم يمنعه من نسيان أولغا للحظة واحدة كان دائماً يجد الوقت ليكتب إليها، أن لم تكن رسالة مفصلة فورقة مختصرة وهذه مقطع من رسالة فيودور إلى أولغا التي أذكرها في هذا الوقت الهائج:

- «فاليوم هو ذكرى ثورة شباط وتذكرني هذه المناسبة بسيل من الذكريات الرائعة البعيدة التي تربطني بك بشكل وثيق ومع ينيسييسك حيث الربيع وخرير المياه وجمال الطبيعه ورنين سقوط ماء الثلج الذائب وهتافات الحشد القادم من تافيا البعيدة وهلهلة الأحرار الذين علت وجوههم السعادة والبهجة.

لقد كانت قلوب الجميع تخفق على وتيرة واحدة وإستحوذ عليهم حماس عظيم وهذا اللقاء... لقائي معك، في بصيص خفيف وفي وداعة

مضيئة: كل كلمة من كلماتك كانت آية رائعة لمعالجة الجرح الذي غزا قلبي فكلانا الآن في الأسود رمز الأعوام المنصرمة أن قلبي الذي يتعصر ألما وحسرة يرتاح معك....»

في شباط عام 1918 شارك فيودور ليتكين في أعمال المؤتمر الثاني للسوفيتات سيبيريا الذي أنتخبه مفوضاً للشعب في حكومة سيبيريا ونائباً للرئيس في أواسط سيبيريا ومندوباً إلى المؤتمر الرابع غير الإعتيادي لعموم روسيا للسوفيتات.

سافر فيدور الى موسكو وهو مفعم بالطاقة الثورية وبحماس الشباب وفي الطريق يكتب إلى أولغا بحماس:

- «أقرب من فولوغدا سأكون فيها بعد ساعة ونصف وغداً سأكون في موسكو العاصمة القديمة والحديثة لروسيا العظيمة والتي رأت نابليون بالقرب من جدرانها وعاصرت سلالة رومانوف المخلووعة وأستقبلت أخيراً الحكومة الثورية الاشتراكية فمنذ قرون عديدة وموسكو الأبية تنظر الى العالم، يغمري إحساس لا أرادي وغامض عندما تعود بي الذاكرة إلى موسكو تعيد بي الذاكرة إلى عمق الأيام الغابرة البعيدة المليئة بالمأثر البطولية كم من الناس عبروا ضفاف نهر موسكو، كم من الكوارث الصغيرة والكبيرة جرت على هذه القطعة الصغيرة المعروفة من الأرض، كان هناك بوشكين وليرمنتوف، هنا تقوى وحارب «فيساريون العنيف» وبليسكي! زار هنا كل من يفتخر بهم في الثقافة الإنسانية...».

بعد عودته من موسكو إلى أيركوتسك، راح فيودور ليتكين يعمل

بشكل مكثف بصفته مفوضاً للشعب في أواسط سيبيريا كان الوضع متوتراً فقد رفعت رأسها الثورة المضادة وضُعت السلطة السوفيتية في سيبيريا بشكل مؤقت وسيطرت عصابات الحرس الأبيض المعادي للثورة على الموقف، اضطرت قيادة أواسط سيبيريا بمن فيهم ليتكين الى الالتجاء إلى أعماق التايغا، لكن الحملة المعادية هاجمتهم حتى في التايغا وعلى ضفاف نهر أوليما وفي معركة غير متكافئة مع الحرس الأبيض سقط قتيلاً فيودور ليتكين فيريك فيدكا بولات بيكوف وقبل شهرين من هذا التاريخ كان قد أتم الحادية والعشرين سنة وكأنه تنبأ بقتله القريب، فقد كتب قصيدة كوصية:

أنا ذاهب إلى آخر معاركي،

معركة متفانية بهيجة،

لا تبتهلوا عليّ بالصلوات

ولا تحزنوا عليّ أيها الأصدقاء.

أسير في حقل فسيح،

تحت صليل السيوف،

فلتعصف رياح السهوب

على قدرتي الأرعن.

أنا ذاهب إلى لقاء متغافل،

لقاء جرى مع العدو،

مقتحماً قتالاً عنيفاً،  
بصدر مفتوح منشرح.  
ذاهب أنا إلى آخر معاركي،  
معركة متفانية بهيجة،  
لا تبتهلوا علي بالصلوات،  
لا تحزنوا علي أيها الأصدقاء.

كان الربيع هو الفصل المحبب عند فيودور لكنه لم ينتظر ربيعته الثاني  
والعشرين، أقبل الربيع لأجل الآخرين، لأجل من ضحى فيودور بشبابه  
في سبيلهم.

\*\*\*

## الملاحق



## رسائل

### الرسالة الاولى

اثناء الابداء الجماعية التي حدثت في جاموش فان الكبيرة من قبل الاتراك كان من ضمن المقتولين شاب عُثر في ملابسه على رسائل مخفية، تعجبوا منها لعلمهم بان الايزيديين لا يجيدون القراءة والكتابة فقام المترجم بترجمتها للقائد العسكري:-

الرسالة كان قد بعثها فيريك فيديا الى ذلك الشاب والمسمى بـ ييمال: أخي العزيز ييمال، منذ شهور وسنين افترقنا ولم نلتقي، هل تتذكر عندما اتيت الى قريننا خراب ديگور، كم كانت جميلة، رأيتكم جميعاً أبي وعمي المسن واخي باسو، كيف هي عشيرتنا؟ ما ذا يفعل الطاشناق؟ هل لازال قاچاغ شفو، وقزو، وكزو ينشرون الفرقة والنميمة بيننا وبين جيراننا؟

اخي ييمال واصلوا الكفاح والنضال من اجل نشر المحبة والسلام بين أهالي قارص وبقية المناطق ايضاً، لا تقتلوا ولا تبيدوا بعضكم وأشرحوا كل شيء لاهالي القرى المحاذية لكم، اذهب بنفسك الى ديگور والتقي بأرام وهايك وتيگران واشوت وقل لهم اننا سنأتي سريعاً لنجدتهم،

عزيزي بيمال قل للأهالي بأن الجماعات الاخرى ليست عدوتنا حتى وان اختلفت لغتنا وديانتنا، اياكم والتفرقة والعداء، ابعثوا بالرسل الى قرى عجم، تاشنيك، تيكمه، وليلتقوا ب احمد وحسن وارسلوا الرسل الى القرى الاخرى وليكونوا حذرين، فعدوتنا هي حكومة الترك وهم بأسم الاسلام خدعوا جماعاتنا لدهور وازمنة، يقولون نحن مسلمين وأبقوا أنتم تحت سيطرة دولتنا وساندوها ولكن لا يحق لكم التعليم ولا يحق ان تكونوا لكم حكومة خاصة، ولا تقولوا نحن شعب، فالحكومة إسلامية، بأسم الاسلام شكلوا الراية والوحدات الحميدية ووجهوها نحو جيراننا القدماء.

لاتنسوا ان العمال الاتراك ابرياء، الدولة والاثرياء ينشرون الكراهية والعداء بين الشعوب، ابدلوا كل الجهود والطاقات لعرقلة تقدم عساكر الاتراك، امنعوا احتلال منطقتكم، لأنهم سيعيثوا الفساد والدمار والقتل في كل مكان.

قاوموا، مثلما تعلمون حدثت ثورة في روسيا، العمال والأهالي يقودون الدولة الان، الدولة القيصرية تهاوت، العمال لا يريدون القتال والحرب، لينين يقود الحكومة الجديدة، فهو ابو العمال، لأجلهم يفكر ولأجلهم يتألم، عاجلاً سيأتي لنجدتكم ايضاً، هو يعلم ان الشعب في ارمينيا يعيش في وضع صعب.

قاوموا، اربطوا مصيركم معنا وعندها سترون بعيونكم يوم خلاصكم وتحرككم، اما فيما يتعلق بي، فأنا الان قوميسيار للرفاق في منطقة سيبيريا، واعمل في المجال العسكري ايضاً وبصفة محرر في الجريدة ، وكذلك اكتب الشعر (الاشعار).

أستودعكم، تحياتي للجميع، بلغ الأصدقاء والرفاق بأننا سنلتقي قريباً، الرفاق الروس سيأتون لنجدتكم، وسيولد عالم جديد في ارمينيا .

**مخلصكم فيريك**

**نوفوسيبيرسك 18-3-1918**

## الرسالة الثانية

عام 1965 يكتب حاجي جندي في خاتمة روايته مايلي:

الان هي الذكرى الخامسة والأربعون لتأسيس جمهورية ارمينيا السوفيتية، ويتحدث جندي عن التطور والرقي والحرية التي منحت للشعوب المختلفة من بعد الثورة الشيوعية، وكذلك خلاصهم من الظلم والاضطهاد.

يقول بصدد ذلك انا اتحدث الان الى احد معارفي الشباب والذي ولد في تلك الليلة التي هاجم فيها الاتراك قرية جاموش فان في منطقة الكز (Elegez) وأبادوا كل رجالها، سمي ذلك الطفل ب فيريك واصبح الان ذا مسؤولية في وطننا، نتحدث كثيرا مع بعضنا، هو مطلع على مسودة الرواية التي كتبتها، قصتي وقصته وقصتي ابائنا كيف يتفاعل بها، لا اسئله عن ذلك، يشغله سؤال هام لذلك يقول: انا سعيد جداً لأنهم سموني فيريك تيمنا ب فيريك پولاتبيكوف، ذلك الشاب البطل الثوري الشهير، والذي ضحى بدمه في سيبيريا عام 1918 من اجل يومنا هذا، اردت ان اعرف، بعد اعلان السوفيت، من كان ذلك الرجل الذي جاء الى ارمينيا في (تلك) ومن ثم الى اشتراك ومن ثم رجوع ثانية؟

جماعتنا كانوا يحبون فيريك بولاتيبكوف ويعلمون انه كان يناضل في روسيا من اجل خلاص الجميع وعندما حدثت ثورة أكتوبر وتحتررت ارمينيا وجورجيا وأذربيجان ايضا تحرر معها الكرد ايضا، انتظرنا مجيء فيريك بولاتيبكوف لأننا نعلم انه ناضل من اجلنا، وبعد نجاح الثورة كان لا بد ان يأتي لخلاصنا،

سيأتي فيريك، سيأتي فيريك

في احدى الأيام وفي محطة قطار تبليس شاهدوا شخصاً يشبه فيريك قادم من موسكو قد نزل اقتربوا منه، حيوه، فرحوا من اجله، ثم قالوا له الست انت ابننا فيريك الذي انتظرناه، بعد ان تحررنا؟!!

القادم الجديد، بظننة وذكاء استغل الفرصة عندما فهم الموضوع وانتحل شخصية فيريك بولاتيبكوف ويقول نعم انا هو.

لذلك أتوا به الى قرية (تلك) وبعدها الى اشتراك، ولكن بعد ان اكتشفت نورا أمره وبأنه ليس اخاها فيريك، وفي احدى الليالي وبصمت تخرجه من البيت، والى الأبد، ولكن أهل (تلك) لم يعرفوا الامر، بعض المقربين ابتلوا بالامر لذلك أتت به نورا الى القرية ومن ثم طردته.

نعم انها مصائب الدنيا الغادرة، كل شيء يجب ان تتوقع حدوثه!

يجيب صديقي الشاب نعم انها كذلك، ثم يتصفح كتاباً على منضدتي ويسأل ياترى ماهو حال كوردستان الان؟

أجبتة كوردستان قد نهضت ولا بد انها ستتحرر يوماً من الظلم وستنال حريتها.

اعلم ذلك ولكن متى سيكون ذلك؟!  
سيأتي ذلك اليوم بكل تأكيد  
خبر سعيد، وأتمنى ذلك ومن ثم ينصرف..

## سيرة حياة فيودور ليتكين (1)

اسمه الثلاثي هو:

Fiodor Matvêjevîç Litkîn

ولد فيودور في عام ١٨٩٧ في قرية نيكولسكويى، ناحية تولون، محافظة أيركوتسك، تحديداً في ١٤-٧-١٨٩٧ من أم روسية وأب أيزيدي منفي في سيبيريا لكن في الوثائق ينسب الى (ماتفيي ليتكين).

وفيودور ليتكين هو شاعر وثورى بلشفيكي شارك في الحرب الأهلية التي حدثت في روسيا وكان احد الرؤساء المناضلين الذين ناضلوا من اجل اعلاء سلطة السوفيت في سيبيريا كان ينشر شعره في مجلة (ناشاره بوتة) في سيبيريا 1915 هرب من منطقته ودرس الثانوية (الإعدادية) في بينسيسك 1917 دخل جامعة تومسك / كلية القانون ويعد احد مؤسسي فرقة الجيش الأحمر في تومسك والتي قامت بطرد المجلس البلدي للمدينة التابع للنظام القديم وكان فيودور عضو مجلس سوفيت تومسك وعضواً في سكرتارية اتحاد عمال نفس المدينة تم انتخابه للمشاركة في الاجتماع الثاني لسوفيات سيبيريا بالاضافة الى عضويته في إدارة (1) معلومات عن فيديا ليتكين من البير ديبا (رجل دين ايزيدي في جورجيا).

ستروسيبر والعضوية في المحكمة العسكرية الثورية والتي كلفت بقمع انتفاضة الجيش الأبيض أيركوتسك وكان عضو القيادة العليا في سيبيريا ضد القوات المعادية للثورة البلشفية.

اختير بصفة رئيس للقسم السياسي وكذلك بصفة أركان لجهة بريبايكالي وزابايكالي وفي تلك المنطقتين هو صاحب امتياز جريدة كراسنونارمييتس (Krasnoarmÿÿts) والتي كانت لسان حال الجبهة المذكورة أعلاه.

تم انتخابه كعضو لاجتماع طوارئء سوفيات عموم روسيا، وتم اختياره بصفة كوميسار للشؤون الداخلية، في فترة ما سقطت سلطة السوفيت في سيبيريا فهرب مع مجموعة (ن. ياكوفليف) في 1918-6-9 واختبئوا في الغابات في 1918-11-16

تم أسره مع مجموعته البلشفية من قبل الكازاك (فرسان القيصر السابقين) وال (كول چاك) قوات سميت باسم جنرالهم كول چاك، تلك القوتين بقيادة كل من (زاخارينكو وگاييشيف) قامتا بأسر مجموعة فيودور ليتكين مع ثلاثة قادة آخرين ومن ثم قتلهم في نفس السنة (باعتباره احد القادة الاربعة) بعد نجاح ثورة السوفيت تم محاكمة قتلته أولئك القادة الأربعة البلاشفة في مدينة أيركوتسك عام 1921 وفيودور ليتكين هو من فخذ (ايسادزي) من عشيرة سيبكا.

صدر عن فيديا في سبعينات القرن المنصرم يتحدث عن حياته كما ذكر بعض الباحثين بأن فيديا كان قد كتب رواية ولكنها لم تكتمل لاستشهاده ونتيجة لنضاله الثوري سميت ثلاثة شوارع في ثلاثة مدن

باسم فيودور ليتكين وهي الآتية: تومسك، أيركوتسك، بينيسيسك (yênîsêyîsk) كما وله هيكل او تمثال او الأصح لوحة كما هو مبين في الصورة مع تعريف لشخصيته في مدينة تومسك، صدر له صورة على ظروف الرسائل في السوفيت بتاريخ 5-12-1986، يعيد فيودور نموذجاً للفرد الايزيدي الذي افنى حياته دفاعاً عن مبادئ واهداف وطنه.

## رواية (وجاء الربيع) عندما تحكي الرواية قصة شعب.<sup>(1)</sup>

صائب خدرنايف

تعد رواية وجاء الربيع للبروفسور الايزيدي (حاجي جندي) تحفة ادبية وتراثية وتاريخية فريدة ونموذج مميز للادب الايزيدي يخسر المثقف او الكاتب الايزيدي او غيرهم من النخب الثقافية والادبية عندما لا يطلع عليها فالرواية وكاتبها لا ينفصلنا في الابداع والاثارة ويمنحان القارئ مثلاً نموذجياً للجيل الايزيدي للتمسك بهويته القومية والدينية والنضال من اجلها مهما صاحبتة صعوبات الحياة وقساوتها اولاً وكتابة معاناة وتاريخ اهله للاجيال القادمة ثانياً، فحاجي جندي هذا الاديب هو برفسور كردي ايزيدي من مواليد قارس عام 1908 في قرية (بامان جاير) عاش يتيماً وعاش تاثيرات الفرمانات التي شنها العثمانيين (دواعش الامس) على الايزيدية بتفاصيلها فسطر احداثها في روايته الرائعة وجاء الربيع او (هواري)، يتحدث الكاتب ومن خلال شخوص الرواية التي تدور احداثها الحقيقية في اماكن وقرية تركية وارمنيه وروسية هاجر

---

(1) مقالي حول الرواية في موقع (بحزاني نت، وصوت كوردستان) بالاضافة الى نشرها في جريدة التأخي الكردية.

اليها الايزيدية خوفاً من بطش العثمانيين عن قضايا كثيرة تخص الشأن الايزيدي منها (العادات والتقاليد، التطرف الديني ضد الايزيدية، الهجرة من منطقة لاخرى خوفاً من بطش العثمانيين، قتل الشباب والنساء وخيانة الغير والتضحيه بالايزيدية بسهولة... الخ)

كما يفرد الكاتب اجزاء من الرواية عن شاعر روسي اسمه (فيودور ليتكين، فيريك بولات بيكوف) الكردي الاصل، هذا الشاعر الثوري الذي يبحث عنه مجموعه من الكتاب فيزور كمال احد الباحثين عن هذه الشخصية قرية اجداده القديمة لمعرفة تفاصيل عن عائلة ابيه ويلتقي بجاويش الذي يبدء بسرد تفاصيل الحياة والقصص التي عاشها الايزيدية في هذه القرى وغيرها من قرى الايزيدية التركية والارمنية والروسية فيبدء جاويش او (شويش) قصصه حول اعتداءات العثمانيين واضطهادهم للايزيدية من قبل الجندرمة التركية ومحاوله بث الفرقة بين الكرد من خلال الدين، وقيامهم باغتصاب النساء وقيام بعضهن مثل (شرين) الفتاة الايزيدية التي ترمي نفسها في نهر الفرات مع عدد من النساء حفاظاً على عفتها، ويتناول الكاتب ايضا قصه العدا بين عشيرة (السييكا وهسنان او هسنا) والعادات التي كانت منتشرة وقتذاك كخطف او نهب الفتاة عنوة كما حدث مع (كوليزار) المخطوبة من احد افراد عشيرتها وقد خطفها ووقع في حبها (عكيد اغا) أخ علي اغا رئيس عشيرة السبيكا فتلقي الحكومة الروسية القيصرية القبض عليه نتيجة لتصرفه هذا فتتفق العشيرتين على اقناع كوليزار بانها كانت راغبه في ذلك وتعترف كوليزار خلاف ذلك فتقرر الحكومة نفيه الى سيبيريا وهناك يتعرض لظروف صعبة تضطره بالزواج من (آنا) المسيحية

بعد فترة يقوم اخاه علي اغا بزيارته هناك فيغضب لزواجه من فتاة غير ايزيدية كاسراً العادات والتقاليد والاعراف الدينية وبعدها يعود عكيد اغا مع زوجته واولادة (نورة وباسو وفيودور - فيديا، ماروسا) الى قريته (خراب ديغور) وتلاقي زوجته النقد وصعوبة الاندماج مع العشيرة لعدم تقبلهم لها حتى ان القوالين عندما زارو القرية حاملين الطاؤوس - رمز مقدس للايزيدية- معهم رفضوا الدخول لبيت عكيد وعلي اغا لهذا السبب بعدها اضطرت (آنا) للسفر والعودة لسيبيريا ليشق ابنهم الصغير فيودور ليتكبن طريقه ليصل الى مناصب عليا فكرية وسياسية في سيبيريا بعد الثورة الشيوعية ولكن يقتل بعدها في احدى معارك مع الجيش الابيض او المنشقين.

الرواية الى جانب ذلك تتضمن تفاصيل وجزئيات كثيرة لا يخفى ايضا بأن حاجي جندي وضع جزء من معاناته ومعاناة اهله التي عاشها في نصوص الرواية كما للرواية اهمية تاريخيه ودينية وتراثية لكونها رواية حقيقية ولهذا فعلى المهتمين بالادب دراسة هذه الرواية والبحث فيها من خلال احداثها وشخصها التي تناولتها، كما ان الرواية تعيد الى الذاكرة الايزيدية الفرمانات التي عاشها الايزيدية في تركيا وارمينا وسوريا والعراق والابادات التي تعرضوا اليها على ايدي العثمانيين وكيف هاجروا وقتلوا في الجبال وبقرت بطونهم من اجل بقاءهم وحفاظهم على دينهم حيث يذكر الكاتب في الرواية كثير من القصص المحزنة والمثيرة لاهلنا التي عايشوها في تلك الحقبة، لتعيدنا الى مايعيشه الايزيدية اليوم من احداث لا تقل عن ماعاناة اهلنا في تلك الحقبة الزمنية وتصدق مقولة ان التاريخ يعيد نفسه ولكن بصور مختلفة،

الرواية بحاجة الى دراسة بحثية من باحثين مختصين في مجال الادب والاثروبولوجيا الايزيدية لتدخل بتفاصيلها واحداثها بشكل اعمق وهي فرصة لتكون دراسته لبحث ماجستير او دكتوراه للباحثين في هذه المجالات والمحزن جداً بأن اغلب الجيل الجديد او حتى معظم الاجيال السابقة لم يتطلع على تفاصيل هذه الرواية وغيرها من النتاجات الادبية والروائية الايزيدية التي تمثل جزء من تراثنا وتاريخنا وذاكرتنا والاكثر حزناً بأن اي مؤسسه مدنية او حكومية ايزيدية لم تطبع او تعيد طباعة اي من هذه الاعمال الادبية الرائعة.

نحن بحاجة لتسليط الضوء على هذه القامات الادبية والفكرية الايزيدية (كعربي شمو وجليلي جليل وحاجي جندي وعسكر بويك... الخ) ونتاجهم الادبي والثقافي وتحديد مناسبات لتكريمهم، بالاضافة الى ادباء ايزيديين واخرين عراقيين وغيرهم خدموا الايزيدية باعمالهم الادبية والفكرية (بعيداً عن الحساسيات السياسية) من خلال اعادة طبع منتجاتهم الادبية باللغات العربية والكردية والانكليزية وكذلك تخصيص غرفه في معبد لالش تبني خصيصاً لتكون مكاناً يحوي رموز وصور تسجل تاريخ هؤلاء واعمالهم لتعريف الزائرين بهم وبتنتاجهم الادبي والثقافي فالشعوب التي لا تهتم بمفكرها وادباءها هي شعوب خاوية ومؤسساتها هي مؤسسات فاسدة فالتذكير بهؤلاء الشخصيات يبقى حافزاً للمثقف ونبراساً لاطفالنا بأن هذه الدماء التي في عروقنا هناك من دفع روحه ثمناً لاستمرارها وعانى برودة الثلوج والجوع والقتل للحفاظ عليها لانها تمثل هويتنا الدينية.

رواية وجاء الربيع تأليف حاجي جندي ترجمها من الروسية الدكتور

اسماعيل حصار الذي ناقش إطروحة الدكتوراه تحت عنوان (المسألة الكردية في العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية) في القسم الكردي بمعهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية بموسكو بإشراف الكرذولوجي المعروف م. س. لازاريف.

بغداد

24 / تموز / 2015

## السيرة الذاتية



الدكتور حاجي جندي:- ولد في شهر آذار من عام 1908 ضمن اسرة فقيرة الحال تعمل بالزراعة من اطراف منطقة قارص بشمال كردستان، وهو من الكرد الإزديين، اضطرت اسرته الى الهجرة والهرب الى ارمينيا بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى وفي عام 1919 عادوا الى قريتهم التي تدمرت نتيجة الحرب الروسية التركية، وفقد اسرته واصبح يتيماً، ودخل دار الايتام ودرس الابتدائية فيها ثم هاجر قسرياً الى يريفان عاصمة ارمينيا للمرة الثانية ودرس في معهد التربية وانهاها عام 1929، واصبح معلماً يدرس التلاميذ في القرى الارمنية، وبعدها تعلم لغته الام واصبح يترجم الكتب الارمنية الى اللغة الكردية. وفي عام 1930 قبل في جامعة يريفان بكلية الآداب، افتتح معهد التربية قسم اللغة الكردية واصبح فيها

حاجي جندي استاذاً للغة الكردية، وفي تلك السنوات بدأت جريدة (ريا ته زه) الطريق الجديد بالنشر وترأس حاجي جندي مسؤولية الصفحة الادبية، وكذلك مسؤول الراديو الكردي في يريفان حتى عام 1937 وقد لعب دوراً مهماً في انجاز أول مؤتمر إستشراقي للتعريف بالشعب الكردي في يريفان، حيث حضرها العديد من المثقفين الروس والكردي من جمهوريات آسيا الوسطى عام 1934 وانضم الى المؤتمر الاوّل لاتحاد كتاب الإتحاد السوفياتي عام 1934 واصبح عضواً فيها. وفي عام 1937 اعتقل بتهمة العلاقة مع اعداء الاتحاد السوفيتي، وبقي في السجن مدة عام الى ان اطلق سراحه. وتخرج من الجامعة ونال شهادة الدكتوراه في الادب الكردي عام 1940، وبعد تخرجه وفي سنوات الحرب العالمية الثانية 1944 انتهى من تدوين اهم مؤلفاته (الفلكلور الكردي) باللغة الارمنية وطبعها على شكل مجلدين وتعاون معه في اعدادها الكاتب امين عفدال، يحتوي هذا الكتاب على جمع شامل للقصص والقصائد الكردية الكلاسيكية واهم عوالم الأدب الكردي وشخصياتها مع الشرح والتفسير وقد ترجمها مؤخراً الكاتب توسني رشيد الى اللغة الكردية وطبعت في دار افستا للنشر باسطنبول واصبح كتابه هذا مرجعاً مهماً اشاد به رئيس جمهورية مهاباد قاضي محمد. وفي عام 1959 اسس وترأس القسم الكردي في معهد الاستشراق التابع للأكاديمية العلمية الارمنية واستمر بالتدريس فيها الى عام 1968 حيث فتح قسم الآداب الكردية في جامعة يريفان واصبح بروفوراً محاضراً حول اللغة الكردية فيها وافته المنية في يريفان عام 1990، حيث الف خلال مسيرته الشاقة العديد من الروايات واهمها رواية وجاء الربيع او

هواري والقصص الكردية وترجم العديد من الكتب الروسية الى اللغة الكردية، كما وألّف عدداً من الكتب المدرسية، وبلغ مجموع مؤلفاته أربعين كتاباً من ضمنها: كادر أو كولوكي سليماني: ملحمة شعبية كردية. - الفولكلور الكردي. - أدب أكراد أرمينيا السوفياتية بالاضافة الى رواية وجاء الربيع او هواري.



الدكتور إسماعيل محمد حصاف:- مواليد قرية كرسور كوردستان سوريا، منطقة قامشلو عام 1953، إحتضنت إسرته منذ بداية الستينات كوادر البارتي والملاحقين والمناضلين الكورد، مما لعب دورا في الحركة السياسية الكردية في ريعان شبابه ككادر حزبي في عام 1975 سافر إلى الاتحاد السوفيتي كأول طالب كردي سوري يحصل على منحة دراسية من البارتي الديمقراطي الكردي اليساري في سورية. وفي سنة 1981 حصل على درجة الماجستير في العلوم التربوية باللغتين الروسية والانكليزية. وفي سنة 1982 اسس منظمة الحزب اليساري الكردي في اوربا والسوفيات أصدر في عام 1983 ولوحده في موسكو جريدة شهرية ناطقة بإسم التنظيم بإسم «راستي» تتناول القضايا الكوردستانية، صدر منها 12 عددا سلم نسخا منها إلى مكتبة البروفيسور جليلي جليل للإحتفاظ. عام 1983 أسس مع عدد من المناضلين الكرد جمعية طلبة وشبية كوردستان (يوكسي) وأنتخب عضوا في قيادتها في المؤتمر المنعقد في برلين الغربية ومسؤولا عن الإتحاد السوفياتي ومسؤولاً عن العلاقات الكوردستانية، حيث شارك في إجتماع برلين للجمعيات

الطالبة الكوردستانية عام 1983 وإجتماع براغ في خريف العام ذاته في 22 كانون الثاني من عام 1986 حصل على الدكتوراه من القسم الكردي بمعهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية عن اطروحته تحت عنوان: «المسألة الكردية في العلاقات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية» بإشراف الكوردولوجي المعروف م. س. لأزارييف وتشكل كوردستان العراق محور الإطروحة.

عمل استاذاً جامعياً في جامعات الجماهيرية الليبية ويعمل حالياً استاذاً مساعداً في جامعة صلاح الدين بأربيل اقليم كوردستان. وله العديد من البحوث والدرسات والكتب التي نشرت حول القضية الكردية والعديد من القضايا الادبية كترجمته لرواية وجاء الربيع بالاضافة الى اشرافه على العديد من رسالات الدكتوراه والماجستير والبيكالوريوس. وهو مؤسس وسكرتير الپارتى الطليعي الكوردستاني - سوريا ومن مؤلفاته نذكر:

- سمكو بيجيرماني، كوردستان القضية والوطن في المعاهدات والمواثيق الدولية، كراس (د.م)، 1986.

- وزيرى آشو، دوسية البارزاني في محافظة ستالين الفولاذية، مؤسسة البحوث والنشر موكراني، هولير، 2008، (عن الروسية).

- موضوعات من الكردولوجيا السوفيتية (ترجمة عن الروسية)، مؤسسة البحوث والنشر موكراني، هولير، 2008.

- كوردستان والمسألة الكردية، مؤسسة البحوث والنشر موكراني، أربيل، 2009.

- (Gel Dêrdê) رواية الجزء الأول وزارة الثقافة، هولير، 2011 (باللغة الكردية اللاتينية).

- صلوات كولياموف، آريا القديمة وكوردستان الأبدية (الكرد من أقدم الشعوب) ترجمة: (عن الروسية) د. إسماعيل حصاف، متابعة وتدقيق: ماركرت حصاف، مؤسسة البحوث والنشر موكرياني، هولير، 2011.



صائب خدر نايف:- كاتب وناشط حقوقي مختص في الشأن الايزيدي والاقليات الدينية في العراق، حاصل على شهادة الماجستير في القانون من جامعة دهلي بالهند، القى العديد من المحاضرات عن الايزيدية وحقوق الاقليات في العديد من مؤسسات المجتمع المدني والمؤتمرات المحلية والمؤسسات الاكاديمية في العراق وخارجه.

صورة شخصية لفيودور ليتكين (فيديا)



لوحة جدارية لفيودور ليتكين (فيديا) في مدينة تومسك الروسية



صورة لظرف رسالة عليه صورة فيديو في روسيا في 5/12/1986 وتعد  
طريقة لتكريم الشخصيات المعروفة في الاتحاد السوفيتي انذاك

Активный участник борьбы за Советскую власть в Сибири  
Ф. М. ЛЫТКИН  
1897—1918

Куда \_\_\_\_\_

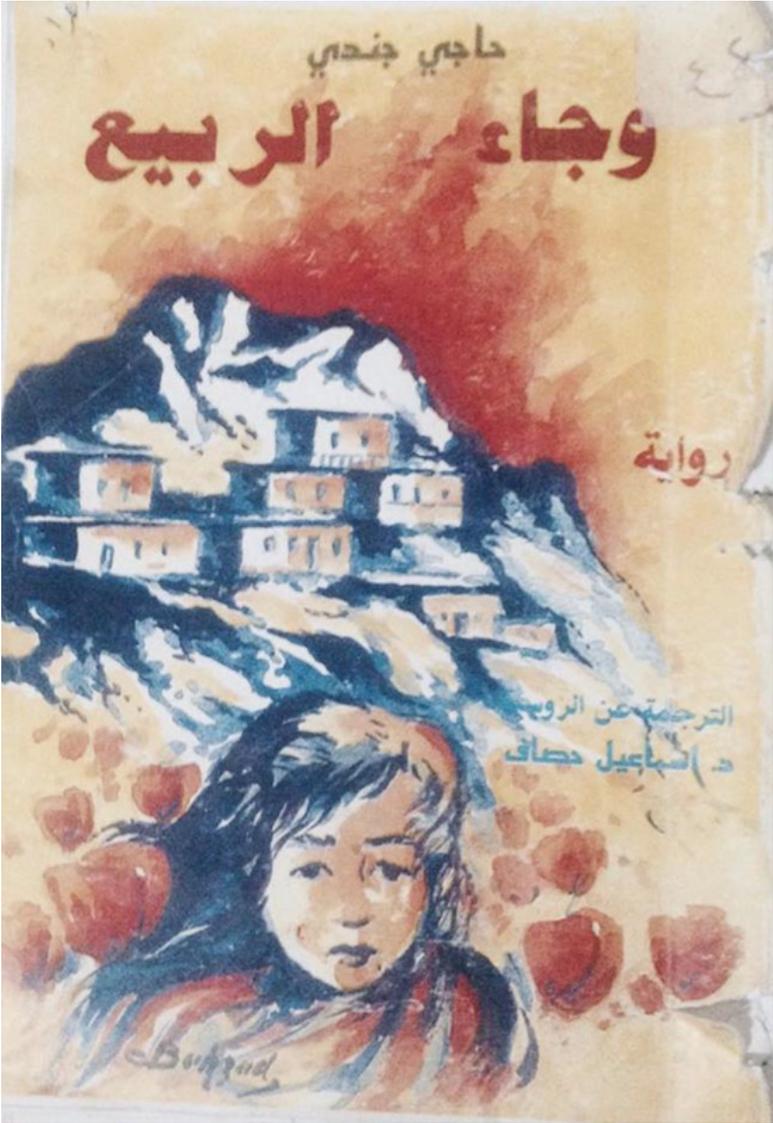
Кому \_\_\_\_\_

Индекс предприятия связи и адрес отправителя:

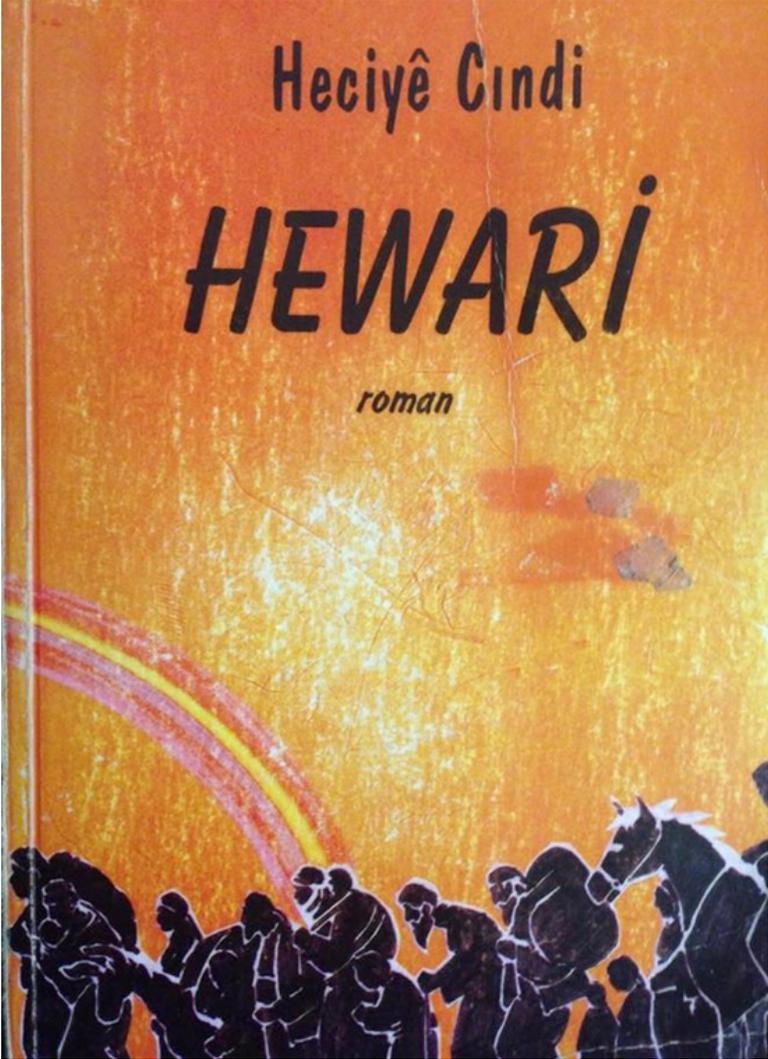
Пишите индекс предприятия связи места назначения

www.filpersona.ru

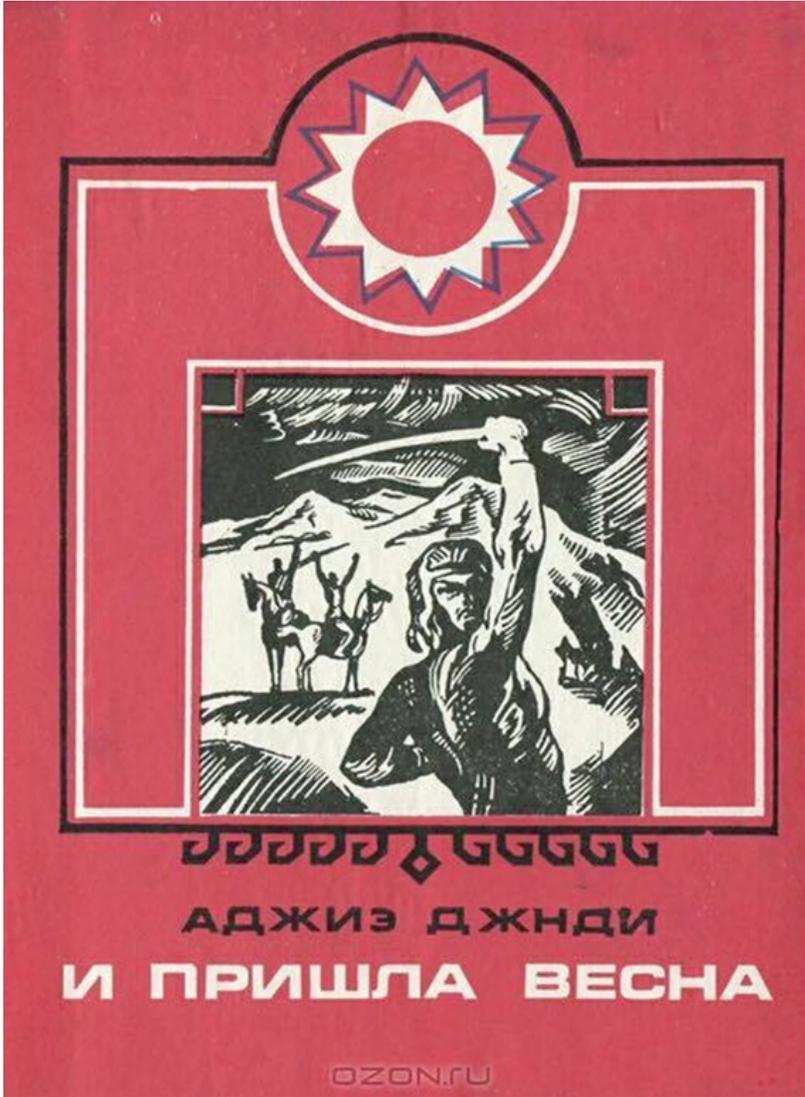
صورة لغلاف الرواية باللغة العربية التي ترجمها عن الروسية الدكتور  
اسماعيل محمد حصاف (دمشق 1993)



صورة لغلاف الرواية باللغة الكردية الطبعة الاولى (1999) منشورات  
روزا نوى تم تحويل لغة الرواية من الحروف الكليزية الى الحروف  
اللاتينية من قبل (صالح اوامري وناقدار) واعداد الطبع (اونال ياردجي)  
وقدم للطبعة الدكتور (عسكر بويك).



صورة لغلاف الرواية باللغة الروسية ترجمها من اللغة الكردية (افان  
عفدالي) موسكو 1978





## شكر وتقدير

شكر وتقدير للإستاذ الدكتور إسماعيل محمد حصاف الذي أبدى موافقته وتعاونه على إعادة طبع وتقديم الرواية التي ترجمها عن الروسية وسعادته لتقديمها إلى القارئ العربي والكردستاني مرة أخرى، كما أقدم الشكر أيضاً لكل من ساعدني على إعادة تقديم ومراجعة هذا العمل الفريد، ومنهم الكاتب الايزيدي (بدل فقير حجي) الذي كان أول من عرفنا على الرواية وتفصيلها وكذلك بعض القضايا الدينية والتراثية الواردة فيها ولا ننسى جهده في مراجعة النسخة الكردية ورفدنا بالأفكار التي تضمنتها أيضاً، كما أقدم الشكر لرجل الدين والباحث الاكاديمي (بير ديما) رجل دين إيزيدي من جورجيا الذي كان يزودنا بتفاصيل عن أسماء القرى والأعياد التي يمارسها الإيزيدية في ما وراء القفقاس وكذلك الصور وسيرة حياة فيودور ليتكين والشكر موصول أيضاً لمركز الدراسات الايزيدية في البيت الايزيدي في اولدنبورك ومنهم الدكتور (عسكر بويك) الذي اعطى لنا معلومات عن المؤلف وتاريخه الثقافي والفكري في ارمينيا.

هذا العمل مدين أيضاً لآخرين قدموا الدعم والمساندة لإعادة طبع هذا العمل  
إلأدبي و نأسف لعدم ذكر إسماءهم، شكرا لكم جميعاً.

صائب خدر نايف

بغداد 2016

يبحث كمال عن فيديا ليكتين كأحد الرموز الثورية المهمة في روسيا بعد ثورة 1918 وفي اطار بحثه عن هذا الشخص يتوصل إلى اصله الكردي - الإيزيدي فيعقد العزم للتعرف أكثر عن قصص هذا الشعب فيسافر إلى قراهم ويلتقي بالعم چاويش الرجل العجوز صاحب الذاكرة المتقدمة فيقص له قصص الإيزيدية ومعانتهم على أيدي الأتراك وهجرتهم إلى روسيا القيصرية وعمليات الإاضهاد الذي تعرضوا لها بسبب أنتماءهم الديني ويفرد الكاتب أيضا قصصاً لعادتهم وتقاليدهم بأسلوب سهل وشيق لا يخلو من الحزن ما يميز الرواية بأنها العمل الأكثر قرباً إلى قلب المؤلف، وثانياً أنها رواية حقيقية تاريخية تتناول الاضطهادات التي تعرض اليها الايزيديين من قتل وتهجير في زمن الدولة العثمانية هذه الرواية تجعلنا نربط أحداث اليوم بأحداث الأمس لتعيد للذاكرة صرخة قديمة مستمرة وجرحاً قديماً لم يلتئم الى الآن ويأتي تصديقاً لمقولة: التاريخ يعيد نفسه ولكن بصور مختلفة، فما اشبه أحداث اليوم بحق الإيزيدية بأحداث الأمس في زمن العثمانيين.

## الفهرس

7	الأهداء
9	تمهيد
15	مقدمة المترجم
21	توضيحات
27	القسم الأول
29	بشرى
39	كوراكاند
46	ألف باء
51	عرسٌ لم يتم
57	دفاعاً عن الشرف
84	غزال
110	مصيبة وراء مصيبة
141	عيد خدر نافي
155	على أرض قارص
165	القسم الثاني
167	الزعيم الجديد
218	الإختطاف

230	قبيلة ضد قبيلة
237	إعتقال عكيد آغا
266	كوليزار
277	حكاية شباب
283	سييريا
294	آنا كارتاشوفا
308	عام 1918
324	فيودور وأولغا
333	الملاحق
335	رسائل
335	الرسالة الاولى
338	الرسالة الثانية
338	عام 5691 يكتب حاجي جندي في خاتمة روايته مايلي:
341	سيرة حياة فيودور ليتكين
344	رواية (وجاء الربيع) عندما تحكي الرواية قصة شعب
344	صائب خدر نايف
349	السيرة الذاتية
363	شكر وتقدير



